أعلام المسلمين

٥٧

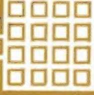


ابن كثير الدمشقي

الحافظ - المفسر - المؤرخ - الفقيه

تأليف

الدكتور محمد الزحيلي



دار القلم

دمشق



تأليف
الدكتور محمد الزحيلي

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣


ابن كثير الدمشقي
الحافظ. المفسر. المؤرخ. الفقيه

هٰــذَا الرَّجُــل

«الإمام، الفقيه، المحدث، الأوحد، البارع، عماد الدين. . .، فقيه متقن، ومحدث متفنن، ومفسر نقاد، وله تصانيف مفيدة».

مؤرخ الإسلام الذهبي، شيخ ابن كثير

«كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بتخريجها. . .، وكان فقيهاً، جيد الفهم، صحيح الذهن».

مؤرخ الإسلام ابن حِجّي، تلميذ ابن كثير

«ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين، أبو الفداء».

الحافظ ابن ناصر الدمشقي

«كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته».

الحافظ ابن حجر العسقلاني

«إمام أهل التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرف الأسماع بأقواله وشنّف، وحدَّث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد».

المؤرخ ابن حبيب الحلبي

«كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ. . .، له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير».

العلامة العِيني

«الحافظ عماد الدين. . .، المحدث المتقن البارع، ذو الفضائل والتصانيف التي سارت في البلاد في حياته».

الشريف الكتاني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يكافىء نعمه، ويوافي مزيده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المتصرف بخلقه وكونه، وإذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه، وقال له: كن فيكون، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، الصادق الوعد الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وهو إمام المتقين، اصطفاه الله واختاره، وبعثه للناس أجمعين، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، ولحق بالرفيق الأعلى، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه إلى يوم الدين، ورضي الله عن الصحابة أجمعين، وعن التابعين، ومن تبعهم بإحسان. . . آمين.

وبعد:

فإن العلماء مشاعل نور تضيء للناس طريق الخير والصلاح والتقدم والرقي، ويشع نورها على امتداد الأجيال، وهم الموئل في الملمات، والمرجع في المشكلات، والمورد للارتواء، والحجة على العباد.

وإن الإنسان له عمر محدود، مهما بلغ من الكبر عتياً، ثم يدركه الموت، ولكن بعض الناس تمتد حياتهم بعد الموت، ليبقوا أحياء على

مر التاريخ، وتبقى شعلتهم مضاءة في الخافقين، وينتفع الناس بهم إلى ما شاء الله تعالى، ويبقى اسمهم متردداً على الألسنة، ويبقى علمهم فياضاً، وهم في قبورهم مع الأجداث، تصديقاً للحديث الشريف: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا مِنْ ثلاثةٍ، إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[١].

ومن هنا تبرز أهمية «سلسلة أعلام المسلمين» التي حرصت دار القلم بدمشق على إصدارها ورعايتها ونشرها، لدراسة حياة العلماء الأعلام، وتجديد سيرهم، وبيان فضلهم، والعمل على التأسي بهم.

ومن هذه السلسلة أحد العلماء الأعلام البارزين الذين مضى على وفاته ستة قرون ونصف القرن تقريباً، ولا يزال ذكره يتردد في ردهات العلم، وعلى ألسنة العلماء وطلاب العلم، وبين يدي القراء والمثقفين، وفي المكتبات والمساجد والبيوت والمدارس والجامعات، وهو **العلامة إسماعيل بن عمر، المعروف بابن كثير الدمشقي، المفسر، الحافظ، المؤرخ، الفقيه، الأديب**، الذي توفي عام ٧٧٤ هـ، وترك آثاراً خالدة، وكتباً متنوعة، لا تخلو منها مكتبة، وهذا ما دعاني إلى قبول الكتابة عنه.

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة، وهذا لفظه (١١/ ٨٥ كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته) ورواه أبو داود (٢/ ١٠٦ كتاب الوصايا، باب الصدقة عن الميت) والنسائي (٦/ ٢١٠ كتاب الوصايا، باب الصدقة عن الميت).

وتكاد شهرة «ابن كثير» رحمه الله تعالى، وذكراه تنبع من فضله وعلمه، وتواضعه واعتداله، وإخلاصه وتوفيق الله تعالى له بالتأليف، واختياره العلوم المهمة النافعة، وبذله الجهد الدؤوب على التصنيف فيها، مع التسامح المذهبي، فكان من شيوخه العالم الشافعي، والفقيه الحنفي والحنبلي، كما سنرى في شيوخه، بالإضافة إلى شمائله وفضائله وأخلاقه الفاضلة، ومواقفه الحميدة التي تبرهن على دخائله وبواطنه.

خطة البحث:

قسمت الدراسة عن ابن كثير رحمه الله تعالى إلى قسمين، الأول: عن سيرته الشخصية التي تصور لنا مراحل حياته، وأطوار نشاطه، وتأثره بمن سبقه، وأثره على تلاميذه ومعاصريه، وصورة مصغرة عن كتبه وإنتاجه، ثم عن وفاته والثناء عليه، والقسم الثاني: عن حياته العلمية، لدراسة مصنفاته، وتحليل مضمونها، وبيان أهميتها في الماضي والحاضر والمستقبل، وانتشارها بين أيدي الطلاب والباحثين والعلماء، ومنهجه في التأليف والتصنيف، ودراسة العلماء والباحثين لهذه الكتب، والتعامل معها، ونشرها.

وقدمت للبحث بتمهيد عن عصر ابن كثير في القرن الثامن الهجري، وخاصة من الناحيتين السياسية والعلمية، وختمت الدراسة بالنتائج والخلاصة عن الموضوع، وذلك حسب التفصيل التالي:

تمهيد: عن عصر ابن كثير في القرن الثامن الهجري في دمشق خاصة والشام عامة.

الباب الأول: سيرة ابن كثير الشخصية، وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: البطاقة الشخصية لابن كثير.

الفصل الثاني: نشأة ابن كثير وتكوينه العلمي.

الفصل الثالث: أعمال ابن كثير ومناصبه.

الفصل الرابع: صفات ابن كثير ومواقفه.

الفصل الخامس: تلاميذ ابن كثير وإنتاجه.

الفصل السادس: وفاة ابن كثير والثناء عليه.

الباب الثاني: السيرة العلمية لابن كثير، وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: ابن كثير والتفسير.

الفصل الثاني: ابن كثير وعلوم الحديث.

الفصل الثالث: ابن كثير والتاريخ.

الفصل الرابع: ابن كثير والسيرة والتراجم.

الفصل الخامس: ابن كثير والفقه.

الخاتمة: نتائج البحث وخلاصته.

منهج البحث:

كان منهج البحث ـ في هذه الدراسة ـ تاريخياً، تحليلياً، موجهاً، فهو تاريخي لأن جوهر البحث والدراسة الأحداث التاريخية، وأخبار

التاريخ، لذلك تتبعنا كتب التاريخ والتراجم، واستقصينا الأخبار منها، ولم نقتصر على مجرد النقل، بل قمنا بتحليل بعض الأحداث، مع المقارنة بينها، وعرضنا الأخبار المتعارضة، وقمنا بترجيح ما نراه الأصح، كما قصدنا من المبدأين السابقين توجيه القارىء لما يعود عليه بالخير والنفع والاستفادة، وحرصنا على أخذ العبر والفوائد من روايات التاريخ وأحداثه، وهذا هو المقصد الأساسي من دراسة التاريخ والتراجم وعرض سيرة العلماء الأعلام، والأئمة والدعاة والمصلحين.

واعتمدت ـ في البحث ـ على طريقتين، حسب البابين السابقين، الأولى: تاريخية استقصائية لاقتباس أصح رواية وصورة لسيرة ابن كثير، والثانية: تحليلية للكتب والمصنفات التي وصلت إلينا عن ابن كثير، وكثيراً ما تجتمع الطريقتان خلال البحث، لأحلل بعض الجوانب في السيرة الشخصية، وأستقصي تاريخياً ما يتعلق بالكتب والمؤلفات.

وسيرى القارىء الكريم المتعة في دراسة هذه الشخصية الفذة، ويضع يده على الوثائق التي لمعت في التاريخ الإسلامي، ويطمئن قلبه إلى الآثار العلمية للتربية الإسلامية، والتطبيق الفعلي لمبادىء الإسلام النظرية، وما يدعو إليه القرآن الكريم والسنة الشريفة، وهو ما يذكر به الدعاة، ويدعو إليه العلماء في كل عصر، لتحقيق السعادة للناس، وإقامة الحضارة الإنسانية في الكون.

الدراسات السابقة:

لما بدأت البحث وجمع المعلومات عن ابن كثير قصدت المكتبة الوطنية والمكتبات التجارية بدمشق لعلي أحصل على دراسة مخصصة لحياته وكتبه، فلم أعثر على شيء، واستشرت بعض الزملاء والأحبة، وكتبت بعض الرسائل للاستفسار، فلم أحظ بجواب، إلا ما وقع تحت يدي من كتابات عامة عن ابن كثير ضمن الدراسات التاريخية والتفسير وعلم مصطلح الحديث، وفي مقدمات كتبه المطبوعة المتوفرة، وما قدَّمه أصحاب التراجم والتاريخ من بيانات موجزة عن ابن كثير وكتبه.

واستعنت بالله تعالى على الدراسة والكتابة حسب المعطيات التي وصلت إليها، أو حصلت عليها، وانتهيت من كتابة التمهيد عن عصر ابن كثير، والباب الأول عن سيرته الشخصية، وثلاثة فصول من الباب الثاني عن سيرته العلمية، وبقي الفصلان الأخيران فقط، وهنا وصلني من الأخ الفاضل الأستاذ محمد علي دولة ـ الذي كنت راسلته مسبقاً في هذا الخصوص ـ وصلني منه كتابان، الأول بعنوان ابن كثير حياته ومؤلفاته، والثاني ابن كثير كمؤرخ ـ دراسة تحليلية لكتابه البداية والنهاية ـ وكلاهما للدكتور مسعود الرحمن خان الندوي، ومطبوعان في مركز الدراسات الآسيوية الغربية بجامعة عليكرة الإسلامية ـ عليكرة ـ الهند ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩ ـ وعرفت من دراستهما أن الكتابين يمثلان رسالة دكتوراه في التاريخ بعنوان: «دراسة لابن كثير كمؤرخ في ضوء كتابه البداية والنهاية» في

قسم الدراسات الإسلامية بجامعة عليكرة الإسلامية بالهند، ثم فصل بينهما عند الطباعة فقط.

وعكفت على دراسة الكتابين، فتبين لي الاختلاف بين عملي وبين منهج المؤلف في التبويب والدراسة والاستنتاج والهدف، والاتفاق في نقاط أخرى، كما وجدت فيهما أموراً جديدة، بعضها يتصل بالمنهج الذي وضعته، فعملت على إضافتها خلال الفصول، وعزفت عن جانب كبير منها، وخاصة اعتماده الأساسي على المعلومات المستقاة من كتاب البداية والنهاية.

ويظهر أن الكتابين يُعدّان لطبعة ثانية، وسُلِّما إلى السيد مُجد مكي ليهيىء النص، ويعدل بعض الأمور، فأفاد بخط يده فوائد عدة أخذت بها، وأهمها إضافة بعض الكتب المنسوبة لابن كثير، وقال في آخر كلامه: «وانظر: الإمام ابن كثير المفسر، للشيخ مطر الزهراني»[1] مما يدل على وجود كتاب في هذا الخصوص، ولكني لم أستطع الحصول عليه، ولعله رسالة ماجستير، لأنه ورد في مكان آخر أن الأستاذ مطر الزهراني حقق «مسند عمر بن الخطاب» لابن كثير، وحصل فيه على درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى بمكة المكرمة[2]، ولم يبين التاريخ لذلك، ولم أستطع الاطلاع على هذه الرسالة، وهذا ما اقتضى بيانه.

---

(١) ابن كثير، حياته ص ١٤٨، هامش ٢ بخط المصحح.

(٢) ابن كثير، حياته ص ١٢٦ هامش بخط المصحح.

وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد وحسن القصد، والنفع والانتفاع، والإخلاص والأجر، ليدخر الله تعالى لنا هذا العمل المتواضع، ليكون ذخيرة ليوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وعلى الله التكلان.

الدكتور محمد الزحيلي

وكيل كلية الشريعة للشؤون العلمية

بجامعة دمشق

دمشق في ٤ ربيع الأول ١٤١٥ هـ

الموافق ١٠/٨/١٩٩٤ م.

تمهيد

عَصْر ابن كثير

عاش ابن كثير رحمه الله تعالى حياته الكاملة في القرن الثامن الهجري (٧٠١ هـ - ٧٧٤ هـ) الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي (١٣٠٢ـ ١٣٧٣ م)، وقضى حياته كلها في دمشق حاضرة بلاد الشام.

وكانت بلاد الشام في هذا العصر موحدة مع مصر، تحت حكم المماليك، وكان الحاكم الأعلى هـو السلطان بمصر، وهو يعين نائب السلطنة عنه بدمشق، وتدار البلاد من المصدرين، وتكاد الأمور أن تكون متشابهة في القطرين في هذا العصر من مختلف النواحي.

ويعتبر هذا القرن من القرون العجيبة في تاريخ الإسلام عامة، وتاريخ هذين القطرين خاصة، وفيه شبه كبير بالقرن الذي نعيش به اليوم، وفيه من المتناقضات الشيء الكثير من النواحي السياسية والدينية، والعلمية والاجتماعية، والفكرية والاقتصادية، والداخلية والخارجية، والحروب والنكبات والكوارث والأوبئة.

ونكتفي بإلقاء الضوء على الناحية السياسية والناحية العلمية.

أولا: الناحية السياسية في بلاد الشام:

كانت بلاد الشام - كما سبق - خاضعة لدولة المماليك التي جاءت بعد دولة الأيوبيين في مصر والشام، وكانت امتداداً لها، ونستطيع أن نسلط الضوء عليها من خلال النقاط التالية:

١- صلة المماليك بالأيوبيين:

قامت دولة الأيوبيين في مصر والشام، وأنجزت أموراً سياسية خطيرة ومهمة، أهمها القضاء على دولة الفاطميين، وإعادة نفوذ أهل السنة والجماعة، والانضواء تحت سلطة الخلافة العباسية ببغداد، ولو اسماً، ثم واجهت الصليبيين في بلاد الشام ومصر، وحققت الانتصار العظيم عليهم، وحررت بيت المقدس من أيديهم، ووحدت السلطة بين الشام ومصر على يدي صلاح الدين الأيوبي.

وأراد الأيوبيون تقوية نفوذهم، وحماية ملكهم وسلطتهم، فأكثروا من شراء المماليك من مصادر متعددة لتدريبهم، والاستعانة بهم في الداخل والخارج، حتى أصبح المماليك أصحاب النفوذ والقوة في القرن السابع الهجري، وصارت لهم كلمة مسموعة، وتدخلوا في شؤون الحكم واستطاعوا تدبير مؤامرة لخلع الملك العادل الثاني الأيوبي، وإحلال الصالح نجم الدين أيوب محله في السلطنة، فأحس نجم الدين بفضل المماليك عليه، وأهميتهم له في توطيد سلطانه والاحتفاظ بمكله، فتوسع في شراء المماليك مع العناية بهم، والبذخ

عليهم، واختار لهم جزيرة «الروضة» وسط النيل بمصر، لتكون لهم مستقراً ومقاماً، فأطلق عليهم اسم «المماليك البحرية»، وكانوا من الأتراك والمغول، والشراكسة، والصقالبة، واليونانيين، والإسبان، والألبان[1].

وأثبت المماليك جدارة فائقة في قيادة الجيش الإسلامي للوقوف في وجه الحملات الصليبية المتتابعة، وحققوا انتصارات باهرة، واستطاعوا استرداد بيت المقدس (للمرة الثانية) من الصليبيين سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م، وانتصروا على حملة لويس التاسع، وأسروه سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م، وكانت هذه الواقعة مقدمة لاستيلاء المماليك على الحكم في نفس السنة، وإنهاء حكم الأيوبيين، واختاروا شجرة الدر لتكون سلطاناً على البلاد، وهي تركية الأصل، واعتبرها المقريزي أولى سلاطين المماليك في مصر، ثم تنازلت بعد عدة أشهر إلى قائد الجيش الأتابك أيبك الذي أصبح سلطاناً سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م، وأعقبه السلاطين طوال ثلاثة قرون تقريباً، وهم في معظم الأحوال قادة الجيش، فإذا مات السلطان أو قتل تولى قائد الجيش السلطة بعد لعبة سياسية، وقد يتعجل قائد الجيش ذلك فيقتل السلطان ثم يتولى الحكم مكانه.

---

(١) تاريخ المماليك، للدكتور عادل زيتون، ص ١ وما بعدها، المطبعة الجديدة بدمشق ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.

٢ـ السياسة الداخلية والخارجية:

كان الخط السياسي للمماليك متشابهاً، ومستقراً من حيث الظاهر، وكانت السياسة الخارجية واحدة مع البلاد الإسلامية والدول الكافرة، في السلم والحرب، والمناوشات والتدخلات، وكان حكم المماليك ـ من حيث الظاهر ـ مسيطراً ومتتالياً خلال ثلاثة قرون، ولكنه كان من الناحية الداخلية في اضطراب دائم، وانقلابات عسكرية متلاحقة، وتناحر على السلطة التي تكون النتيجة فيها للقوة والقهر، والغلبة والتسلط، وتعتمد على التآمر والخيانة، والاغتيالات المستمرة، سواء بين الحكام أنفسهم، أو بين الحكام والولاة، ووقف جمهور الناس موقف المتفرج من الأحداث، ينتظرون الغالب والظافر أحياناً، ويفاجؤون بالسلاطين والحكام والولاة أحياناً أخرى، إلا إذا داهم البلاد خطر خارجي، فتتوحد الصفوف، وتتكاتف الأيدي، ويقف الجميع أمام العدو، وكثيراً ما تحقق النصر المؤزر ضد الهجمات المتتابعة من قبل المغول والتتار من الشرق، أو من الصليبيين من الغرب، وقد تقع الخيانات الخارجية، أو اللقاءات المريبة مع الكفار، أو التنازلات المشبوهة عن أجزاء الوطن، ليحمي الحاكم سلطته ويحافظ على وجوده، ويحتفظ بالكرسي، مما أثار حفيظة العلماء والدعاة، وكشفوا هذه الأباطيل، وإن نالهم الأذى والسجن والطرد، كما حدث مع العز بن عبد السلام والصالح إسماعيل عندما سلم قلعة «سقيف» إلى الفرنج[١].

---

(١) انظر تفصيل القصة في كتابنا «العز بن عبد السلام» من سلسلة . .=

وظهر بعض السلاطين الأقوياء المشهورين مثل قطز الذي قاد معركة عين جالوت (٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م) وانتصر فيها على المغول والتتار، وبيبرس الذي حارب الصليبيين عشر سنوات وانتصر عليهم، وطارد فلول المغول، وقلاوون، وابنه محمد.

وكان خط السير في السياسة الداخلية واحداً بما فيه من الانقلابات الكثيرة، والاغتيالات المتلاحقة، إلى أن استطاع المماليك البرجية أو الجراكسة أن ينتزعوا الحكم من المماليك البحرية قبيل نهاية القرن الثامن (٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢ م) وكان أول سلاطينهم الظاهر برقوق، الذي استطاع الصمود في وجه تيمورلنك، وأرسل جيشاً لإنقاذ بغداد منه، وتحقق له النصر (٧٩٦ هـ/ ١٣٩٤ م) وأصبحت بغداد تابعة لدولة المماليك الثانية أو الجركسية[1]، لكن تيمورلنك توجه إلى بلاد الشام، واحتل حلب ودمشق، ثم مات سنة (٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م)، وتم تحرير البلاد من أعوانه وجيشه.

وشهد القرن الثامن أيضاً مأساة أخرى في الغرب الإسلامي الذي فقد الفردوس في الأندلس، وتلا ذلك انشقاقات بين ملوك المغرب الأقصى وثورات داخلية، وفتن واضطرابات، واضطهادات حملت

= أعلام المسلمين، ص ١٧٤ وما بعدها.

(١) تاريخ المماليك ص ٦٧ وما بعدها، وانظر سمات دولة المماليك وظواهرها المختلفة في كتابنا «تاريخ القضاء في الإسلام» ص ١٦٠.

الكثيرين على الرحيل إلى المشرق، وفيهم العلماء[1].

وهكذا كانت البلاد تنتقل من فرح غامر بنشوة الانتصار على الأعداء الخطرين في الشرق والسواحل، إلى المفاجآت بالاغتيالات والانقلابات الداخلية، والهجمات المتتالية الخارجية، ومن الاستيلاء على عكا وطرد آخر بقايا الصليبيين في الشرق سنة (٦٩٠ هـ/ ١٢٩١م)، ثم مواجهة جيوش تيمورلنك، ثم الحروب المتتالية في الأندلس التي انتهت بخسارة المسلمين وخروجهم منها.

ثانياً: الناحية العلمية:

كانت الحياة العلمية في بلاد الشام ومصر، في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، على النقيض من الناحية السياسية، وكان الازدهار العلمي واضحاً وملموساً حتى من سلاطين المماليك ونوابهم وحكامهم، وكانت الظروف العامة تحفز الحركة العلمية، كما أن المرحلة التاريخية حملت العلماء في مصر والشام المسؤولية كاملة بعد سقوط بغداد، وضياع الأندلس، ووقوع النكبات في دور العلم، وإحراق الكتب، ويظهر ذلك في النقاط التالية:

١ـ المسؤولية العلمية:

أحس العلماء بالشام ومصر بالنكبات القاصمة، والويلات العظيمة، والخراب الكامل الذي حل بالمسلمين في القرن السابع

---

(١) الفتح المبين ٢/ ٩٩.

والثامن، سواء في بغداد شرقاً، والشام ومصر بالوسط، والأندلس والمغرب غرباً، فهزمت الجيوش الإسلامية، وألغيت الخلافة في بغداد، وشرد الناس، وأبيحت أعراضهم، وسلبت أموالهم، وأحرقت مكتباتهم، وكادت شعلة العلم أن تنطفىء، وجذوة الإيمان أن تخبو، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨/٦١]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٩/٣٢]، ورحل العلماء عن أوطانهم، واتجهوا صوب مصر والشام، وتجمع علماء المشرق والمغرب في القاهرة ودمشق، وشمروا عن سواعد الجد والنشاط، فأحيوا العلوم، ودونوا الكتب، وصنفوا الموسوعات، وعوضوا كثيراً مما فقد، وأصبحت بلاد الشام خاصة من أعظم مراكز القوى العلمية في العالم الإسلامي حينذاك، وعاشت دمشق تشهد عز الإسلام بعد الانتصار على جيوش المغول، والقضاء على فلول الصليبيين، وتنظيف السواحل منهم[1]، فنشطت الحركة العلمية، وقام العلماء بمهمتهم خير قيام.

يقول الأستاذ محمود رزق سليم عن العلماء في العهد المملوكي: «بهذا كله نراهم قد استجابوا لذلك النداء المدوي في أرجاء الضمائر الإسلامية، داعياً إلى تعويض الإسلام وتاريخه عما فقده من ذخائره في بغداد بالتتار، وفي الشام بالصليبيين، وفي الأندلس بالفرنج»[2].

---

(١) تهذيب الكمال، المقدمة ١/ ١١-١٢.

(٢) عصر سلاطين المماليك ٣/ ٩٥.

ويقول الشيخ عبد الله مصطفى المراغي عن الحالة العلمية في القرن الثامن الهجري: «وإذا كانت حركة التأليف والتدريس وبناء المدارس العلمية قد نشطت في هذا القرن نشاطاً ملحوظاً، بحكم المنافسة بين الأمراء والحكام، فإن شمس الاجتهاد قد احتجبت»[1].

٢ـ إنشاء المدارس:

تظهر سمة بارزة في العصر المملوكي بكثرة إنشاء المدارس في مصر والشام، وقد وصف العلامة النعيمي تسابق الحكام والأمراء والسلاطين وأبناء دمشق على إنشاء دور العلم والمعاهد الدينية، ووقف المؤسسات الخيرية عليها، وسجل النعيمي في كتابه القيم «الدارس في تاريخ المدارس» عدد المدارس في دمشق المحروسة فقط، فجمع فيها تاريخ دور القرآن (١/ ٧) ودور الحديث (١/ ١٩) ودور القرآن والحديث معاً (١/ ١٢٣) وبلغت مدارس الحديث وحدها حوالي عشرين مدرسة، ثم عرض النعيمي مدارس الشافعية (١/ ١٢٩) وكانت حوالي ٦٠ مدرسة (١٢٩ـ٤٧٢) ومدارس الحنفية حوالي ٥٣ مدرسة (١/ ٤٧٣ـ٦٥٠) ومدارس المالكية أربع، ومدارس الحنابلة إحدى وعشرين مدرسة (٢/ ٣ وما بعدها) بالإضافة إلى التدريس في الجوامع والزوايا والربط والتكايا، وجاء كتاب النعيمي في مجلدين كبيرين نشرهما المجمع العلمي العربي بدمشق.

---

(١) الفتح المبين ٢/ ٩٩.

ويصف الأستاذ محمود رزق سليم الحركة العلمية في عصر المماليك، فيقول: «وقد غذاها سلاطين المماليك بظهورهم بمظهر حماة الإسلام، وذادة الدين، لأنهم مسلمون، ويحكمون شعباً أغلبيته من المسلمين، هذا فضلاً عن أن مصلحتهم السياسية تقتضيهم الظهور بهذا المظهر، فنحوا نحواً دينياً في معظم تصرفاتهم، فأقاموا الشعائر، وقربوا علماء الدين، ورفعوا منزلتهم، وجالسوهم، وناظروهم، واهتموا في مجالسهم بتحقيق المسائل الدينية، وأقاموا قضاة الشرع يحكمون بين الناس بما أنزل الله، واستشاروا القضاة والعلماء في كثير من معضلات الدولة، وعززوا نفوذهم في الشعب بإنشاء المساجد ودور التعليم، ليتلى فيهاكتاب الله، ويقرأ حديث نبيه، وتدريس شريعته، كما أنشؤوا الربط والخوانق والزوايا للصوفية، ومن لف لفهم، وأوقفوا على ذلك كله الأوقاف. . .، وعينوا في كل منها المشايخ والمدرسين والأئمة. .، لهذا كله كان طبيعياً أن تنشط روح التأليف في النواحي الدينية، وأن تثمر خير الثمار، وكان مما زادها نشاطاً منافسة محمودة بين علماء مصر والشام، وطمع في المنافسة بين علماء غيرهما من الأقطار الإسلامية في ميادين العلم والأدب»[1].

٣ـ كثرة العلماء:

امتاز القرن الثامن الهجري بكثرة العلماء في العالم الإسلامي

---

(١) عصر سلاطين المماليك ٣/ ١٢٦.

عامة، وفي مصر والشام خاصة، وكانت القاهرة ودمشق تعجان بالعلماء من مختلف العلوم، وهم الذين عاصروا ابن كثير، وشاركوا في النهضة العلمية في هذا القرن، نقتبس ثلة منهم لإلقاء الضوء العلمي على هذا العصر.

وبادر الحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) ـ ولأول مرة في التأليف ـ لتصنيف كتاب خاص بتراجم علماء القرن الثامن، وسماه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، ووصفه في مقدمته، فقال: «فهذا تعليق مفيد، جمعت فيه تراجم من كان في المائة الثامنة من الهجرة النبوية، . . . من الأعيان، والعلماء، والملوك، والأمراء، والكتاب، والوزراء، والأدباء، والشعراء، وعنيت برواة الحديث النبوي. . .»[1]، وجاء هذا الكتاب القيم الفريد في خمس مجلدات، ووصفه المحقق الشيخ محمد سيد جاد الحق بقوله: «كتاب جمع من بدائع العلوم، وروائع العقول، ما عزَّ مثله في كتاب، حتى صار قاموس القرن الثامن الهجري، الذي سارت بذكره الركبان، وتحدث بحسنه المَلوان»[2].

ولتوضيح الصورة نعدد أسماء بعض العلماء الأعلام من القرن الثامن الهجري، إضافة لما سنذكره من أساتذة وتلاميذ لابن كثير، وما نخصصه من مؤرخين، كما يضاف إلى ذلك الحفاظ المحدثون،

---

(١) الدرر الكامنة ١/ ٤.

(٢) الدرر الكامنة المقدمة ١/ ٦، والمَلَوان: مثنى الملا، وهما الليل والنهار.

والمفسرون وغيرهم من أئمة العلوم المختلفة، ونكتفي هنا بأشهر العلماء الأعلام في الفقه وأصوله في القرن الثامن الهجري، نختارهم من كتاب «الفتح المبين في طبقات الأصوليين» ومن غيره.

١ـ **ابن دقيق العيد**، محمد بن علي بن وهب، القشيري المنفلوطي المصري، الفقيه الشافعي، الأصولي، صاحب التصانيف الشهيرة (٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢ م)[١].

٢ـ **النسفي**، أبو البركات، حافظ الدين، عبد الله بن أحمد، الفقيه الحنفي، الأصولي المفسر، المحدث المتكلم (٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م)[٢].

٣ـ **ابن الرفعة**، أحمد بن محمد بن علي الأنصاري، أبو العباس، الفقيه الشافعي، كان محتسب القاهرة، وناب في الحكم، وله كتب منها: «الكفاية في شرح التنبيه» و «المطلب في شرح الوسيط» (٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م)[٣].

٤ـ **القطب الشيرازي**، محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي الشيرازي، الفقيه الشافعي، الأصولي النحوي، البلاغي، المحدث، الفيلسوف، الحكيم، المفسر (٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م)[٤].

٥ـ **صفي الدين الهندي**، محمد بن عبد الرحيم بن محمد، الفقيه

---

(١) الفتح المبين ٢/ ١٠٢.
(٢) الفتح المبين ٢/ ١٠٨.
(٣) الدرر الكامنة ١/ ٣٠٣.
(٤) الفتح المبين ٢/ ١٠٩.

الشافعي، الأصولي، ولد بدهلي، ورحل إلى دمشق واستوطنها، وتوفي بها (٧١٥ هـ/ ١٣١٥ م)[١].

٦- **صدر الدين بن الوكيل**، محمد بن عمر بن مكي، صدر الدين، المعروف بابن الوكيل، وابن المرحِّل، المصري، الفقيه الشافعي، الأصولي، المتكلم، النظار، الأديب، الشاعر (٧١٦ هـ/ ١٣١٦ م)[٢].

٧- **نجم الدين الطوفي**، سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم، الصرصري البغدادي الحنبلي، الأصولي، النحوي، أبو الربيع، توفي ببلدة الخليل بفلسطين (٧١٦ هـ/ ١٣١٦ م)[٣].

٨- **ابن الشاط**، قاسم بن عبد الله الأنصاري، سراج الدين، عمدة المحققين، الفقيه المالكي، الأصولي (٧٢٣ هـ/ ١٣٢٢ م)[٤].

٩- **ابن تيمية**، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، شيخ الإسلام، تقي الدين، أبو العباس، الإمام المحقق، الحافظ، المجتهد، المحدث، المفسر، الأصولي، النحوي، الواعظ، الخطيب، القدوة، الزاهد، نادرة العصر (٧٢٨ هـ/ ١٣٢٧ م)[٥].

---

(١) الفتح المبين ٢/ ١١٥.

(٢) الفتح المبين ٢/ ١٠٨.

(٣) الفتح المبين ٢/ ١٢٠.

(٤) شجرة النور الزكية ص ٢١٧.

(٥) الفتح المبين ٢/ ١٣٠، وستأتي ترجمته مفصلة مع شيوخ ابن كثير.

١٠- برهان الدين الفزاري، إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم، أبو إسحاق الفزاري المصري الأصل، الفقيه الشافعي، الأصولي، النحوي، الخطيب، توفي بدمشق (٧٢٩ هـ/ ١٣٢٨ م)(١).

١١- علاء الدين البخاري، عبد العزيز بن أحمد بن محمد، الفقيه الحنفي، الأصولي (٧٣٠ هـ/ ١٣٢٩ م)(٢).

١٢- التبريزي، موسى بن محمد، مصلح الدين التبريزي، أبو الفتح، الفقيه الحنفي، الأصولي، أصله من تبريز، وقدم دمشق، وخرج للحج، وبعده قصد الزيارة فمات في الطريق (٧٣٦ هـ/ ١٣٣٥ م)(٣).

١٣- ابن جزيء الغرناطي، محمد بن أحمد بن محمد، أبو القاسم، الغرناطي الكلبي، الفقيه المالكي، الأصولي، المفسر، المحدث، المتكلم، الأديب، النحوي، الخطيب (٧٤١ هـ/ ١٣٤٠ م)(٤).

١٤- الزيلعي، عثمان بن علي بن محمد، فخر الدين الزيلعي، الفقيه الحنفي، قدم القاهرة وتوفي بها (٧٤٣ هـ/ ١٣٤٢ م).

١٥- ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي الحنبلي، شمس الدين، أبو عبد الله الصالحي، من الحفاظ

---

(١) الفتح المبين ٢/ ١٣٥، وستأتي ترجمته مفصلة مع شيوخ ابن كثير.
(٢) الفتح المبين ٢/ ١٣٦.
(٣) الفتح المبين ٢/ ١٤٠.
(٤) الفتح المبين ٢/ ١٤٨.

المعروفين، والقراء والفقهاء والنحويين، لازم الشيخ تقي الدين بن تيمية وأبا الحجاج المزّي، وأخذ عن الذهبي، وله سبعون مصنفاً (٧٤٤ هـ/ ١٣٤٣ م)[١].

١٦ـ **يحيى بن حمزة بن علي**، الإمام الحسيني، العلوي الطالبي، من أكابر الزيدية وعلمائهم في اليمن، ولد بصنعاء، وتلقب بالمؤيد بالله، والمؤيد برب العزة، فقيه أصولي (٧٤٥ هـ/ ١٣٤٤ م).

١٧ـ **صدر الشريعة الأصغر**، عبيد الله بن مسعود، الإمام الحنفي، الفقيه، الأصولي، الجدلي، المحدث، المفسر، النحوي، الأديب، النظار، المتكلم، توفي في شرع آباد ببخارى (٧٤٧ هـ/ ١٣٤٦ م)[٢].

١٨ـ **شمس الدين الأصفهاني**، محمود بن عبد الرحمن بن أحمد، أبو الثناء، الفقيه الشافعي، الأصولي، النحوي، الأديب، المنطقي، الكاتب البارع، ولد بأصفهان، وكان يلازم الجامع الأموي بدمشق، وتوفي بالقاهرة (٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م)[٣].

١٩ـ **ابن عبد السلام**، محمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري، المنستيري، أبو عبد الله، الفقيه المالكي، كان قاضي الجماعة بتونس، له كتاب في الأصول (٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م).

---

(١) شذرات الذهب ٦/ ١٤١، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٥٠.
(٢) الفتح المبين ٢/ ١٥٥.
(٣) الفتح المبين ٢/ ١٥٨، وستمر ترجمته في شيوخ ابن كثير.

٢٠ـ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، الزرعي، الدمشقي، شمس الدين، المعروف بابن قيم الجوزية، الفقيه الحنبلي، الأصولي، المحدث، المفسر، الأديب، الواعظ الخطيب (٧٥١ هـ/ ١٣٥٠ م)[١].

٢١ـ العضد، عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، الإيجي، الملقب عضد الدين، الفقيه الشافعي، الأصولي، المنطقي، المتكلم الأديب (٧٥٦ هـ/ ١٣٥٥ م)[٢].

٢٢ـ تقي الدين السبكي، علي بن عبد الكافي بن علي، السبكي، أبو الحسن، الفقيه الشافعي، المفسر، الحافظ، الأصولي، النحوي، اللغوي، المقرىء، الجدلي (٧٥٦ هـ/ ١٣٥٥ م)[٣].

٢٣ـ صلاح الدين العلائي، خليل بن كيكلدي بن عبد الله، أبو سعيد، الدمشقي، المحدث، الفقيه الشافعي، البحاث، النظار، الأصولي، الأديب، المتكلم، ولد بدمشق، وتوفي بالقدس (٧٦١ هـ/ ١٣٥٩ م)[٤].

٢٤ـ ابن مفلح، محمد بن مفلح بن محمد، المقدسي الصالحي، الملقب بشمس الدين، أبو عبد الله، الفقيه الحنبلي، الأصولي،

---

(١) الفتح المبين ٢/ ١٦١، وستمر الإشارة إليه عند شيوخ ابن كثير.
(٢) الفتح المبين ٢/ ١٦٦.
(٣) الفتح المبين ٢/ ١٦٨.
(٤) الفتح المبين ٢/ ١٧٥.

النظار، توفي بدمشق (٧٦٣ هـ/ ١٣٦٢ م)[١].

٢٥ـ **التونسي**، محمد بن محمد بن أبي القاسم الربعي، التونسي، من فضلاء المالكية، تونسي الأصل، استقر بمصر (٧٦٣ هـ/ ١٣٦٢ م).

٢٦ـ **الصفدي**، خليل بن أيبك بن عبد الله، صلاح الدين الصفدي، ولد بصفد في فلسطين، وتعلم بدمشق، وتوفي بها، وله تصانيف كثيرة في التراجم والرجال (٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م)[٢].

٢٧ـ **ابن العطار**، شمس الدين بن العطار، من أصحاب ابن كثير الذي يقول عنه: «توفي في العشر الأوسط من المحرم صاحبنا الشيخ شمس الدين بن العطار الشافعي، كان لديه فضيلة، وله اشتغال، وله فهم، وعلق بخطه فوائد جيدة، وكان إماماً بالسجن من مشهد علي بن الحسين بجامع دمشق، ومصدراً بالجامع، وفقيهاً بالمدارس، وله مدرسة الحديث الوادعية، وجاوز الخمسين بسنوات، ولم يتزوج قط»[٣]، توفي سنة (٧٦٥ هـ/ ١٣٦٤ م).

٢٨ـ **الشريف التلمساني**، محمد بن أحمد بن علي، الشريف الحسني، أبو عبد الله، الفقيه المالكي، الأصولي، العلامة المحقق،

---

(١) الفتح المبين ٢/ ١٧٦.

(٢) ستمر ترجمته مع المؤرخين الدمشقيين، وانظر الأعلام ٢/ ٣٦٤.

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ٣٠٥.

فارس المعقول والمنقول (٧٧١ هـ/ ١٣٦٩ م)[١].

٢٩ـ ابن السبكي، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، تاج الدين السبكي، قاضي القضاة، أبو نصر، الفقيه الشافعي، الأصولي، المؤرخ، كان معاصراً لابن كثير، وله به صلات متنوعة (٧٧١ هـ/ ١٣٧٠ م)[٢].

٣٠ـ الأسنوي، عبد الرحيم بن الحسن بن علي، القرشي، الأموي، الأسنوي، المصري، جمال الدين، أبو محمد، الفقيه الشافعي، الأصولي، النحوي، النظار، المتكلم (٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م)[٣].

٣١ـ الشيخ خليل بن إسحاق بن موسى الجُنْدي، ضياء الدين، الفقيه المالكي، من أهل مصر، تعلم في القاهرة، وولي الإفتاء على مذهب مالك، وله أشهر مختصر في الفقه المالكي[٤].

٣٢ـ البابرتي، محمد بن محمد بن محمود، أكمل الدين، الفقيه الحنفي، الأصولي، الأديب، النحوي، المتكلم، المفسر، ولد ببارتا

---

(١) الفتح المبين ٢/ ١٨٢.

(٢) الفتح المبين ٢/ ١٨٤ وستمر صلته بابن كثير في الباب الأول، الفصل الرابع.

(٣) الفتح المبين ٢/ ١٨٦.

(٤) الدرر الكامنة ٢/ ١٧٥، حسن المحاضرة ١/ ٤٦٠، الأعلام ٢/ ٣٦٤.

(ناحية من نواحي بغداد) ورحل إلى حلب، وتوفي بالقاهرة (٧٨٦ هـ/ ١٣٨٤ م)[١].

٣٣ـ الشاطبي، إبراهيم بن موسى الغرناطي، أبو إسحاق، الشهير بالشاطبي، الفقيه المالكي، الأصولي، المحقق، النظار، المفسر، المحدث، اللغوي، الورع، الزاهد (٧٩٠ هـ/ ١٣٨٨ م)[٢].

٣٤ـ التفتازاني، مسعود بن عمر بن عبد الله، سعد الدين، العلامة الشافعي، الأصولي، المفسر، المتكلم، المحدث، البلاغي، الأديب، توفي بسمرقند، ودفن بسرخس (٧٩١ هـ/ ١٣٨٩ م)[٣].

٣٥ـ الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله، بدر الدين، التركي، المصري، أبو عبد الله، الفقيه الشافعي، الأصولي، المحدث، (٧٩٤ هـ/ ١٣٩٢)[٤].

٣٦ـ ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، السَّلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، أبو الفرج، الفقيه الحنبلي، الحافظ للحديث (٧٩٥ هـ/ ١٣٩٣ م)[٥].

---

(١) الفتح المبين ٢/ ٢٠١.

(٢) الفتح المبين ٢/ ٢٠٤.

(٣) الفتح المبين ٢/ ٢٠٦.

(٤) الفتح المبين ٢/ ٢٠٩.

(٥) مرجع العلوم الإسلامية ص ٢٧٣، وفي هامشه: الدرر الكامنة ٢/ ٤٢٨، البدر الطالع ١/ ٣٢٨، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٦٧، طبقات الحفاظ =

٣٧ـ ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد، برهان الدين، اليعمري، المدني المولد، الفقيه المالكي، الأصولي، النحوي، الفرائضي، الكاتب، الأديب (٧٩٩ هـ/ ١٣٩٧ م)[١].

هؤلاء العلماء الأعلام نموذج من علماء القرن الثامن الهجري، ومن أراد الاستزادة فيمكنه الرجوع إلى «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» وكتاب «الفتح المبين في طبقات الأصوليين» وإلى كتب الطبقات والتراجم والتواريخ، ليتأكد من النهضة العلمية التي ازدهرت في عصر ابن كثير، والحركة الفكرية التي كانت سائدة، لتلقي ظلالها على أبناء العصر، وتحث طلاب العلم للسير في ركاب هذا الموكب الجليل من العلماء الأعلام.

٤ـ المؤرخون الدمشقيون في عصر ابن كثير:

كانت دمشق مركز التأريخ والتدوين التاريخي في العصور الإسلامية، واشتهر فيها عدد كبير من المؤرخين، وهذا ما أثار اهتمام الدكتور صلاح الدين المنجد، فأفرد بحثاً مطولاً عن «المؤرخون الدمشقيون» خلال ثمانية قرون، من القرن الثالث الهجري إلى القرن العاشر الهجري، وعرض أسماء المؤرخين مع نبذة مختصرة عن سيرة كل منهم، وبيان أهم مؤلفاتهم التاريخية، مع الإشارة إلى المخطوطات

= ص ٥٣٦، شذرات الذهب ٦/ ٣٣٦، الأعلام ٤/ ٦٧.

(١) الفتح المبين ٢/ ٢١١.

الموجودة منها، وصورة عن رسم خطوط بعضهم، وبلغ عدد المؤرخين الدمشقيين خلال خمسة قرون، من القرن الثالث إلى القرن السابع، ثلاثة وعشرين علماً، وبلغ عدد المؤرخين في القرن الثامن فقط ثلاثة عشر علماً، ثم أكمل البحث عن المؤرخين الدمشقيين في القرنين التاسع والعاشر[١].

وإتماماً للفائدة العلمية، نسرد تعريفاً سريعاً للمؤرخين الدمشقيين في القرن الثامن الهجري، الذين عاصروا الشيخ ابن كثير، وبعضهم من شيوخه واستفاد منه، وبعضهم من تلاميذه أو أكمل تاريخه، وهم:

١ـ الأربلي، الحسن بن أحمد بن زفر الأربلي الدمشقي الحكيم المتطبب، أصله من أربل، ثم جاء دمشق، وتوفي سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦ م، ومصادر ترجمته: الدرر، البداية والنهاية، شذرات الذهب، معجم الأطباء، ومن مؤلفاته: تاريخ الإربلي، وفيه جزء يشتمل على محاسن دمشق[٢].

---

(١) مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٢، الجزء ١ شوال ١٣٧٥ مايو ١٩٥٦ ص ٦٣ـ١٤٥ وعنوانه: «المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة من القرن الثالث الهجري إلى نهاية القرن العاشر» للدكتور صلاح الدين المنجد.

(٢) مجلة معهد المخطوطات العربية ٢/ ١/ ٩٨، وانظر مزيداً من ذلك في التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ص٧٤ وما بعدها، معجم =

٢ـ السُّقاعي، أو الصقاعي، فضل الله بن أبي الفخر بن السقاعي، النصراني، الكاتب، توفي سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦ م عما يقرب من مائة سنة، وكان كثير النظر في التواريخ، ومصادر ترجمته: الدرر، شذرات الذهب، ومن مؤلفاته: اختصر تاريخ ابن خلكان، وذيل عليه وسماه: تالي الوفيات، ووفيات المطربين[1].

٣ـ القطب اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد بن عبد الله اليونيني، ولد بدمشق سنة ٦٤١ هـ، وأخذ عن شيوخها، وشيوخ مصر، مات ببعلبك سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦ م، ومصادر ترجمته: الدرر، البداية والنهاية، شذرات الذهب، ومن مؤلفاته: ذيل على مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي[2].

٤ـ البِرْزالي، القاسم بن محمد بن يوسف، علم الدين البرزالي، محدث الشام ومؤرخه، سماه الذهبي في «معجمه»: «مؤرخ العصر، ومحدث الشام» بلغ عدد شيوخه فوق الثلاثة آلاف، وقف كتبه في دار الحديث النورية بدمشق، توفي سنة ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٩ م، ومصادر ترجمته: طبقات السبكي، البداية والنهاية، الورد، شذرات الذهب، الوافي، ومن مؤلفاته: المقتفي في التاريخ جعله ذيلاً على تاريخ أبي

= المؤرخين الدمشقيين ص ١٣٠ وما بعدها، التاريخ العربي والمؤرخون ٤/ ٧ وما بعدها، ٧٥ وما بعدها.

(١) المرجع السابق ٢/ ١/ ٩٩.

(٢) المرجع السابق ٢/ ١/ ١٠٠.

شامة، بدأ فيه من تاريخ مولده سنة ٦٦٥ هـ وهي السنة التي مات فيها أبو شامة، وانتهى به إلى سنة ٧٣٨ هـ فجاء في أربع مجلدات، وكذا المعجم الكبير في بضع وعشرين مجلداً أثبت فيه كل من سمع منه، ومعجم شيوخه وسماعاته[١].

٥- **ابن الجزري**، محمد بن إبراهيم بن عبد العزيز الجزري الدمشقي، كان من كبار العدول بدمشق، وكان يشهد على القضاة مدة، وإذا انفرد بشهادة يكتفون به لوثوقهم به، توفي بدمشق سنة ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨ م، ومصادر ترجمته: الوافي، البداية، الدرر، شذرات الذهب، ومن مؤلفاته: التاريخ الكبير، وهو تاريخ حافل كتب فيه أشياء حسنة لا توجد في غيره، واستفاد منه المِزّي والذهبي والبرزالي، وكتبوا عنه، واعتمدوا على نقله، وقد رتبه على السنين على نسق تاريخ الإسلام للذهبي[٢].

٦- **الذهبي**، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، الدمشقي، عرف بابن الذهبي، لأن أباه عثمان كان ذهبياً، برع في صناعة الذهب المدقوق، وكان الذهبي مؤرخ الإسلام، وشيخ المحدثين، برع في الجرح والتعديل، ونقد الرجال، توفي بدمشق سنة

---

(١) المرجع السابق ٢/ ١/ ١٠١، واستفاد ابن كثير من كتابه «المقتفي» واعتمد عليه في كتابه «البداية والنهاية» وانظر تعليق ابن كثير عليه في كتابه «البداية والنهاية ١٤/ ١٨٣».

(٢) المرجع السابق ٢/ ١/ ١٠٣.

٧٤٨ هـ/ ١٣٤٨ م، ومصادر ترجمته مسطورة في مقدمة «سير النبلاء»، وكذا سردت مؤلفاته في المقدمة[١].

٧ـ ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر الكتبي الداراني، الدمشقي، المؤرخ، طلب الحديث، وكان فقيراً، ثم تعاطى التجارة في الكتب فرزق منها مالاً طائلاً، وتفرد في صناعته، مات سنة ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣م، ومصادر ترجمته: البداية والنهاية، الدرر الكامنة، شذرات الذهب، ومن مؤلفاته: عيون التواريخ، وهو أحسن التواريخ رتبه على السنين، ووفق في انتقاء الأخبار والتراجم، وبدأ بسيرة الرسول ﷺ، وقسمه إلى حوادث ووفيات وانتهى إلى سنة ٧٦٠ هـ، وفوات الوفيات، وهو ذيل على ابن خلكان، ولم يُجد فيه كإجادة ابن خلكان في «الوفيات»[٢].

٨ـ الصفدي، خليل بن أيبك، صلاح الدين الصفدي، باشر كتابة الإنشاء بمصر ودمشق وكتابة السر بحلب، ووكالة بيت المال بدمشق، وتوقيع الدست فيها، وتوفي بدمشق سنة ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م. ومصادر ترجمته: البداية، الدرر، طبقات السبكي، ومن مؤلفاته: الوافي بالوفيات ويحتوي على أربعة عشر ألف ترجمة، وأعيان العصر، وتحفة ذوي الألباب في من حكم بدمشق،

---

(١) المرجع السابق ٢/ ١/ ١٠٥، وسترد ترجمته أيضاً مع شيوخ ابن كثير.
(٢) المرجع السابق ٢/ ١/ ١٠٦.

وذكر من ولي إمرة دمشق في الإسلام، أو دخلها من الخلفاء، مرتبين على حروف المعجم[1].

٩ـ الحسيني، محمد بن علي بن الحسن بن حمزة، شمس الدين الحسيني، المؤرخ، المحدث، أصله من واسط، ثم نزل دمشق وسكن فيها، ودرَّس في مدارسها، توفي سنة ٧٦٥ هـ/ ١٣٦٤ م، ومصادر ترجمته: البداية والنهاية، شذرات الذهب، ومن مؤلفاته: ذيل العبر للذهبي من سنة ٧٤١ـ٧٦٢ هـ، وذيل تذكرة الحفاظ للذهبي[2].

١٠ـ ابن السبكي، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، قدم دمشق سنة ٧٣٩ هـ، وأخذ عن شيوخها، وانتهت إليه رئاسة القضاء بدمشق، وولي خطابة جامع دمشق، ودرَّس في غالب مدارس دمشق، توفي سنة ٧٧١ هـ/ ١٣٧٠ م، ومصادر ترجمته: الدرر، شذرات الذهب، ومؤلفاته كثيرة منها: طبقات الشافعية الكبرى، والوسطى، والصغرى[3].

١١ـ ابن كثير، وهو صاحبنا الذي خصصنا له هذا الكتاب من سلسلة أعلام المسلمين.

١٢ـ ابن رافع، محمد بن رافع، تقي الدين السلامي الدمشقي،

---

(١) المرجع السابق ٢/ ١/ ١٠٨ـ١٠٩.

(٢) المرجع السابق ٢/ ١/ ١١٢، وكان تلميذاً لابن كثير، وستتكرر ترجمته مع تلاميذ ابن كثير.

(٣) المرجع السابق ٢/ ١/ ١١٣، وسبق في علماء الأعلام للقرن الثامن.

ولد بمصر سنة ٧٠٤ هـ ورحل به أبوه إلى الشام سنة ٧١٤ هـ، وتردد بين الشام ومصر، وسمع بدمشق من المِزّي والبرزالي والذهبي، ودرس بدار الحديث النورية والفاضلية، وكان متقناً محرراً لما يكتبه، وهو معاصر ابن كثير، وشيخ ابن حِجي، توفي سنة ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م، ومصادر ترجمته: الدرر، شذرات الذهب، كشف الظنون، ومن مؤلفاته: معجم لنفسه في أربع مجلدات، وهو في غاية الإتقان والضبط، ويشتمل على أكثر من ألف شيخ، وذيل على تاريخ بغداد لابن النجار في أربع مجلدات، وذيل على البرزالي من سنة ٧٣٧هـ إلى سنة ٧٧٤ هـ[1].

١٣ـ ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي الحنبلي، أتقن فن الحديث، وصار من أعرف أهل عصره بالعلل، مات بدمشق سنة ٧٩٥ هـ/ ١٣٩٣ م، ومصادر ترجمته: شذرات الذهب، ومن مؤلفاته: ذيل طبقات الحنابلة ذيل به على طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (٥٢٦ هـ) وله، فضائل الشام[2].

١٤ـ ابن حِجّي، أحمد بن حِجي الحسباني الدمشقي، الحافظ، مؤرخ الإسلام، ولد بظاهر دمشق، وتفقه وتقدم في الفقه والحديث، ولي قضاء الشام، وانتهت إليه رياسة العلم بدمشق، وتوفي سنة ٨١٦ هـ/ ١٤١٣ م، ومصادر ترجمته: شذرات الذهب، الضوء

---

(١) المرجع السابق ٢/ ١/ ١١٧، التعريف بالمؤرخين ص ٢٠٠.

(٢) المرجع السابق ٢/ ١/ ١١٨ وسبق في العلماء الأعلام للقرن الثامن.

اللامع، ومن مؤلفاته: الدارس من أخبار المدارس، والذيل على تاريخ ابن كثير[1].

٥ـ اهتمام الحكام بالنشاط العلمي:

كان السلاطين والحكام والأمراء مهتمين بشكل ملحوظ بالنشاط العلمي، ويرعون الحركة العلمية.

ومن تتبع أخبار المماليك وتاريخهم في كتاب «البداية والنهاية» يجد أنه من النادر أن يأتي سلطان بمصر، أو نائب سلطنة بدمشق إلا وقد أمر ببناء مدرسة أو مسجد، ولحقهم الأمراء والحكام، ولم يقتصر الأمر على بناء المدارس بدمشق، بل شمل القدس ومدينة حلب، وبعض المدن الكبرى الأخرى في بلاد الشام[2].

وكان السلاطين والحكام يتنافسون في بناء المدارس، ورصد الأموال لها، وتخصيص الأوقاف عليها، ويشيدون المساجد للعبادة والتدريس، ويقيمون المؤسسات الخيرية التابعة لها، ويخصصون الأبنية والبيوت للعلماء وطلاب العلم.

وكان العلماء بشكل عام يتنسمون ذرا المجد والاحترام والتقدير من الشعب أولاً، ومن الحكام ثانياً، ويتمتع العلماء بتكريم الحكام،

---

(١) المرجع السابق ٢/ ١/ ١١٦ـ١١٧، وهو من أعيان القرن التاسع، وإنما ذكرناه لأنه ذيل على تاريخ ابن كثير.

(٢) انظر: الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، لبيان المدارس التي بنيت بدمشق.

والرجوع إليهم، والاعتماد عليهم، والوقوف عند آرائهم، وطلب الاستفتاء منهم في مختلف الأمور، والتقيد بها غالباً.

وكان الحكام يتقربون إلى الناس برفع منزلة العلماء، وتقديم الجوائز لهم، وحصر الوظائف الدينية بهم، وخاصة ذوي الشهرة العلمية، والسمعة الطيبة، ويستنجد الحكام بالعلماء في أوقات الشدة والأزمات الداخلية، وفي حالات الاعتداء والتهديدات الخارجية[١].

٦ـ البدع والحركات الإصلاحية:

كان العصر في القرن الثامن الهجري يعج بالبدع والخرافات والعادات الباطلة التي تأصلت في نفوس الناس حتى أصبحت أمراً مسلماً وكأنها جزء من العقيدة والإسلام.

وكان يشيع في هذا العصر التصوف، حتى كادت الطرق الصوفية أن تغطي الساحة كاملة، ومعظم الناس والعلماء ينتسبون إلى إحدى الطرق، وكانت هذه الطرق في ذلك العصر لاتزال تتبنى الغلو والتطرف وكثيراً من المبادىء الدخيلة، والتي تتنافى مع مبادىء الإسلام وتعاليمه، وتتردد على الألسنة وفي المجالس والحلقات الشطحات الصوفية، والخرافات، وتركز على المنامات، وإلغاء دور العقل، والاتباع المطلق للطريقة، والتقليد الأعمى للشيخ، حتى أصبح المريد كالورقة يحركها الشيخ كيفما يشاء.

---

(١) الفصول ص ٦٨.

كما ساد في هذا العصر الجمود الفقهي، والتقليد الحرفي والكامل للمذاهب، التي أصبحت شبه مقدسة، ولا يسمح بالخروج عليها أو مخالفتها.

ولكن ظهر بجانب هذه السمات الثلاث السابقة بعض العلماء المتفتحين، والدعاة المخلصين، والأئمة المصلحين، والفقهاء المجددين الذين قادوا الحركات الإصلاحية دينياً واجتماعياً، علمياً وفكرياً، ويدعون للعودة إلى الإسلام الصافي، والالتزام بالقرآن والسنة، والتخلي عن البدع والخرافات، ومحاربة غلاة التصوف.

وتزعم الفريق الثاني شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى الذي كانت له اجتهادات خاصة تخالف أحياناً المذاهب الأربعة من جهة، وجاهد في محاربة البدع ومبادىء التصوف الدخيلة من جهة أخرى، وجاهر بالحق والدعوة إليه، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود بنفسه من جهة ثالثة[١]، مما أثار عليه العداوة، وأيده بعض كبار العلماء والفقهاء كالمزي والبِرْزالي والذهبي وابن القيم وابن كثير، مما أورث الخلاف والانشقاق والانقسام بين العلماء[٢].

وجرت بين الفريقين الاتهامات، وكثرت الوشايات، ورفع الأمر أحياناً إلى القضاة والحكام والولاة، الذين وقفوا مع المجددين المصلحين أحياناً، وانحازوا إلى جماهير الفقهاء والمتصوفة والعوام في

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١٤/ ١١، ١٩، ٣٣، ٣٤، ٣٧.

(٢) ابن كثير، حياته ومؤلفاته ص/ ي.

أغلب الأحيان، ولذلك زُجَّ شيخ الإسلام ابن تيمية بالسجن عدة مرات، واستدعي إلى مصر لمواجهة الاتهامات أيضاً، وسجن هناك أيضاً، وتحرك المخلصون من وراء الصفوف للدفاع عنه، وبيان الحق معه، وإطلاق سراحه، وعاد إلى دمشق ليواجه التيار المتسلط، والاتهامات المتكررة، حتى صدر المرسوم بمنعه من الإفتاء، ثم بإيداعه سجن القلعة الذي بقي فيه مسجوناً حتى الموت.

ولحق الأذى والنكاية أتباع ابن تيمية ومحبيه، ومنهم ابن كثير، لتأييدهم مواقفه، والفتوى ببعض آرائه، كما سنرى في صفات ابن كثير ومواقفه، وتحمس أحباب ابن تيمية ومناصروه فأطلقوا عليه بجدارة وحق لقب «شيخ الإسلام» فانبرى خصومه للطعن فيه حتى أطلق العلاء البخاري الحنفي صيحته بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر، وقام الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي (٨٤٢ هـ) بتصنيف كتابه «الرد الوافر على من طعن في تسمية ابن تيمية بشيخ الإسلام» وهو مطبوع.

ومات شيخ الإسلام ابن تيمية فتابع أعوانه وأنصاره ومحبوه من الفقهاء والعلماء والدعاة المصلحين طريقه ومنهجه، ولحق بعضهم الأذى، فصبروا على ذلك، حتى حقق الله على أيديهم إبطال كثير من المنكرات والبدع والضلالات والتطرف، كما سنرى تفصيل ذلك في البابين التاليين.

البَابُ الأوّل

السيرة الشخصية لابن كثير

نقدم في هذا الباب سيرة ابن كثير الشخصية، حتى يتكون عند القارىء صورة مصغرة عن حياة هذا العالم العلامة، ابتداءً من اسمه ونسبه، وولادته ونشأته، ورحلته في طلب العلم، وأعماله ومناصبه، ومكانته العلمية وإنتاجه، وانتهاء بوفاته، مع بيان المراحل التي مرَّ بها، والأطوار التي عاشها، والمواقف التي شهدها، وبيان العلماء والمشايخ الذين أخذ عنهم، وتربى على أيديهم، وتأثر بهم، أو سمع الحديث منهم، وعرض سريع لخلاّنه وزملائه ومعاصريه الذين التقى بهم، واحتك معهم، وتبادل معهم المعرفة، ثم إشارة عابرة لأشهر تلاميذ ابن كثير الذين نهلوا من علمه، وتفقوا به، وسمعوا منه، وتأثروا بعلمه وسيرته، ثم نسرد إطلالة لإنتاجه العلمي، وتعداداً لكتبه التي صنفها وشاعت في عصره، وتركها ثروة خالدة، وذكرى عطرة إلى الأجيال اللاحقة، وينتهي بنا الباب بانتهاء حياة ابن كثير لنحدِّد تاريخها، ونقتطف وردة من رثاء الناس له، وباقة من ثناء العلماء عليه.

وقسمت هذا الباب إلى ستة فصول :

الفصل الأول : البطاقة الشخصية لابن كثير .

الفصل الثاني : نشأته ورحلته العلمية .

الفصل الثالث : أعماله ومناصبه ونشاطه العلمي .

الفصل الرابع : صفات ابن كثير .

الفصل الخامس : إنتاجه وتلامذته .

الفصل السادس : وفاته ورثاؤه والثناء عليه .

الفصل الأول

البطاقة الشخصية لابن كثير

نعرض في هذا الفصل أهم الجوانب الشخصية اللصيقة بابن كثير رحمه الله تعالى، لمعرفة هويته الشخصية، فنبين اسمه ونسبه، وكنيته ولقبه، وولادته.

الاسم والنسب:

ابن كثير هو: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء[1] بن ....

---

(١) لم تذكر أكثر المصادر: ابن ضوء بن كثير بن ضوء، وذكرته مصادر أخرى (الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٥٠٨، هدية العارفين ٥/ ٢١٥، معجم محدثي الذهبي ص ٥٦، مرجع العلوم الإسلامية ص ١٨٦، ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٦١، معجم المؤلفين ٢/ ٢٨٢، طبقات المفسرين ١/ ١١٠، الرد الوافر ص ٩٢، المنهل الصافي ٢/ ٤١٤، ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص ٥٧، طبقات الشافعية لابن قاضي شُهبة ٢/ ٢٣٧، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١) وحذف الزركلي اسم كثير الثانية (الأعلام ١/ ٣١٨) وانظر: عصر سلاطين المماليك ٤/ ١٤٤.

زرع[1] القَيْسي[2]، القرشي، البَصْروي، ثم الدمشقي، الشافعي[3].

واتفق المؤرخون على ذكر اسمه واسم أبيه وجده الأول، واكتفى بهذا الاختصار بعض المصادر، ووردت التكملة مع اختلاف في الروايات في الجدود الأعلى، أو الاقتصار على بعضهم في مصادر أخرى.

---

(١) جاء في بعض المصادر «دَرْع» (طبقات المفسرين ١/ ١١٠، إنباء الغمر ١/ ٣٩، الأعلام ١/ ٣١٨، الرد الوافر ص ٩٢) وهذا ما أثبته ابن كثير رحمه الله تعالى في ترجمة والده (البداية والنهاية ١٤/ ٣١)، وجاء في مصادر أخرى: «زرع» (المنهل الصافي ٢/ ٤١٤، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، معجم المؤلفين ٢/ ٢٨٣) وجاءت أيضاً بلفظ «ذرع» (ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص ٥٧، الرد الوافر ص ٩٢، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧) وذكر ناشر كتاب الرد الوافر في الهامش: «وهي المعروفة الآن بإزرع من قرى حوران» (الرد الوافر ص ٩٢) وهذا التعليق لا محل له، لأن من ذكر «زرع» أو «ذرع» أثبته على أنه اسم الجد الأعلى لابن كثير رحمه الله تعالى، وانظر: الفصول، المقدمة ص ٣١.

(٢) هذا ما أثبته ابن حجر في (الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩) والسيوطي في (ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٦١) ولم يذكره غيرهما، وفي بعض نسخ الدرر الكامنة: العَبْسي، وانظر: ابن كثير، حياته ومؤلفاته ص ١٥.

(٣) انظر ترجمة ابن كثير في: المنهل الصافي ٢/ ٤١٤، الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩، البدر الطالع ١/ ١٥٣، طبقات المفسرين ١/ ١١٠، مفتاح السعادة ١/ ٢٥١، الرد الوافر ص ٩٢، معجم المؤلفين ٢/ ٢٨٣، إنباء الغمر ١/ ٣٩، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٧، ٣٦١، الرسالة المستطرفة ص ١٧٥، النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣، الدارس ١/ ٣٦، جلاء العينين ص ٣٤.

ورأيت تثبيت الاسم مع الأب والأجداد لثبوت ذلك في المصادر المعتمدة، والقريبة العهد من حياة ابن كثير رحمه الله تعالى، ولأن ابن كثير نفسه أثبته في ترجمة والده[1].

والقَيْسي: بالفتحِ والسكون نسبة إلى قيس بن عَيْلان، ويقال: قَيْس عيلان بن مُضر، وقيس بطن من بكر بن وائل، من العرب، ومنهم خلق كثير من الصحابة والتابعين فمن بَعْدهم[2].

والقُرَشي نسبة إلى قريش من ولد النضر وهو فهر، وينتهي إلى مضر، ويقال: إن قيس بن مضر هو أخو إلياس بن مضر[3].

ويؤخذ من ذلك أن ابن كثير عربي أصيل، فهو من بني حَصْلة الذين ينتسبون إلى الشرف الرفيع لقريش، وبأيديهم نسب ثابت، وهذا ما أثبته ابن كثير رحمه الله تعالى في ترجمة والده، وأن الشيخ أبا

---

(1) البداية والنهاية ١٤/ ٣١، الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، ذيل تذكرة الحفاظ للسيوطي ص ٣٦١، الرد الوافر ص ٩٢، إنباه الغمر ١/ ٣٩، طبقات المفسرين ١/ ١١٠، المنهل الصافي ٢/ ٤١٤، معجم المؤلفين ٢/ ٢٨٣.

(2) عجالة المبتدي ص ١٠٥، لب الألباب ص ٢١٥، وحسب النسخة الخطية الأخرى «للدرر» نسبته العَبْسِ: بالفتح والسكون، نسبة إلى عبس بطن من غَطَفان بن سعد بن قيس عَيْلان، بطن من مضر (عجالة المبتدي ص ٨٩، لب الألباب ص ١٧٥).

(3) عجالة المبتدي ص ١٠٣، ١٠٥، لب الألباب ص ٢٠٥.

الحجاج المزي حققه، فأعجبه ذلك، وابتهج به، وصار يكتب في نسب ابن كثير: القُرَشي[1].

والبُصْروي[2] نسبة إلى بُصْرى الشام، المشهورة عند العرب، بالضم والقصر، وهي من أعمال حوران، وتقع في الجنوب الشرقي من سورية الآن، وتتبع مدينة درعا، ومحافظة درعا في منطقة حوران، وكل ذلك في بلاد الشام[3].

ونسب ابن كثير إلى بصرى لأن القرية التي ولد فيها تابعة إلى بُصْرى، ولأنه انتقل إلى بُصرى في الطفولة، ونشأ فيها فترة، كما سنرى في رحلته العلمية ونشأته، كما ينسب إليها لأن أصله من «بصرى» فقد نشأ بها والده، وتعلم بها، ودرَّس فترة، ثم انتقل عنها، كما أثبته ابن كثير بنفسه[4].

والدمشقي نسبة إلى مدينة دمشق المحروسة التي نشأ فيها، وتعلم

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٣١، وانظر: الفصول، المقدمة ص ٣١.

(٢) جاء في نسبه في بعض المصادر: البصري (مفتاح السعادة ١/ ٢٥١، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، الرد الوافر ص ٩٢) والنسبة بصروي هي الأصح.

(٣) مراصد الإطلاع ١/ ٢٠١.

(٤) البداية والنهاية ١٤/ ٣١. وذكر الدكتور صلاح الدين المنجد أن ابن كثير «ولد ببصرى» انظر: مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثاني، الجزء الأول ص ١١٥، مقال: «المؤرخون الدمشقيون».

بها، وأخذ ودرس، وعاش معظم حياته، ودرَّس بها وأعطى، ثم مات بها، ودفن فيها.

ونسبته إلى الشافعي، لأنه تفقه على مذهب الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤ هـ) رحمه الله تعالى، وحفظ ابن كثير كتاب «التنبيه» للشيرازي (٤٧٦ هـ) وهو أشهر مختصر عند الشافعية قديماً، كما صنف ابن كثير بعض الكتب ملتزماً بأصول هذا المذهب وفروعه، وتأثر بالأصحاب فيه والعلماء والمصنفين، فصنف «الأحكام» الموجودة في «التنبيه» وكتب «أحكام الفقه» على المذهب الشافعي حتى وصل إلى كتاب «الحج» كما سنرى ذلك في الباب الثاني، وفصل ابن كثير الفقيه.

لقب ابن كثير وكنيته:

اللقب في الأصل: النبذ بالتسمية، وهو منهي عنه وحرام، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾ [الحجرات: ٤٩/١١] ولكن قد يجعل اللقب علماً من غير نبذٍ ولا انتقاص ولا تعيير، فلا يكون حراماً، كالأعرج والأخفش والأعمش، ويقصد منه محض التعريف، مع رضا المسمى به، وقد يكون بقصد التعظيم والشهرة، كركن الدين، وشمس الأئمة، وشيخ الإسلام، وإمام الحرمين، وهو ما تعارفه الناس في العصر العباسي وما بعده.

وقد أطلق المؤرخون على ابن كثير لقب عماد الدين، وعرف

بذلك في جميع كتبه، والمصادر التي ترجمت له[1].

والكنية: اسم يطلق على الشخص للتعظيم، كأبي الفضل، أو بالنسبة للأولاد كأبي الحسن، وغالباً ما يكون للولد الأكبر كأبي عبد الله، وقد تطلق الكنية للعلمية الصرفة كأبي بكر، وقد تطلق لما يلابس الشخص من أمور وحالات، كأبي هريرة، لأنه حمل هرة، وأبي تراب، لأنه نام على باب المسجد فتغبرَّ بالتراب.

ويكنى ابن كثير بأبي الفداء[2].

ولادة ابن كثير:

اتفق المؤرخون على أن ابن كثير ولد في مطلع القرن الثامن الهجري، ولم ينقلوا شيئاً عن تحديد اليوم والشهر الذي ولد فيه.

وذهب جمهور المؤرخين إلى أن ولادته كانت سنة ٧٠١ هـ/ ١٣٠١ م[3]، وقرر بعضهم أن ولادته كانت سنة

---

(١) الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣، البدر الطالع ١/ ١٥٣هـ، مفتاح السعادة ١/ ٢٥١، ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص ٥٧، ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٦١، الرد الوافر ص ٩٢، المنهل الصافي ٢/ ٤١٤، طبقات المفسرين ١/ ١١٠، إنباه الغمر ١/ ٣٩، معجم المؤلفين ٢/ ٢٨٣، الأعلام ١/ ٣١٨، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٥٠٨.

(٢) المراجع السابقة.

(٣) البدر الطالع ١/ ١٥٣، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٧، النجوم الزاهرة =

٧٠٠ هـ[(١)]، وتشكك فريق آخر في السنتين، ولم يجزم في تحديد سنة ولادته منهما. فابن حجر رحمه الله تعالى، وهو من أقرب الناس يجزم في كتابه «إنباه الغمر» إلى أنه ولد سنة سبعمائة، لكن عاد وتشكك في كتابه الآخر «الدرر الكامنة» فقال: «ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير»[(٢)]، وقد سبقه إلى هذا التردد مؤرخ الإسلام الذهبي، وهو معاصر لابن كثير، وذكر أنه سمع معه الحديث، ومع ذلك قال في ولادته: «ولد بعد السبع مائة، أو فيها»[(٣)]، وقال الذهبي في كتاب آخر: «مولده سنة نيف وسبعمائة»[(٤)].

والسبب في هذا الاضطراب عدم وجود سجلات للولادة في ذلك العصر، وإن تحديد ولادة العلماء المشهورين يلجأ إليها فيما بعد بالقرائن، وكان الاضطراب في ولادة ابن كثير مستنبطاً من كلامه

= ١١/ ١٢٣، طبقات المفسرين ١/ ١١٠، المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، الرد الوافر ص ٩٢، الأعلام ١/ ٣١٧، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧، الدارس ١/ ٣٦.

(١) إنباه الغمر ١/ ٣٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١، معجم المؤلفين ٢/ ٢٨٣، جلاء العينين ص ٣٤.

(٢) إنباه الغمر ١/ ٣٩، الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩، وانظر: معجم المؤلفين ١/ ٢٨٣.

(٣) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٥٠٨، وجاء في (هدية العارفين ٥/ ٢١٥) (ولد سنة ٧٠٥ هـ) وهو تصحيف، ولم يقل به أحد.

(٤) معجم محدثي الذهبي ص ٥٦.

هو، عندما يقول في ترجمة أبيه المتوفى سنة ٧٠٣ هـ: «وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها، لا أدركه إلا كالحلم»[(١)].

وهذا يرجح أن تكون ولادته ٧٠١ هـ، وهو ما عليه أكثر المترجمين له، إلا أن يكون قد ولد في أواخر السبعمائة، وتوفي أبوه في أوائل ٧٠٣ هـ[(٢)].

ويرجح الشيخ أحمد محمد شاكر أن تكون ولادة ابن كثير سنة ٧٠٠ هـ أو قبلها بقليل، مستدلاً على ذلك من عبارة ابن كثير السابقة: «لا أدركه إلا كالحلم» فقال: «الذي هو في سن أقل من الثلاث، ما أظنه يذكر شيئاً كالحلم، ولا أبعد من الحلم، ولا أقرب، فهو حين موت أبيه قد جاوز الثالثة في أكبر ظني»[(٣)].

وهذا كلام مقبول، وإن تحليل كلام ابن كثير نفسه، يرجح أن تكون ولادته سنة سبعمائة، وإن كان ذلك يخالف رأي أكثر المترجمين له الذين صرحوا بولادته سنة ٧٠١ هـ.

وعلى كل حال فلا يترتب على هذا الاختلاف شأن خاص، أو أمر مهم، وهو اختلاف بسيط، ومتقارب، فلا نقف عنده.

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٣٢.

(٢) الفصول، المقدمة ص ٣٢، ويصرح ابن كثير في حوادث سنة ٧٠١ هـ فيقول: «وفيها ولد كاتبه إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي» (البداية والنهاية ١٤/ ٢١).

(٣) عمدة التفسير ١/ ٢٣.

موطن ابن كثير:

أما مكان ولادة ابن كثير رحمه الله تعالى فهو في قرية تابعة لمدينة بُصرى الشام، وهي القرية التي انتقل إليها أبوه من بصرى، وتولى الخطابة فيها، فقال ابن كثير عن أبيه: «ثم انتقل إلى خطابة القُرَيَّة شرقي بُصرى»[1]، وتابعه على ذلك بعض المؤرخين، وذكروا مكان ولادته بشكل عام، فقال الداودي: «مولده بقُرية شرقي بُصرى من أعمال الشام»[2]، وقال مثل ذلك ابن تغري بردى، فقال: «مولده بقُرِية شرقي بُصرى من أعمال الشام»[3]، وسار على ذلك آخرون[4]، وهو ما صرح به ابن كثير نفسه في ترجمة والده، فقال: «ثم انتقل إلى خطابة القُرَيَّة شرقي بُصرى»[5].

وحدد الحسيني اسم القرية بأنها «مجْدَل القرية من أعمال بُصْرى»[6] وحددها ابن ناصر الدمشقي باسم: «مجيدل القرية، من

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٣١.

(٢) طبقات المفسرين ١/ ١١٠.

(٣) النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣، المنهل الصافي ٢/ ٤١٤.

(٤) انظر: الأعلام ١/ ٣١٨، البدر الطالع ١/ ١٥٣.

(٥) البداية والنهاية ١٤/ ٣١.

(٦) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٧، قال البغدادي: «مِجْدَل: بكسر أوله، وسكون الجيم، وفتح الدال واللام، بلد طيب بالخابور... وقيل: مَجدل، بفتح الميم، موضع في بلاد العرب» (مراصد الاطلاع ٣/ ١٢٣٠) ولم يحدد بلداً بهذا الاسم من أعمال بصرى.

عمل بصرى، إذ كان أبوه خطيباً بها»[1]، وقال محمد رضا كحالة: «ولد بجندل من أعمال بصرى»[2].

ويظهر أن التحديد الأخير من كحالة فيه تصحيف، ولم أجد له أصلاً، ولا يوجد قرية في بصرى باسم «جندل»، وإنما يوجد قرية بهذا الاسم من أعمال حمص، وليست مقصودة قطعاً[3].

والخلاف بين الحسيني وابن ناصر الدمشقي خفيف وبسيط، وهو «مِجْدَل» و «مجيدل»، والصحيح الذي نقطع به أن ابن كثير ولد في «مجيدل القرية» وهذا ما صرح به ابن كثير نفسه، وهي القرية الثانية التي انتقل إليها الوالد، وأقام بها، وتزوج منها زوجته الثانية، وهي والدة ابن كثير، وأن أصحاب القول الأول القائلين بأن ابن كثير ولد بالقُرَيَّة، فهو إما خطأ، وسببه أن الوالد انتقل أولاً من بصرى إلى خطابة «القرية» شرقي بصرى، وأقام بها نحواً من ثنتي عشرة سنة، ثم تحول إلى خطابة «مجيدل القرية» فالتبس عليهم الأمر، في القريَّة، وإما أنهم اختصروا الاسم الثاني «مجيدل القرية» إلى القرية.

وفي كلام ابن كثير عن ترجمة والده ما يرفع كل التباس، ويجزم بأنه ولد في «مجيدل القرية» فيقول بالحرف عن والده: «واشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة ببصرى...، ثم انتقل إلى خطابة «القُرَيَّة»

---

(1) الرد الوافر ص ٩٢.

(2) معجم المؤلفين ٢/ ٢٨٣.

(3) لا يوجد بلد قديم باسم جندل (مراصد الاطلاع ١/ ٣٥١).

شرقي «بُصرى». . . ، فأقام بها نحواً من ثنتي عشرة سنة، ثم تحوَّل إلى خطابة «مجيدل القرية» التي منها الوالدة، فأقام بها مدة طويلة في خير وكفاية. . . ، وقد ولد له عدة أولاد من الوالدة، ومن أخرى قبلها، . . . ثم توفي والدي في شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعمائة، في قرية «مجيدل القرية» ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون، وكنت إذ ذاك صغيراً، ابن ثلاث سنين أو نحوها، لا أدركه إلا كالحلم، ثم تحولنا ـ من بعده ـ في سنة سبع وسبعمائة إلى دمشق صحبة كمال الدين عبد الوهاب، وكان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً»[1].

ويوجد على خريطة سورية اليوم قرية باسم «القُرَيَّة» شرقي مدينة بصرى، وليست هي المقصودة في كلام ابن كثير الأول، والتي انتقل إليها والده أولاً، ولكن «مجيدل القرية» قريبة من الأولى، وهو سبب الالتباس والخلط في كتب التراجم والمؤرخين[2].

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٣١ـ٣٢، وسوف ننقل كلام ابن كثير كاملاً في ترجمة والده وأسرته.

(٢) القُرَيَّة: تصغير القَرْية، وهي اسم لمواضع متعددة في بغداد، وجبلي طيء، ونواحي المدينة، واليمامة، (مراصد الاطلاع ٣/ ١٠٨٨).
وقال الدكتور صلاح الدين المنجد عن ابن كثير: «ولد ببصرى»، ولعله يريد المنطقة التابعة لبصرى، أو من أعمال بصرى، وإلا فلا يصح الكلام، ولم يذكر أحد المؤرخين أو علماء التراجم ولادة ابن كثير ببصرى. (مجلة المخطوطات العربية ٢/ ١/ ١١٥).
ومجيدل هي قرية صغيرة حتى الآن، وتقع في منتصف الطريق بين دمشق ودرعا، وتبعد مئات الأمتار عن الطريق الدولي، وتتبع الآن منطقة الصنمين، وكانت سابقاً تابعة إلى بصرى.

أسرة ابن كثير:

تدل كتب التراجم والتاريخ أن ابن كثير رحمه الله تعالى نشأ في أسرةٍ علمية متدينة، فكان أبوه «عمر بن كثير بن ضوء بن كثير البُصروي» فقيهاً، أديباً، شاعراً، خطيباً في القُرَيَّة، ثم صار خطيباً في البلد ـ التي ولد فيها الابن ـ «مجيدل» وكان الأب مشهوراً، ولقبه شهاب الدين، وكنيته أبو حفص» وكان فاضلاً لغوياً شاعراً[1]، ووصف ابن ناصر الوالد، فقال: «الشيخ العالم الخطيب أبي حفص» ثم قال عن ولادة الابن في «مجيدل»: «إذ كان أبوه خطيباً بها»[2].

ويظهر من كتب التراجم أيضاً أن الوالد كان حريصاً على تربية أولاده تربية دينية صحيحة، وأن يتوجهوا لدراسة العلوم الشرعية، ولذلك كان الأخ الأكبر لابن كثير، وهو عبد الوهاب فقيهاً، وتولى رعاية أخيه «إسماعيل» فرباه بعد وفاة أبيه، وهو ابن ثلاث سنين، ورحل الأخ الكبير عبد الوهاب مع صاحبنا ابن كثير إلى بصرى ودمشق، وتفقه ابن كثير على أخيه عبد الوهاب في مبدأ أمره[3].

وخير من يحدثنا عن أسرة ابن كثير، هو ابن كثير نفسه، عندما

---

(١) الدرر الكامنة ٣/ ٢٦١، إنباه الغمر ١/ ٣٩، المنهل الصافي ٢/ ٤١٤، مفتاح السعادة ١/ ٢٥١، عمدة التفسير ١/ ٢٣.

(٢) الرد الوافر ص ٩٢.

(٣) قال ابن تغري بردى عن ابن كثير: «فرباه أخوه الشيخ عبد الوهاب، وبه تفقه في مبدأ أمره» (المنهل الصافي ٢/ ٤١٤).

ترجم لوالده، فقال: «وفيها ـ أي في سنة ٧٠٣ هـ ـ توفي الوالد، وهو الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي من بني حصلة، وهم ينتسبون إلى الشرف، وبأيديهم نسب، وقف على بعضها شيخنا المِزّي، فأعجبه ذلك، وابتهج به، فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك: القرشي، من قرية يقال لها: الشركوين غربي بُصرى، بينها وبين أذرعات، وولد بها في حدود سنة أربعين وستمائة، واشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة ببصرى، فقرأ «البداية» في مذهب أبي حنيفة، وحفظ «جُمَل الزجّاجي» وعُنِيَ بالنحو والعربية واللغة، وحفظ أشعار العرب، حتى كان يقول الشعر الجيد، الفائق، الرائق في المدح والمراثي، وقليل من الهجاء، وقرر بمدارس بصرى بمنزل الناقة (أي مبرك ناقة صالح كما يقال) شمالي البلد، حيث يزار، وهو المَبْرَك المشهور عند الناس، الله أعلم بصحة ذلك، ثم انتقل إلى خطابة «القُرَيَّة» شرقي «بُصرى» وتمذهب للشافعي، وأخذ عن النواوي والشيخ تقي الدين الفَزَاري[1]، وكان يُكرمه ويحترمه فيما أخبرني شيخنا العلامة ابن الزَمَلْكاني، فأقام بها نحواً من ثنتي عشرة سنة، ثم تحوَّل إلى خطابة «مجيدل القرية» التي

---

(١) لعل تقي الدين الفزاري، تصحيف في المطبوع من «البداية والنهاية» والمقصود تاج الدين الفزاري (٦٩٠ هـ) الذي اعتبره ابن كثير شيخاً لأكبر مشائخه (البداية والنهاية) ١٣/ ٣٢٥، وهو الذي كتب بحضوره البرزالي شعره (ابن كثير، حياته ص ٢٢ هامش)، مرجع العلوم الإسلامية ص٤٣٤، ٤٣٥.

منها الوالدة، فأقام بها مدة طويلة في خير وكفاية وتلاوة كثيرة، وكان يخطب جيداً، وله مقول عند الناس، ولكلامه وقع لديانته وفصاحته وحلاوته، وكان يؤثر الإقامة في البلاد (القرى)، لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعياله، وقد ولد له عدة أولاد من الوالدة، ومن أخرى قبلها، أكبرهم إسماعيل، ثم يونس وإدريس، ثم من الوالدة عبد الوهاب، وعبد العزيز، ومحمد، وأخوات عدة، ثم أنا أصغرهم، وسُمِّيتُ باسم الأخ إسماعيل، لأنه قد قدم دمشق فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده، وقرأ مقدمة في النحو، وحفظ «التنبيه» وشرحه على العلامة تاج الدين الفَزَاري، وحصل «المنتخب» في أصول الفقه، قاله لي شيخنا ابن الزملكاني، ثم إنه سقط من سطح «الشامية البرانية» فمكث أياماً ومات، فوجَدَ الوالد عليه وَجْداً كثيراً ورثاه بأبيات كثيرة، فلما ولدت له أنا بعد ذلك سماني باسمه، فأكبر أولاده إسماعيل، وآخرهم وأصغرهم إسماعيل، فرحم الله من سلف، وختم بخير لمن بقي، توفي والدي في شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعمائة في قرية «مجيدل القرية» ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون، وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها، لا أدركه إلا كالحلم، ثم تحولنا من بعده في سنة سبع وسبعمائة إلى دمشق صحبة كمال الدين عبد الوهاب، وكان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوقاً، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين[1]، فاشتغلت على يديه في العلم،

---

(١) لم ترد ترجمة للأخ عبد الوهاب في (البداية والنهاية، سنة ٧٥٠ هـ، =

فيسر الله تعالى منه ما يسر، وسهل منه ما تعسر، والله أعلم»[1].

ثم نقل ابن كثير رحمه الله نبذة عن والده وشعره عن طريق شيخه الحافظ علم الدين البِرْزَالي في «معجمه...» قال: «عمر بن كثير القرشي خطيب القرية، وهي قرية من أعمال بصرى، رجل فاضل، له نظم جيد، ويحفظ كثيراً من اللغز، وله همة وقوة، كتبت عنه من شعره بحضور شيخنا تاج الدين الفزاري، وتوفي في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعمائة بمجيدل القرية من عمل بصرى، أنشدنا الخطيب شهاب الدين، أبو حفص، عمر بن كثير القرشي، خطيب القرية بها، لنفسه في منتصف شعبان من سنة سبع وثمانين وستمائة...» وذكر قصيدة في الغزل، ثم قال ابن كثير بعدها: «وعدتها ثلاثة وعشرون بيتاً، والله يغفر له ما صنع من الشعر»[2].

الوضع العائلي لابن كثير:

يظهر أن ابن كثير رحمه الله تعالى انصرف بدمشق إلى طلب العلم، وتحصيل المعارف، والتقى علماءها ومشايخها ـ كما سنوضحه في نشأته ـ إلى أن صحب محدث الديار الشامية في عصره، أبا الحجاج جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الملك، المشهور بالمِزّي، الحافظ للحديث، وإمام الحفاظ (٧٤٢ هـ) فلازمه، وأخذ

= ١٤/ ٢٢٩ـ٢٣٣)، ولا في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر.

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٣١ـ٣٢.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٣٢ـ٣٣.

عنه العلم الكثير، ثم تزوج ابنته، وسمع عليه أكثر تصانيفه، وهذا ما صرحت به معظم المصادر، بأنه لازم المزّي وصاهره[1].

وصرح ابن كثير باسم زوجته، وأنها زينب بنت الحافظ المزّي[2]، وذكر ابن كثير أن زوجته زينب وأمها عائشة بنت إبراهيم بن صديق (٧٤١ هـ) حفظتا القرآن على الشيخة الصالحة أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية (٧٤١ هـ)[3]، وهذا الزواج، اختيار موفق وميمون، فالمزي اختار لابنته الطالب العالم، الفقيه التقي، صاحب الخلق الحميد، كما سيأتي في صفاته، مع الدين القويم، وابن كثير اختار بنت أستاذه وشيخه الحافظ للحديث، ومحدث الشام في عصره، وإمام الحفاظ، مع ما يعرف عنه من التقوى والورع، الذي ينعكس في بيته، ويظهر في تربيته لابنته، والزوجة رضيت ما رضيه أبوها، فرضيت الشاب العالم الذي يحفظ لها دينها ودنياها، وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك»[4]، قال النووي: «وفي الحديث حث على مصاحبة

---

(١) إنباه الغمر ١/ ٣٩، طبقات المفسرين ١/ ١١٠، المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٩٢.

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ٧٢، ابن كثير، حياته ص ٢٤.

(٤) صحيح البخاري ٥/١٩٥٨ رقم: ٤٨٠٢، صحيح مسلم ١٠/ ٥١، =

أهل الدين في كل شيء، لأن صاحبهم يستفيد من أخلاقهم وبركتهم وحسن طرائقهم، ويأمن المفسدة من جهتهم»[1].

أولاد ابن كثير:

خلف ابن كثير عدداً من الأولاد الذين اشتغلوا بالعلم، وخاصة الحديث والفقه والتاريخ، وخلدوا اسم العائلة في العلم وكتب التراجم لكن باختصار.

فمنهم عمر الذي أشار إليه الوالد في ترجمة أحد التجار بعبارة مبهمة، وهو أكبر أولاد ابن كثير[2]، وترجم له ابن حجر فقال: «عز الدين عمر (٧٣٨ـ٧٨٣ هـ) عُني بالفقه وكتب تصانيف أبيه، وولي الحسبة مراراً ونظر الأوقاف، ودرَّس بعده بعدَّة أماكن، وعاش خمساً وأربعين سنة، ومات في رجب سنة ٧٨٣ هـ»[3].

وكان عمر قد نسخ لأبيه نسخة من مسند الإمام أحمد الذي رتبه ابن المحب الصامت (٧٨٩ هـ) على ترتيب حروف المعجم، وكانت هذه النسخة أصلاً لأبيه في تأليف كتابه «جامع المسانيد والسنن» ثم

= الترغيب والترهيب ٣/ ٤٥، وقوله: «تربت يداك» كلمة معناها الحث والتحريض، أي اظفر بذات الدين، ولا تلتفت إلى المال، أكثر الله مالك.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٠/ ٥٢.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٢٧.

(٣) إنباه الغمر ٣/ ٧٥ طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الهند ١٣٨٧هـ، ابن كثير، حياته ص ٢٥.

بيّض عمر هذا الكتاب، ورأى ابن حجر النسختين بخط عمر[1].

والولد الثاني زين الدين عبد الرحمن (٧٩٢ هـ) واكتفى ابن فهد بالتصريح عنه أنه مات في دمشق[2].

والولد الثالث أبو البقاء محمد (٧٥٩ـ ٨٠٣ هـ) الذي ولد بدمشق، ونشأ بها، وطلب العلم وتخرج، ورحل إلى القاهرة، فسمع من بعض شيوخها، وتميز في هذا الشأن قليلاً، وشارك في الفضائل، مع خط حسن معروف، جيد الضبط، وقال ابن حِجي عنه: «لم يكن محمود السيرة» ودرس بعد أبيه في تربة أم الصالح، وعلق تاريخاً للحوادث في زمنه ذكر فيه أشياء غريبة، ومات في سن الكهولة عن أربع وأربعين سنة بالرملة، فاراً عن دمشق، ولعله فرَّ من الفتنة التيمورية عند دخول تيمورلنك دمشق في ربيع الآخر سنة ٨٠٣ هـ ورحل عن الدنيا في ثالث شعبان من نفس السنة[3].

والولد الرابع تاج الدين عبد الوهاب (٧٦٧ـ٨٤٠ هـ) الذي سمع من أبيه، والمحب الصامت، وابن أميلة وغيرهم، وحدَّث، فسمع منه الفضلاء[4].

---

(١) إنباه الغمر ١/ ٤٧ طبعة القاهرة ١٣٨٩ هـ.

(٢) لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ ص ١٧٨.

(٣) الضوء اللامع ٧/ ١٣٨، شذرات الذهب ٧/ ٣٥، لحظ الألحاظ ص ١٩٢، ابن كثير، حياته ص ٢٦.

(٤) الضوء اللامع ٥/ ٩٨.

والولد الخامس شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن عمر بن كثير الذي لم يذكر له ترجمة في الكتب إلا بذكر اسمه في ترجمة ابنته المحدثة أسماء، فكانت سبباً في تخليد اسم أبيها للأجيال المتأخرة[1]، مما يدل على اهتمام المسلمين بتعليم بناتهم، حتى يصبحن محدثات عالمات قارئات، ويرجع إليهن الحفاظ والمحدثون والمؤرخون[2].

---

(١) الضوء اللامع ١٢/٦.

(٢) ابن كثير، حياته ص ٢٧.

الفَصلُ الثاني

نشأة ابن كثير وتكوينه

نبحث في هذا الفصل عن نشأة ابن كثير في قريته، ثم نبين أطوار حياته، ورحلته في طلب العلم، ونعرج على سرد شيوخه، مع تقديم نبذة مختصرة عن كل منهم، لنرى مآثرهم التي انتقلت إلى ابن كثير، ونعرف مدى تأثيرهم وتوجيههم عليه، حتى تكوَّن هذا التكوين العلمي المتميز، وليعطي الإنتاج الغزير النافع المفيد لأبناء جيله أولاً، ثم للأجيال اللاحقة ثانياً.

طفولة ابن كثير:

رأينا أن ابن كثير رحمه الله تعالى ولد سنة ٧٠٠ هـ أو ٧٠١ هـ ببلدة «مجيدل القُرَيَّة» من أعمال بصرى، وكان أبوه خطيباً فيها، إلى أن توفي والده سنة ٧٠٣ هـ، وبقي ابن كثير تحت رعاية أخيه كمال الدين عبد الوهاب، الشقيق والشفيق، وترعرع في طفولته في هذه القرية لمدة أربع سنوات، وهي سن الطفولة يتيماً بعد فقد الوالد، ولكنه امتلأ قلبه من ذكريات الطفولة، ونعم بآثار والده المعنوية، وحفظ أحاديث الناس عن خطب والده، وأقواله المأثورة، وأشعاره

المحفوظة، وأدرك بحسه منزلة العالم العامل المخلص، وأثره في الحياة والمجتمع، ومكانته في القلوب والنفوس، وسمع من إخوته وأخواته سبب تسميته بإسماعيل، تيمناً بأخيه الأكبر (من أبيه) الذي سلك طريق العلم، فأخذه عن والده، ثم ارتحل إلى دمشق لاستكمال التكوين العلمي، فاختطفته يد المنون في شبابه، فولد للوالد هذا الابن الأخير فسماه إسماعيل ليكون كسميه في طلب العلم، فاتجه ابن كثير رحمه الله تعالى إلى تحصيل العلم منذ السن المبكر، ليقرَّ عين والده في قبره، وليصبح كأبيه في قلوب الناس[1].

رحلة ابن كثير:

ولما بلغ ابن كثير السنة السابعة من عمره، ارتحل بصحبة أخيه الشقيق عبد الوهاب إلى مدينة دمشق التي كانت موئل العلماء، وحاضرة العلم، ومركز الحضارة، وينبوع العطاء، ومحط الأنظار، ومرابع المعرفة التي يفد إليها العلماء والطلاب من كل حدب وصوب[2].

وكان عبد الوهاب بمثابة الأب والأستاذ الأول لابن كثير، الذي أخذ منه الشيء الكثير، واستمر في ملازمته والاستفادة من علمه

(١) انظر: الفصول، المقدمة ص ٣٤.

(٢) إنباه الغمر ١/ ٣٩، معجم المؤلفين ٢/ ٢٨٣، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٧، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩.

طوال حياته التي امتدت إلى سنة ٧٥٠ هـ[١].

ويحدثنا ابن كثير رحمه الله تعالى عن رحلته إلى دمشق بصحبة أخيه عبد الوهاب، فيقول:

«ثم تحولنا من بعده (بعد وفاة الوالد) في سنة سبع وسبعمائة إلى دمشق، صحبة كمال الدين عبد الوهاب، وقد كان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوقاً، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين، فاشتغلت على يديه في العلم، فيسر الله تعالى منه ما يسر، وسهل منه ما تعسر، والله أعلم»[٢].

وعندما يصل ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» إلى سنة ٧٠٧ هـ يكرر قصة رحيله إلى دمشق، ويحدد مكان سكناهم فيها، فيقول:

«قلت: وفي هذه السنة (٧٠٧ هـ) كان قدومنا من بصرى إلى دمشق بعد وفاة الوالد، وكان أول ما سكنا بدرب سعور الذي يقال له درب ابن أبي الهيجاء، بالصاغة العتيقة، عند الطوريين، ونسأل الله حسن العاقبة والخاتمة آمين»[٣].

واستقر المقام بابن كثير في دمشق الفيحاء حرسها الله وصانها، وصار ابناً من أبنائها، وعالماً من علمائها، وخطيباً ومدرساً فيها، وأحبها

---

(١) خالف في ذلك بعضهم فقال: «ورحل مع أبيه» وهذا تصحيف أو سبق قلم من المؤلف.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٣٢.

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ٤٦.

من قلبه فلم يفارقها حتى مات ودفن فيها، وكان وفياً لها فكتب تاريخها، ووصف أفراحها وانتصاراتها، وبكى أحزانها وأتراحها، وشارك في أحداثها، وكان له دور فاعل في ذلك، كما سنرى، حتى صار يشار إليه بالبنان: محدثاً ومفسراً، ومدرساً ورئيساً، ومصلحاً وداعية، ومعلماً ومؤرخاً، «فعاش للفيحاء، أكثر مما عاش فيها»[1].

تكوين ابن كثير العلمي:

اتجه ابن كثير رحمه الله تعالى إلى تحصيل العلوم الشرعية ليقر عين والده، ويتابع مسيرة العلوم الإسلامية في عائلته، ويلتزم بتوجيه شقيقه، وليحظى بدعاء رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[2]، أي يجعله فقيهاً، والفقه الفهم، وهذا يدل على فضيلة العلم، والتفقه في الدين، والحث عليه، وسببه أنه قائد إلى تقوى الله تعالى[3]، ولأن «العلماء ورثة الأنبياء»[4]، ولأن العلماء دعاة إصلاح لأنفسهم ومجتمعهم وأمتهم، ويسعون لحمل راية الإصلاح

---

(١) الفصول، المقدمة ص ٣٦.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري (١/ ٣٩ رقم ٧١) ومسلم (٧/ ١٢٨ رقم ١٠٣٧).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٧/ ١٢٨.

(٤) هذا جزء من حديث رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعاً (نزهة المتقين ٢/ ٩٥٥).

والسعادة لنيل خيري الدنيا والآخرة[1].

وبدأ ابن كثير بمعرفة العلوم الشرعية شفاهاً في صغره في البيت العلمي الإسلامي، ثم بدأ ينتهل العلم مباشرة من أخيه كمال الدين عبد الوهاب، وبعد انتقاله إلى دمشق، وهو في السابعة من عمره، جلس بين يدي العلماء، وقصد التحصيل بشكل مباشر حسب الطريقة المتبعة في ذلك العصر، مستفيداً من ملكاته الفطرية، وتفرغه لطلب العلم، وحسن تربيته وتوجيهه، قال ابن تغري بردى: «ثم لازم الاشتغال، ودأب، وحصل، وكتب»[2].

ونستطيع أن نحدد ملامح ابن كثير العلمية وتكوينه الثقافي بما يلي:

١ ـ حفظ القرآن الكريم.

وحفظ ابن كثير القرآن الكريم، وختم حفظه سنة ٧١١ هـ كما صرح بذلك في تاريخه[3] وقرأ بالقراءات، حتى عدَّه الداودي من القراء، وترجم له في طبقاتهم التي ألفها[4].

---

(١) انظر أهمية العلوم الإسلامية وأنواعها في كتابنا «مرجع العلوم الإسلامية» وكتيب «تعريف عام بالعلوم الشرعية» لنا.
(٢) المنهل الصافي ٢/ ٤١٥.
(٣) البداية والنهاية ١٤/ ١٥٠، ٣١٢.
(٤) مات الداودي بمصر سنة ٩٤٥ هـ، ولكن ابن الجزري لم يذكر ابن كثير في طبقات القراء، والحافظ المفسر ابن كثير هذا غير ابن كثير أحد القراء =

٢ـ الفقه :

حفظ ابن كثير كتاب «التنبيه» وهو أهم مختصر في الفقه الشافعي في ذلك العصر، ويتجه إليه الطلاب في مقتبل العمر، وعرض ابن كثير «التنبيه» سنة ثماني عشرة[١].

وأخذ ابن كثير الفقه ـ بعد أخيه ـ على الشيخين: برهان الدين الفزاري، وكمال الدين بن قاضي شهبة، وغيرهم، وكان قد بدأ التفقه عند أخيه في مبدأ أمره[٢].

وشغف ابن كثير بكتاب «التنبيه» فألف في صغره «أحكام التنبيه» ولما اطلع عليه شيخه البرهان الفزاري أعجبه وأثنى عليه[٣]، وصار ابن كثير فقيهاً كما سنبين في الباب الثاني.

= السبعة التابعي (انظر: مرجع العلوم الإسلامية) ص ١٥٢، عمدة التفسير ١/ ٢٤، وانظر: ابن كثير، حياته ص ٣٠ـ٣١.

(١) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، إنباه الغمر ١/ ٣٩، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، وانظر التعريف بكتاب «التنبيه» وبيان أهميته في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٥١٥) وفي مقدمة «المهذب للشيرازي» الذي حققناه، ونشرته دار القلم بدمشق.

(٢) طبقات المفسرين ١/ ١١٠، إنباه الغمر ١/ ٣٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٧، المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، البدر الطالع ١/ ١٥٣، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧.

(٣) إنباه الغمر ١/ ٣٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧، وسماه الداودي «الأحكام على أبواب التنبيه» (طبقات المفسرين ١/ ١١٠).

٣ـ أصول الفقه:

وحفظ ابن كثير «مختصر ابن الحاجب» في أصول الفقه، وهو من أهم المختصرات المؤلفة في هذا العلم[١]، وقرأ ابن كثير أصول الفقه على الأصبهاني[٢].

٤ـ علوم الحديث:

واتجه ابن كثير إلى علم الحديث الشريف، فسمعه من عدد كبير من علماء دمشق، قال ابن حجر عنه: «واشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله»[٣]، وممن سمع منهم ابن السويدي، البدر محمد بن إبراهيم (٧١١ هـ)، وسمع «صحيح مسلم» على الشيخ نجم الدين ابن العسقلاني بقراءة الوزير الغرناطي الأندلسي سنة ٧٢٤ هـ[٤]، وسمع من الحجّار، والقاسم بن عساكر، وعيسى بن المطعم، وأحمد ابن الشيخة، وابن الشيرازي، وإسحاق الآمدي، ومحمد بن الزراد، ولازم ابن كثير الحافظ المزي، وسمع عليه أكثر تصانيفه، وتخرج به، كما أخذ عن ابن تيمية، وأجاز لابن كثير رواية الحديث، من مصر،

---

(١) انظر التعريف بهذا الكتاب وبيان أهميته في كتابنا (مرجع العلوم الإسلامية ص ٦٢٢).

(٢) شذرات الذهب ١/ ٢٣١، إنباه الغمر ١/ ٣٩، طبقات المفسرين ١/ ١١٠، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧، الدارس ١/ ٣٦.

(٣) الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩.

(٤) البداية والنهاية ١٤/ ١٤٩.

أبو الفتح الدبوسي، وعلي بن عمر الواني، ويوسف الختني وغيرهم[1]، حتى قال عنه الداودي: «وسمع الكثير»[2]، حتى صار حافظاً ومحدثاً كما سنبينه في الباب الثاني.

٥ـ علم الرجال والتاريخ:

وانتقل ابن كثير من سماع الحديث، إلى معرفة الرجال، والنظر في العلل، حتى برع في ذلك، ومنه تخصص في علم التاريخ، وصنف في الحديث والرجال والتاريخ، وطبقات الشافعية، كما سنرى في إنتاجه أولاً، ثم في الباب الثاني إن شاء الله تعالى.

٦ـ علوم العربية:

اهتم ابن كثير رحمه الله تعالى بعلوم العربية التي تعتبر المساعد الأول للعلوم الشرعية، والوسيلة الأساسية لفهم القرآن الكريم وتفسيره، بل إن أهم شروط المفسر أن يكون متقناً للعربية التي نزل بها القرآن الكريم، ويجب فهمه على أساليبها ودلالاتها، واستعمال الألفاظ والتراكيب فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٢/٢]، وقال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا

---

(١) المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، إنباء الغمر ١/ ٣٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١، تذكرة الحفاظ ص ٥٨، البدر الطالع ١/ ١٥٣، ابن كثير، حياته ص ٣٣.

(٢) طبقات المفسرين ١/ ١١٠.

﴿عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ١٣/٣٧]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٤١/٣].

وحصل ابن كثير علوم العربية حتى أتقنها، ولذلك وصفه تلميذه ابن حجي، فقال: «ويشارك في العربية مشاركة جيدة، وينظم الشعر»[١].

وقال ابن تغري بردى: «وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والفقه والعربية، وغير ذلك»[٢].

وذكره شيخه الذهبي في «معجمه المختص» وقال فيه: «وتفهم العربية والأصول»[٣].

وقال الشوكاني: «وبرع في الفقه والتفسير والنحو»[٤].

وهكذا ترقى ابن كثير في تحصيل العلوم الشرعية والعربية حتى بلغ القمة وصار يشار إليه بالبنان، ولذلك قال عنه ابن تغري بردى: «وبرع في الفقه والتفسير والحديث...، وجمع وصنف، ودرس وحدَّث، وألف»[٥]، وقال الشوكاني: «وبرع في الفقه والتفسير

---

(١) طبقات المفسرين ١/ ١١١، الدارس ١/ ٣٧، وانظر: شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢.

(٢) المنهل الصافي ٢/ ٤١٦، وانظر: ابن كثير، حياته ص ٣٢.

(٣) معجم محدثي الذهبي ص ٥٦.

(٤) البدر الطالع ١/ ١٥٣.

(٥) المنهل الصافي ٢/ ٤١٥.

والنحو، وأمعن النظر في الرجال والعلل»[1].

شيوخ ابن كثير:

ورد سابقاً أسماء بعض شيوخ ابن كثير وأساتذته ومعلميه الذين تربى على أيديهم، وأخذ عنهم، وسمع منهم، ونريد أن نزيد الأمر إيضاحاً، فنعطي نبذة عن أشهر مشايخ ابن كثير، لنعرف مكانتهم العلمية أولاً، ونبين مدى تأثيرهم على ابن كثير ثانياً، مع الإشارة إلى الجانب العلمي الذي استفاده ابن كثير من كل منهم، فكانت حياته العلمية امتداداً لهم، وثمرة من نتاجهم، وإن كان ابن كثير رحمه الله تعالى قد فاق معظمهم علماً وشهرة، وتصنيفاً، وتوفيقاً، وهذا أمر ملاحظ، فقد يفوق التلميذ أستاذه، ويبز الطالب شيخه، ويتفوق الابن على الأب، وكل ذلك عطاء رباني، وتوفيق إلهي، يعطيه من يشاء، ويختار من يريد، ويهب ما يشاء، ونسأل الله تعالى أن يرزقنا التوفيق والسداد.

ونذكر هؤلاء الصفوة من العلماء، مع ترتيب أسمائهم حسب سني وفاتهم، لكننا نبدأ بنبذة عن شقيق ابن كثير، وهو آخرهم موتاً:

١ـ عبد الوهاب بن عمر بن كثير، كمال الدين (٧٥٠ هـ):

وهو الشقيق الأكبر للحافظ ابن كثير، ولم تذكر لنا كتب التراجم

---

(١) البدر الطالع ١/١٥٣، وانظر نفس العبارة في (ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨).

والتاريخ تفصيلاً عن حياته وتكوينه وعلمه، إلا ما ذكره لنا ابن كثير رحمه الله تعالى عنه، وأنه تفقه به في أول أمره، وتولى رعايته بعد وفاة الأب، وصحبه في رحلته إلى دمشق، فقال معترفاً بفضله، ومخلداً لذكره، ومبيناً لحياته: «ثم تحولنا من بعده (بعد وفاة الوالد) في سنة سبع وسبعمائة إلى دمشق، صحبة كمال الدين عبد الوهاب، وقد كان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوقاً، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين، فاشتغلت على يديه، فيسر الله تعالى منه ما يسر، وسهل منه ما تعسر، والله أعلم»[1].

ولم يزد ابن كثير شيئاً عن شقيقه عبد الوهاب، ولم يترجم له في سنة الوفاة، وهذا يؤكد أن ابن كثير وقف في كتابه «البداية والنهاية» عند تمام سنة ٧٣٨ هـ، وما وقع بعدها «كتبه إسماعيل بن كثير بن ضوء القرشي الشافعي عفا الله تعالى عنه آمين» وجاء في الهامش: «كذا بسائر الأصول»[2]، ثم كانت التتمة لغيره، كما سنبين ذلك في الدراسة التفصيلية لهذا الكتاب في الباب الثاني إن شاء الله تعالى، كما أن ابن حجر رحمه الله تعالى لم يترجم للشقيق عبد الوهاب في كتابه[3]، ولم نطلع له على ترجمة في مصدر آخر فيما اطلعنا عليه.

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٣٢.
(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٨٤.
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣/ ٤٢، وانظر البدر الطالع ١/ ٤٠٦، شذرات الذهب ٦/ ١١٦ وما بعدها، ابن كثير، حياته ص ٢٣.

٢ـ عيسى المطَعِّم (٧١٩ هـ):

وهو عيسى بن عبد الرحمن بن معالي بن أحمد، أبو محمد، شرف الدين المَقْدسي، ثم الصالحي، الحنبلي، المطَعِّم في الأشجار، ثم السمسار في العقار، ولد سنة ٦٤٥هـ، وسمع الحديث من عدد من العلماء، حتى سماه ابن العماد «مسند الوقت»، وتفرد وروى الكثير، وكان يطعِّم الأشجار، وسار إلى بغداد وطعَّم بستان المستعصم، وكان يروي الحديث، وهو راوي صحيح البخاري وغيره، وكان أمياً عامياً، بعيد الفهم على جودة فيه، وصبر على الطلبة، وأقعد بآخره، قال ابن حجر: إنه مات في ذي الحجة سنة ٧١٧ هـ، وفي معجم الذهبي أنه مات سنة ٧١٩ هـ، لأن الذهبي سمع عليه في جمادى الأولى سنة ٧١٩، وهو هذا الراجح، واقتصر عليه ابن العماد وابن كثير، عن أربع وسبعين سنة[١].

وسمع ابن كثير الحديث بدمشق من عيسى المطعم، وذلك في العهد المبكر لابن كثير في دمشق[٢].

٣ـ القاسم بن عساكر (٧٢٣ هـ):

وهو القاسم بن مظفر بن محمود بن أحمد بن الحسن بن هبة الله،

---

(١) الدرر الكامنة ٣/ ٢٨٢، شذرات الذهب ٦/ ٥٢، البداية والنهاية ١٤/ ٩٥.

(٢) المنهل الصافي ٢/ ٤١٥.

ابن عساكر الدمشقي، بهاء الدين، مسند الشام، الطبيب، حضر العلماء، وسمع من عدد منهم، وأجاز له مشايخ البلاد، وبلغ معجمه سبع مجلدات، وألحق الصغار بالكبار، وكان طبيباً مؤرخاً، وكان يعالج المرضى احتساباً، ويتودد إلى المحدثين، ويتصدق، وجعل داره دار حديث، قال الذهبي: «كان كثير المحاسن، صبوراً على الطلبة»، وعمر حتى بلغ أربعاً وتسعين سنة، ومات في شعبان سنة ٧٢٣ هـ[١].

سمع ابن كثير الحديث من القاسم بن عساكر[٢].

٤ـ محمد بن محمد بن محمد الشيرازي (٧٢٣ هـ):

هو شمس الدين، أبو نصر، مسند الوقت، سمع الكثير في دمشق ومصر وحلب، وله مشيخة وعوال، كان ساكناً وقوراً، منقبضاً، له كفاية، وكبر سنه، ولم يختلط، وتوفي ليلة عرفة ببستانه من المِزَّة، ودفن بتربتها سنة ٧٢٣ هـ.

قال عنه ابن كثير: «شيخنا الأصيل شمس الدين...، وكان شيخاً حسناً خيراً، مباركاً، متواضعاً...، لم يتدنس بشيء من الولايات، ولا تدنس بشيء من وظائف المدارس ولا الشهادات»[٣].

---

(١) الدرر الكامنة ٣/ ٣٢٣، شذرات الذهب ٦/ ٦١.

(٢) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩، إنباء الغمر ١/ ٣٩، المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، البدر الطالع ١/ ١٥٢.

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ١٠٩، وانظر: شذرات الذهب ٦/ ٦٢، ابن كثير، حياته ص ٣٧.

سمع ابن كثير منه الحديث[1].

٥ـ إسحاق بن يحيى الآمدي (٧٢٥ هـ):

وهو عفيف الدين، إسحاق بن يحيى بن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل الآمدي، ثم الدمشقي، الحنفي، سمع من مجد الدين بن تيمية وأخذ عنه، وكان له أنس بالحديث، ويعرف مسموعاته، وحصل أصوله، وحدث بالكثير، وكان يشهد على القضاة، وولي مشيخة الظاهرية، وكان لطيفاً بشوشاً، تفرد بأشياء من العوالي، وعمل لنفسه معجماً، ومات ليلة الاثنين ٢٢ رمضان سنة ٧٢٥ هـ ودفن بقاسيون.

قال عنه ابن كثير: «شيخنا عفيف الدين الآمدي...، شيخ دار الحديث الظاهرية، ولد في حدود الأربعين وستمائة، وسمع الحديث على جماعة كثيرين، ... وكان شيخنا حسناً، بهي المنظر، سهل الإسماع، يحب الرواية، ولديه فضيلة...، وهو والد فخر الدين ناظر الجيوش والجامع»[2].

سمع ابن كثير من الآمدي الحديث، ولم يحدد كتاباً قرأه على هذا الشيخ[3].

---

(١) المنهل الصافي ٢/ ٤١٥.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٢٠، وانظر: الدرر الكامنة ١/ ٣٨١.

(٣) الدرر الكامنة ١/٣٩٩، المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، الفصول، المقدمة ص ٣٨.

٦ـ محمد بن أحمد الزرّاد (٧٢٦ هـ):

وهو محمد بن أحمد بن أبي الهيجاء بن الزرّاد، شمس الدين، المسند، الدمشقي، الصالحي، روى شيئاً كثيراً من الحديث، وسمع الكتاب الكبار، وتفرد، قال الذهبي: وخرجت له مشيخة، وسمع بعد الخمسين من عدد، وكان يروي السند والسيرة ومسند أبي عوانة والأنواع والتقاسيم ومسند أبي يعلى، وكان خيراً متواضعاً يتجر ويرتفق، وله نظم وسط وفهم، وتغير ذهنه قبل موته، ولم يختلط، وضعف حاله وافتقر واحتاج، ومات في شوال سنة ٧٢٦ هـ بقاسيون عن ثمانين سنة[١].

سمع ابن كثير منه الحديث[٢].

٧ـ ابن قاضي شهبة (٧٢٦ هـ):

هو عبد الوهّاب بن محمد بن عبد الوهّاب بن ذُؤَيْب الأسدي، كمال الدين، أبو محمد، المعروف بابن قاضي شُهْبَة، ولد سنة ٦٥٣ هـ بحوران، وقدم دمشق، وسمع الحديث، وتفقه على الشيخ تاج الدين الفزاري الفركاح، وتخرج به، ولازمه، ولازم أخاه شرف الدين الفزاري في العربية، وكان عارفاً بالمذهب الشافعي، والنحو،

(١) الدرر الكامنة ٣/ ٤٦٦، شذرات الذهب ٦/ ٧٢، ولم يترجم له ابن كثير في «البداية والنهاية».

(٢) الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩، المنهل الصافي ٢/ ٤١٥.

وكان مجداً في تعليم الطلبة، ويشغلهم مدة مديدة بالجامع الأموي، توفي ليلة الثلاثاء ٢١ ذي الحجة ٧٢٦ هـ، بالمدرسة المجاهدية التي كان يقيم فيها، ودفن بمقابر باب الصغير.

قال ابن كثير عنه: «الشيخ الإمام العالم، شيخ الطلبة ومفيدهم... وكان بارعاً في الفقه والنحو، له حلقة يشتغل فيها تجاه محراب الحنابلة، يعتكف جميع شهر رمضان، ولم يتزوج قط، وكان حسن الهيئة والشيبة، حسن العيش والملبس، متقللاً من الدنيا، ... ولم يدرس قط ولا أفتى، مع أنه كان يصلح أن يأذن في الإفتاء، ولكنه كان يتورع عن ذلك»[١].

تفقه ابن كثير على هذا الشيخ، لأنه كان يعيد (ينوب) عن الشيخ الفزاري في حلقته، وكان له حلقة خاصة للتدريس[٢].

٨ـ الشيخ ابن الزملكاني (٧٢٧ هـ):

وهو محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم، كمال الدين ابن خطيب زملكا (قرية في غوطة دمشق الشرقية) المعروف بابن

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٢٦ـ١٢٧، وانظر: الدرر الكامنة ٣/ ٤٤، طبقات الشافعية الكبرى ١٠/ ١٢٤، بغية الوعاة ٢/ ١٢٤، واقتصر ابن كثير على اسم: عبد الوهاب بن ذؤيب، وتبعه محققا (الفصول، المقدمة ص ٣٩).

(٢) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، طبقات المفسرين ١/ ١١٠، إنباء الغمر ١/ ٣٩، طبقات الشافعية ٢/ ١٣٧، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، الدارس ١/ ٣٦، الفصول، المقدمة ص ٣٩.

الزملكاني، القاضي، الفقيه، الشافعي، الأصولي، المفسر. ولد بدمشق، وقرأ فيها الفقه والأصول والنحو، وتصدر للإفتاء، وكان فصيحاً قوي العربية، ولي القضاء في حلب مدة سنتين.

قال ابن كثير عنه: «كان شيخ الشافعية بالشام وغيرها، وانتهت إليه رئاسة المذهب تدريساً وإفتاء ومناظرة، وبرع وساد أقرانه» وقال الذهبي: «شيخنا عالم العصر، وكان من بقايا المجتهدين، ومن أذكياء أهل زمانه، درس وأفتى وصنف، وتخرج به الأصحاب».

صنف في إعجاز القرآن، والرد على ابن تيمية في مسألتي الطلاق والزيارة، وشرح منهاج النووي، وله كتاب في التاريخ، طلبه السلطان بمصر ليوليه القضاء فقصدها، فمرض في الطريق، ومات بمدينة بلبيس (من أعمال مصر) وحمل إلى القاهرة، ودفن بجوار تربة الإمام الشافعي سنة ٧٢٧ هـ.

درس عليه ابن كثير الفقه، وحضر دروسه، وقال عنه: «وأما دروسه في المحافل فلم أسمع أحداً من الناس أحسن منه، ولا أحلى من عبارته، وحسن تقديره، وجودة احترازاته، وصحة ذهنه، وقوة قريحته، وحسن نظمه»، وقال عنه أيضاً: «فيما أخبرني شيخنا ابن الزملكاني»[1].

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٣١، ٣١، وانظر ترجمة ابن الزملكاني في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٤٣٤ والمراجع المشار إليها في ص ٤٣٥ هـ ١، جلاء العينين ص ٢٥).

٩ـ شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨ هـ):

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ابن تيمية الحراني، الدمشقي، الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين، شيخ الإسلام، الإمام، المجتهد، الفقيه، الأصولي، المحدث، المفسر، النحوي، الأديب، الواعظ، الخطيب، القدوة، الزاهد، العابد، المجاهد.

ولد بحران سنة ٦٦١ هـ، ثم قدم مع أبيه إلى دمشق سنة ٦٦٧ هـ، وحفظ القرآن، وتفقه على والده، وجمع العلوم الشرعية والعربية والعقلية، وظهرت عليه مخايل الذكاء والنجابة، وضرب بسهم وافر في جميع العلوم، وتأهل للتدريس والفتوى وهو دون العشرين، وشرع في الجمع والتأليف، وصار من كبار الحنابلة، وتولى التدريس والإفتاء، واشتهر اسمه في الآفاق، وانتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والجرأة في الحق، والشجاعة في نشر الدين، ورد البدع، وهدم الخرافات، والدعوة إلى الإصلاح الديني.

طلب إلى مصر، وعاد إلى دمشق سنة ٧١٢ هـ للجهاد ضد التتار، وأصدر فتواه في مسألة الطلاق الثلاث، فاعترض عليه العلماء، وسعوا إلى حبسه في قلعة دمشق فبقي فيها حتى مات سنة ٧٢٨ هـ، فخرجت دمشق في جنازته، وزادت مصنفاته عن ثلاثمائة مجلد في مختلف العلوم[١].

---

(١) مرجع العلوم الإسلامية ص ٤٥٣، والمراجع المشار إليها في هامش ١ ص ٤٥٤.

صحبه ابن كثير، وأحبه، وتفقه به، قال ابن العماد عن ابن كثير: «وصحب ابن تيمية...، وأخذ عن الشيخ ابن تيمية فأكثر عنه...، كانت له خصوصية بابن تيمية، ومناضلة عنه، واتباع له في كثير من آرائه، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق، وامتحن بسبب ذلك، وأوذي»[1].

وقال ابن حجر عن ابن كثير: «وأخذ عن ابن تيمية، ففتن بحبه، وامتحن لسببه»[2].

ومما يؤكد العلاقة الخاصة بين ابن كثير وابن تيمية، وصلة ابن كثير به ومكانته عنده بشكل معروف ومألوف لدى الناس أنه لما توفي شيخ الإسلام ابن تيمية في سجن القلعة بدمشق لم يسمح لأحد بالدخول أول الأمر إلا لخواص أصحابه، وكان منهم ابن كثير مع شيخه المِزّي الذي كان متأثراً بابن تيمية ومؤيداً له.

قال ابن كثير: «وكنت فيمن حضر هناك مع شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزّي رحمه الله، وكشفت عن وجه الشيخ، ونظرت إليه

---

(١) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، ٢٣٢، وانظر: إنباه الغمر ١/ ٣٩، طبقات المفسرين ١/ ١١٠، الدارس ١/ ٣٦، المنهل الصافي ٢/ ٤١٤، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢.

(٢) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠، ونقل ذلك عنه الشوكاني (البدر الطالع ١/ ١٥٣).

وقبلته، وعلى رأسه عمامة بعذب مغروزة، وقد علاه الشيب أكثر مما فارقناه»[1].

ولما مات المِزّي(٧٤٢ هـ) بعد ذلك بأربعة عشر عاماً «ذُهب به إلى مقابر الصوفية، فدفن هناك إلى جانب زوجته الصالحة الحافظة لكتاب الله، عائشة بنت إبراهيم بن صديق، غربي قبر الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمهم الله أجمعين»[2].

وكان ابن كثير ملازماً للمزّي، وصاهره على ابنته، وكان كل منهما محباً مخلصاً لشيخ الإسلام ابن تيمية ومتأثراً به، ولما توفي ابن كثير أيضاً (٧٧٤ هـ) بعد اثنتين وثلاثين سنة دفن بوصية منه في «تربة شيخ الإسلام ابن تيمية»[3]، كما سنرى في الفصل السادس.

وكان ابن كثير شافعي المذهب، ومع ذلك أخذ العلم عن ابن تيمية الحنبلي، وأحبه كثيراً، وكان مخلصاً له، ويتتبع نضاله ومواقفه المشهودة، ويسجلها في كتابه، وكتب عنه ترجمة ضافية، تبرهن عن حبه له، وتأييده لمواقفه[4]، وسوف نعود إليها بإذن الله تعالى.

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٣٨، وانظر: تهذيب الكمال، المقدمة ١/ ٢٣.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٩٢.

(٣) الرد الوافر ص ٩٢، وانظر: تهذيب الكمال، المقدمة ١/ ٢٣، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، لابن الألوسي، وهو رد على الاتهامات الموجهة لأحمد بن تيمية، وأحمد بن حجر العسقلاني، ويقع في ٥٨٤ صفحة.

(٤) البداية والنهاية ١٤/ ١٣٥، وانظر: البداية والنهاية ١٤/ ٢٥، ٢٦ =

١٠ـ برهان الدين الفزاري، ابن الفركاح (٧٢٩ هـ):

هو إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم، برهان الدين الفزاري، أبو إسحاق، الشهير بابن الفركاح، الفقيه الشافعي، الأصولي.

وهو من أهالي دمشق ولادة ومنشأ ووفاة، وأصله من مصر، ومن بيت علم، أخذ الفقه عن والده القاضي عبد الرحمن الفركاح، وعن عمه، وكان متقدماً في الفقه، ومشاركاً في الأصول والعربية، والنحو والحديث، خلف والده بالمدرسة البادرائية، ثم اشتغل بالتدريس في الجامع الأموي، وباشر الخطابة بعد عمه شرف الدين، فكان خطيباً مبرزاً، وواعظاً، وساد أقرانه، وعرض عليه رياسة القضاء بالشام فلم يقبل، وعرضت عليه المناصب الكبار فرفضها، وتصدى للإقراء، وانقطع للتدريس والعبادة، وانتهت إليه رياسة المذهب الشافعي بالشام، وكان حسن الأخلاق، ورعاً كريماً، محسناً إلى الطلاب، يصرف كل مرتبه في مصالحه ومصالح الناس، وله كتب ومصنفات[1].

سمع ابن كثير من هذا الشيخ «صحيح مسلم» وغيره في الحديث، وتفقه عليه في المذهب الشافعي، وكان معجباً به، ومعترفاً بفضله، وترجم له بإسهاب، وقال فيه: «هو الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ

= ، ١٣٦، الفصول، المقدمة ص ٤٠.

(١) مرجع العلوم الإسلامية ص ٤٣٥، والمراجع المشار إليها بالهامش ١.

المذهب، ومفيد أهله، شيخ الإسلام، مفتي الفرق، بقية السلف. . .، وقد سمعنا عليه «صحيح مسلم» وغيره. . .، وله تعليق كثير على «التنبيه» فيه من الفوائد ما ليس يوجد في غيره، وله تعليق على «مختصر ابن الحاجب» في أصول الفقه. . .، وبالجملة فلم أر شافعياً من مشايخنا مثله، وكان حسن الشكل، عليه البهاء والجلالة والوقار. . .، توفي بكرة يوم الجمعة، سابع جمادى الأولى بالمدرسة المذكورة، . . . وحملت جنازته على الرؤوس، وأطراف الأنامل، وكانت حافلة»[1].

١١ـ محمد بن شرف الدين البعلبكي الحنبلي (٧٣٠ هـ):

هو محمد بن شرف الدين بن حسين بن غيلان، شمس الدين، أبو عبد الله، البعلبكي، الحنبلي، إمام مسجد السلالين بدار البطيخ العتيقة.

أخذ ابن كثير القرآن عنه، وختمه وحفظه سنة ٧١١ هـ، فهو من المشايخ الأوائل لابن كثير في عهد الفتوة والطلب[2].

ويذكره ابن كثير مع الثناء عليه، فيقول: «شيخنا الصالح العابد الناسك الخاشع. . .، كان يقرىء القرآن طرفي النهار، وعليه ختمت

---

(١) البداية والنهاية ١٤/١٤٦، وانظر: البدر الطالع ١/١٥٣، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، إنباه الرواة ١/ ٣٩، طبقات المفسرين ١/ ١١٠، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، الدارس ١/ ٣٦، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧.

(٢) الفصول، المقدمة ص ٤٢.

القرآن في سنة ٧١١ هـ، وكان من الصالحين الكبار، والعباد الأخيار، توفي يوم السبت سادس صفر، وصلي عليه بالجامع، ودفن بباب الصغير، وكانت جنازته حافلة»[١].

١٢ـ الحجّار ابن الشحنة (٧٣٠ هـ):

هو أحمد بن أبي طالب بن نعمة بن حسن، أبو العباس، شهاب الدين، الصالحي الحجار، المعروف بابن الشحنة، حدَّث بصحيح البخاري أكثر من سبعين مرة بدمشق والصالحية والقاهرة ومصر وحماة وبعلبك وحمص وكفر بطنا وغيرها، ورأى من العز والإكرام ما لا مزيد عليه، ورحل الناس إليه من البلاد، وتزاحموا عليه، وسمع عليه السلطان الملك الناصر، وخلع عليه، وألبسه الخلعة بيده، ولما مات نزل الناس بموته درجة، قال الذهبي: «كان دموي اللون، صحيح الركب، أشقر، طويلاً، أبطأ عنه الشيب، وكانت له همة عالية، وفيه عقل وفهم، يُصغي جيداً. . .» وكان خياطاً، ثم خدم بالقلعة حجَّاراً وكان يشد السيف، وكان فيه دين وملازمة للصلاة، ويصوم تطوعاً، وقد صام وهو ابن مائة سنة رمضان وأتبعه ستاً من شوال، وكان يغتسل بالماء البارد، ومات قرب العصر ٢٥ صفر سنة ٧٣٠ هـ[٢].

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٥٠، ولم ترد له ترجمة في (شذرات الذهب، ذيل طبقات الحنابلة، الدرر الكامنة).

(٢) الدرر الكامنة ١/ ١٥٢، البداية والنهاية ١٤/ ١٥٠، ولم يترجم له ابن العماد.

سمع ابن كثير منه الحديث، وقال عنه: «الشيخ الكبير المسند المعمر الرحلة...، وسمعنا عليه بدار الحديث الأشرفية أيام الشتويات نحواً من خمسين جزءاً بالإجازات والسماع...، وكان شيخنا حسناً، بهي المنظر، سليم الصدر، متمتعاً بحواسه وقواه...، ودفن بجوار جامع الأفرم، وكانت جنازته حافلة»[1].

١٣ـ عبد الله بن محمد بن يوسف المقدسي (٧٣٧ هـ):

وهو شمس الدين، أبو محمد، النابلسي الحنبلي، إمام مسجد الحنابلة في نابلس، سمع الكثير، وكان كثير العبادة، حسن الصوت، عليه البهاء والوقار وحسن الشكل والسمت، كما وصفه ابن كثير، وقال عنه: «شيخنا الإمام العالم العابد»[2].

قرأ عليه ابن كثير كثيراً من الأجزاء الحديثية والفوائد في مدينة نابلس عند عودة ابن كثير من مدينة القدس، ولد سنة ٦٤٧ هـ، وتوفي يوم الخميس ٢٢ ربيع الآخر سنة ٧٣٧ هـ ودفن هناك[3].

١٤ـ مؤرخ الشام البِرْزَاليُّ (٧٣٩ هـ):

هو القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد، البرزالي الإشبيلي ثم

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٥٠، وانظر: شذرات الذهب ١/ ٢٣١، المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، إنباه الغمر ١/ ٣٩.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٧٩.

(٣) المرجع السابق، الفصول ص ٤٣.

الدمشقي، أبو محمد، علم الدين، الحافظ الكبير، المؤرخ، «أحد الأربعة الذين لا خامس لهم في هذه الصناعة». وأصله من إشبيلية، ومولده بدمشق، وزار مصر والحجاز وحلب وبعلبك، ولد سنة وفاة الشيخ أبي شامة سنة ٦٦٥ هـ، وألف كتاباً في «التاريخ» جعله صلة لتاريخ أبي شامة، وتفقه بالشيخ تاج الدين الفزاري، وولي تدريس الحديث بالنورية والنفيسية، وتولى مشيخة النورية ومشيخة دار الحديث بدمشق، وبلغ عدد مشايخه ثلاثة آلاف، وكان مفيد جماعة المحدثين على الحقيقة، ووقف كتبه، وعقاراً جيداً على الصدقات، ومات في الحج مُحرِماً في خُلَيْص (بين مكة والمدينة)، ونسبته إلى «بِرْزَالَة» من بطون البربر، وكان أصحابه من كل الطوائف يحبونه ويكرمونه، وكان له أولاد ماتوا قبله، وكتبت ابنته فاطمة صحيح البخاري في ثلاثة عشر مجلداً، فقابله لها، وأصبحت هذه النسخة أصلاً معتمداً عند الناس، قال الذهبي: «كان رأساً في صدق اللهجة والأمانة، صاحب سنة واتباع ولزوم الفرائض، خيراً ديِّناً متواضعاً حسن البشر...»، وسماه الذهبي «مؤرخ العصر». وتوفي سنة ٧٣٩ هـ عن أربع وسبعين سنة[١].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١٠/ ٣٨١، شذرات الذهب ٦/ ١٢٢، الدرر الكامنة ٣/ ٣٢١، البداية والنهاية ١٤/ ١٨٥، البدر الطالع ٢/ ٥١، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٥٠١، ذيل تذكرة الحفاظ ص ١٨، ٣٥٣، مجلة معهد المخطوطات العربية، المؤرخون الدمشقيون، المنجد ٢/ ١/ ١٠١، النجوم الزاهرة ٩/ ٣١٩، الأعلام ٦/ ١٧.

والبرزالي أستاذ ابن كثير في علم التاريخ خاصة، وكان كتاب البرزالي مصدراً أساسياً لابن كثير، كما سنرى، وترجم له ابن كثير، وأثنى عليه[1].

١٥ـ الحافظ أبو الحجاج المِزّيُّ (٧٤٢ هـ):

وهو يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الملك، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد، القضاعي الكلبي، المشهور بالمزّي، الحافظ للحديث، ومحدث الديار الشامية في عصره، وإمام الحفاظ، الشافعي.

ولد بالمعقلية بظاهر حلب، ونشأ بالمزة من ضواحي دمشق، وحفظ القرآن، وتفقه قليلاً، ومهر في اللغة والتصريف، وقرأ العربية، وتبحر في الحديث ومعرفة الرجال، وسمع بالشام والحرمين ومصر وحلب والإسكندرية وغيرها، وبلغ عدد شيوخه نحو ألف شيخ، وتولى عدة وظائف، واستلم دار الحديث الأشرفية بدمشق.

كان عظيم الرواية، لكنه قليل الإملاء، قليل الكلام مع التواضع والتودد إلى الناس والحياء والقناعة، وبقي متمتعاً بقواه حتى جاوز التسعين، وصنف كتباً عظيمة منها: «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» وكان أحفظ الناس للحديث، وأعرفهم بالرجال[2].

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٨٣، ١٨٥، الفصول ص ٤٣.

(٢) مرجع العلوم الأساسية ص ٢٧١، والمراجع المشار إليها في الهامش ١.

ولازم ابن كثير هذا الشيخ الكبير وانتفع به، وسمع عنه أكثر تصانيفه، وتخرج على يديه، ثم صاهره فتزوج ابنته، وصار قريباً منه في بيته، ومتأثراً به، وترجم له، ووصف يوم وفاته[1].

١٦ـ مؤرخ الإسلام الذهبي (٧٤٨ هـ):

هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، أبو عبد الله الذهبي، شمس الدين الدمشقي، الحافظ للحديث، المحقق، مؤرخ الإسلام والمسلمين، تركماني الأصل.

ولد في كفر بطنا من غوطة دمشق، وكان من أهل ميافارقين، طلب العلم وسمع الحديث في دمشق، ثم رحل إلى القاهرة والإسكندرية ومكة وغيرها من البلاد، ثم أقام بدمشق، وتصدر للتدريس بمواضع منها، وكف بصره قبل موته بسنوات.

وكان الذهبي متقناً لعلم الحديث، ومهر في رجاله، وعرف تراجم الرجال، وكتب التواريخ العظيمة، والمجامع المفيدة، حتى كان أكثر عصره تصنيفاً، ورغب الناس في كتبه، ورحلوا إليه بسببها،

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٩١، وانظر: البدر الطالع ١/ ١٥٣، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩، طبقات المفسرين ١/ ١١٠، المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨، إنباه الغمر ١/ ٣٩، الفصول ص ٤٣، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، الدارس ١/ ٣٦، تهذيب الكمال للمزي، مقدمة المحقق ١/ ٩ وما بعدها، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧.

وتداولوها قراءة ونسخاً وسماعاً، وهي تقارب المائة، منها «تاريخ الإسلام الكبير» ٣٦ مجلداً، و «سير أعلام النبلاء» ١٥ مجلداً، و «تذكرة الحفاظ» ٤ مجلدات[١].

وترجم له ابن كثير، فقال عنه: «الشيخ الحافظ الكبير، مؤرخ الإسلام، وشيخ المحدثين...، وقد ختم الله به شيوخ الحديث وحفاظه رحمه الله»[٢].

وكان ابن كثير معاصراً للذهبي، ولا شك أنه استفاد منه، وسمع الحديث منه، وإن لم تصرح المصادر بذلك، بل إن الذهبي رحمه الله تعالى ذكر ابن كثير في نهاية كتابه «تذكرة الحفاظ» ضمن الذين عاصرهم وسمع معهم الحديث وأثنى عليه، مما يدل على تواضعه، وتقديره له، فقال: «وسمعت مع الفقيه المفتي المحدث ذي الفضائل عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الشافعي... وله عناية بالرجال والمتون والتفقه، خرج وألف، وناظر وصنف، وفسر وتقدم»[٣]، ثم صرح الذهبي أن ابن كثير سمع منه، وأثنى عليه[٤].

١٧ـ هؤلاء أهم شيوخ ابن كثير، ولم يقتصر عليهم، بل أخذ عن

---

(١) مرجع العلوم الإسلامية ص ٢٧١ـ٢٧٢، وانظر المصادر المشار إليها ص ٢٧٢ هامش ١.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢٢٥.

(٣) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٥٠٨.

(٤) معجم محدثي الذهبي ص ٥٦.

الكثيرين، واستفاد حتى من معاصريه، وذكرت بعض المصادر بعض مشايخه، منهم بدر الدين محمد بن إبراهيم السويدي (٧١١ هـ) من سويداء حوران، الذي سمع الحديث وبرع في الطب، وكان أبوه رئيس الأطباء[١]، وصرح ابن كثير بشيخه العلامة الزاهد ركن الدين أبي يحيى زكريا بن يوسف البجلي الشافعي، نائب الخطابة، ومدرس الطيبية والأسدية، وكان يشتغل بالفرائض، وتوفي سنة (٧٢٢ هـ)[٢]، كما سمع ابن الرضي[٣]، كما عاصر ابن كثير العالم العلامة ابن قَيِّم الجوزية (٧٥١ هـ) وكان كل منهما تلميذاً محباً ومخلصاً لشيخهما ابن تيمية، وجاء في بعض المصادر أن ابن كثير تتلمذ على ابن القيم[٤]، وذكره ابن كثير باسم: «صاحبنا» وترجم له، وقال: «وكنت من أصحب الناس له، وأحب الناس إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه»[٥].

١٨ـ شمس الدين الأصفهاني (٧٤٩ هـ):

وممن سبقت الإشارة إليه أن ابن كثير قرأ الأصول على الشيخ

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٦٣، وانظر ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٠٣.

(٣) الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩، الفصول ص ٤٥، وجمع الدكتور مسعود الندوي أربعة وأربعين شيخاً (ابن كثير، حياته ص/ ي).

(٤) طب القلوب، لابن قيم الجوزية ص ٤١.

(٥) البداية والنهاية ١٤/ ٢٠٢، ٢٣٤، وانظر: مرجع العلوم الأساسية ص ٤٥٥ في ترجمة ابن القيم.

شمس الدين محمود بن عبد الرحمن الأصبهاني (٦٧٤ـ٧٤٩ هـ)، شمس الدين، أبو الثناء، الفقيه الشافعي، الأصولي، النحوي، الأديب المنطقي الكاتب، ولد بأصفهان سنة ٦٧٤ هـ، ونشأ بها واشتغل فيها بالعلم ومهر وتقدم في كثير من الفنون، وحج في سنة ٧٢٤ هـ ثم توجه إلى دمشق فظهرت فضائله، والتقى بتقي الدين بن تيمية الذي عظمه لما سمع كلامه، وكان يلازم الجامع الأموي للتدريس والتلاوة، ودرس بالمدرسة الرواحية، ثم استقدمه أمير مصر إليها فقدم إليها، وبنى له الأمير خانقاه بالقرافة وعينه شيخاً له، واشتهر أمره بمصر، وصنف المصنفات الكثيرة منها «التفسير الكبير» و «شرح مختصر ابن الحاجب» و «شرح منهاج البيضاوي في أصول الفقه» و «شرح الطوالع» للبيضاوي في أصول الدين، و «شرح كافية ابن الحاجب»، وتوفي بالقاهرة بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ ودفن بها[١]، وكان ابن كثير قد أخذ الأصول عليه[٢].

١٩ـ ولم يكتف ابن كثير رحمه الله تعالى بالسماع على مشايخ الشام، بل حصل على الإجازة بالرواية والحديث من علماء مصر، فأجاز له أبو الفتح الدبوسي، وعليٌّ بن عمر الواني، ويوسف الختني، وأبو موسى القَرافي، والحسيني. . . وغيرهم، وأجاز له من علماء

(١) انظر ترجمته في شذرات الذهب ٦/ ١٦٥، الدرر الكامنة ٥/ ٩٥، الأعلام ٨/ ٥٢، حسن المحاضرة ١/ ٥٤٥، الفتح المبين ٢/ ١٥٨.
(٢) طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧.

بغداد ابن الدواليبي البغدادي (٧٢٨ هـ)[١].

وهذه النبذة عن مشايخ ابن كثير تدل على مصادر تكوينه، وسعة ثقافته، واعتدال مزاجه، وسماحته وعدم التعصب لمذهبه، وتنوع معارفه في الفقه والحديث والرجال والتاريخ، مع السمات البارزة لهؤلاء العلماء بالبشاشة وسعة الصدر، ورحابة الوجه، وكثرة العطاء، والصبر على التدريس والعطاء، مما نلمس كثيراً من هذه الصفات في صاحبنا ابن كثير رحمه الله تعالى، مما يؤكد أهمية المعلمين، وأثر المشايخ والمدرسين والأساتذة على الطالب والتلميذ، ولذلك أوصى العلماء بوجوب الانتقاء والاختيار، لأن كثيراً من صفات الشيخ والأستاذ تنتقل إلى التلميذ مع العلم[٢].

ومما يتصل بالتكوين العلمي الرحلة في طلب العلم، سواء حصلت الرحلة في الصغر أم الكبر، وقد سافر ابن كثير إلى عدد من البلاد والمدن، ولكن لم تفصل الغاية منها، فمن ذلك سفره إلى القدس، ونابلس، وبعلبك، والقاهرة، ثم سفره إلى الحجاز سنة ٧٣١ هـ لأداء فريضة الحج في جمع كبير من علماء دمشق وأعلامها[٣].

---

(١) الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩، المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، الفصول ص٤٥، السيرة النبوية ١/ ٥، ذيل طبقات الحفاظ ص٣٦١، ابن كثير، حياته ص ٤٨ وما بعدها.

(٢) انظر عدداً آخر من شيوخ ابن كثير في الدراسة التي أعدها الدكتور مسعود الرحمن خان الندوي، بعنوان: ابن كثير، حياته ومؤلفاته ص ٣٧-٤٨.

(٣) ابن كثير، حياته ص ٥١-٥٤.

الفَصل الثالث

أعمال ابن كثير ونشاطه العلمي

كان وقت ابن كثير رحمه الله تعالى مشغولاً، وأعماله كثيرة، ولكنه كان عازفاً عن المناصب الرسمية، أو الاشتغال في الأعمال الحكومية، وكان منصرفاً بشكل كلي للناحية العلمية، ومتفرغاً للبحث العلمي.

وكان ذلك دَيْدَنَه في شبابه ونشأته، وفي مراحل تكوينه، ولما استوى على سوقه، وبلغ من العلم شأواً كبيراً، وحصَّل المستوى اللائق فيه، بقي ملازماً العلماء، ومستفيداً منهم، كشيخه المزّي الذي بقي مصاحباً له حتى وفاته، ومثل شيخه ابن تيمية، والحافظ الذهبي، وابن القيم، وغيرهم، وعكف على العلم والتعلم والتعليم، وحصر نفسه في المجال العلمي.

لذلك نرى ابن كثير رحمه الله تعالى قد تولى الأعمال التالية:

١ ـ الإقراء:

حفظ ابن كثير القرآن الكريم في صغره، وختمه وهو في السنة الحادية عشرة من عمره، وأتقن القراءة، وصار من القراء، ويظهر أثر

ذلك علمياً في كتابه «التفسير» وفيما كتبه في «فضائل القرآن» ولذلك عدَّه الداودي من القراء، وترجم له في طبقاتهم التي ألفها، ولكن ابن الجزري لم يترجم لابن كثير في طبقات القراء[1]، ثم تولى ابن كثير ـ عملياً ـ مشيخة الإقراء بمدرسة أم الصالح، كما سنفصله بعد قليل.

وصاحبنا الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى غير عبد الله بن كثير الداري المكي، من تابعي التابعين، وأحد القراء السبعة، المتوفى سنة ١٢٠ هـ[2].

٢ـ التحديث:

هذا جزء من عمل التدريس، ولكن يختص به بعض العلماء المعروفين بالحفظ والرواية، وممارسة التحديث، ويندر من يقوم بهذا العمل إلا الخواص المتخصصون به.

وكان ابن كثير رحمه الله تعالى حافظاً لحديث رسول الله ﷺ، وكان محدِّثاً، لأنه سمع عدداً كثيراً من المحدثين وأئمة الحفاظ في عصره في الشام ومصر، وأخذ الحديث سماعاً وإجازة، ثم مارسه، ووصف بأنه «الحافظ المحدث»، قال ابن حبيب: «وحدَّث

(١) انظر: عمدة التفسير، المقدمة ١/ ٢٤.
(٢) انظر كتابنا: مرجع العلوم الإسلامية ص ١٥٢.

وأفاد»[1]، وقال ابن تغري بردى: «وجمع وصنف، ودرَّس وحدَّث، وألف»[2].

ولم يكتف ابن كثير رحمه الله تعالى بالتحديث مباشرة لتلاميذه وسامعيه، بل لجأ إلى الإجازة بالحديث لكل من كان معاصراً له في حياته، قال ابن حجر: «وقد أجاز لمن أدرك حياته»[3].

٣ـ التدريس:

تولى ابن كثير رحمه الله تعالى التدريس، وهو العمل الأساسي له الذي أعطاه اهتمامه، واتصل به مع الناس، ونفع الله به التلاميذ والطلاب، وحقق الخير على يديه.

قال ابن تغري بردى عنه: «وجمع، وصنَّف، ودرَّس» ثم قال: «وأفتى ودرَّس»[4].

وقال تلميذه ابن حِجّي: «وما أعرف أني اجتمعت به، على كثرة ترددي إليه، إلا أخذت منه، أو إلا استفدت منه، وقد لازمته ست سنين»[5].

---

(١) إنباه الغمر ١/ ٣٩ـ٤٠، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢.

(٢) المنهل الصافي ٢/ ٤١٥.

(٣) إنباه الغمر ١/ ٤٠، وانظر: مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢.

(٤) المنهل الصافي ٢/ ٤١٥.

(٥) إنباه الغمر ١/ ٣٩، طبقات المفسرين ١/ ١١١.

وقال عنه شيخه مؤرخ الإسلام الذهبي: «ودرَّس الفقه»[1].

وقال تلميذه الحسيني: «وأفتى ودرَّس وناظر»[2]، وجاء في عبارة ابن حبيب: «وأطرب الأسماع بأقواله، وشنَّف»[3]، وقال الشوكاني: «وأفتى ودرَّس»[4].

وكان ابن كثير يدرِّس في الجامع الأموي تفسير القرآن العظيم، كما جاء في كلام ابن كثير أو كلام تلميذه قال: «وفي صبيحة يوم الأربعاء، الثامن والعشرين من شوال، سنة سبع وستين وسبعمائة حضر الشيخ العلامة عماد الدين بن كثير درس التفسير الذي أنشأه ملك الأمراء، نائب السلطنة الأمير سيف الدين منكلي بغا. . .، واجتمع القضاة والأعيان، وأخذ في تفسير الفاتحة، وكان يوماً مشهوداً، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعفة»[5]، وكان ذلك صباح يوم ٢٨ شوال سنة ٧٦٧ هـ، وألقى درساً علمياً حافلاً، وخصص الأمير منحة للطلاب الذين يحضرون الدرس[6].

---

(١) معجم محدثي الذهبي ص ٥٦، وانظر: المنهل الصافي ٢/ ٤١٦.
(٢) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨، وانظر: عمدة التفسير ١/ ٢٦.
(٣) مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، وانظر: عمدة التفسير ١/ ٢٧.
(٤) البدر الطالع ١/ ١٥٣.
(٥) البداية والنهاية ١٤/ هـ٣٢١، وانظر: الفصول ص ٧٠.
(٦) البداية والنهاية ١٤/ ٣٢١، ابن كثير، حياته ص ٦٩.

وهذا يدل على ممارسة ابن كثير للتدريس، وأنه استفاد منه الجم الغفير، والطلاب والعلماء، ولذلك يقول الأستاذ محمود رزق سليم: «وقعد للتدريس، فأخذ عنه كثيرون»[1].

وبدأ ابن كثير التدريس في المدرسة النجيبية المخصصة للشافعية بدمشق[2]، والتي نزل بها ابن كثير منذ قدومه إلى دمشق، وبدأ التدريس يوم الخميس ١١ جمادى الأولى سنة ٧٣٦ هـ، والغالب أنه بقي يسكنها ويدرس فيها إلى آخر عمره، مع أعماله الأخرى، وتوليه المشيخات كما سنذكر[3].

٤ـ مشيخة أم الصالح:

ولي ابن كثير رحمه الله تعالى مشيخة مدرسة أم الصالح، وذلك بعد وفاة شيخه مؤرخ الإسلام الذهبي سنة ٧٤٨ هـ[4]، ودرَّس فيها

---

(١) عصر سلاطين المماليك ٤/ ١٤٤.

(٢) المدرسة النجيبية مجاورة للمدرسة النورية وضريح نور الدين الشهيد من جهة الشمال في سوق الدقاقين المتفرع من شارع مدحت باشا بدمشق، وأقام بها ابن كثير منذ قدومه لدمشق سنة ٧٠٧ هـ، وتحولت إلى دار سكن بعد ذلك. (انظر: الدارس ١/ ٤٦٨، البداية والنهاية ١٣/ ٣٤٤، ١٤/ ١٧، ٤٦، ابن كثير، حياته ص ٦٣).

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ١٧٣، الدارس ١/ ٤٧٢.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٦، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧، طبقات المفسرين ١/ ١١١، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨.

ابن كثير، وحضر درسه الأول أعيان الفقهاء والقضاة، وكان الدرس «مشهوداً» كما يقول ابن كثير[1].

ومدرسة أم الصالح هي المدرسة الصالحية بدمشق، وتقع بتربة أم الصالح الملك، وحددها النعيمي فقال: «غربي الطيبة والجوهرية الحنفية، وقبلي الشامية الجوانية بشرق»[2]، ووصف ابن كثير (سنة ٧٤٨ هـ) شيئاً من ترجمة الصالح إسماعيل أبو الجيش بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر، وهو واقف تربة أم الصالح: «وقد كان الصالح رحمه الله ملكاً عاقلاً حازماً تتقلب به الأحوال أطواراً كثيرة...، وهو واقف التربة والمدرسة ودار الحديث والإقراء بدمشق، رحمه الله بكرمه»[3].

وعدد النعيمي من درس بالمدرسة الصالحية، منهم الفقيه شمس الدين ابن خطيب يبرود، ثم الإمام سعد الدين بن يوسف بن إسماعيل بن يونس النواوي (٧٢٩ـ٨٠٥ هـ) الذي قدم دمشق صغيراً، وقرأ على الشيخ عماد الدين بن كثير «علوم الحديث» الذي ألفه، وأذن له بالفتوى[4]، ثم ذكر النعيمي من تولى مشيخة الإقراء بمدرسة أم الصالح... إلى أن قال: «ثم وليها بعده الحافظ عماد

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٢٥.
(٢) الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣١٦.
(٣) البداية والنهاية ١٣/ ١٧٩، ١٨٠، وانظر: الدارس ١/ ٣١٦.
(٤) الدارس ١/ ٣٢٠.

الدين بن كثير، وقد تقدمت ترجمته. . .»[1]، وذكر محقق الكتاب أن هذه المدرسة بدمشق دُرِست وصارت منازل.

وهذا يؤكد الصلة المباشرة لابن كثير رحمه الله تعالى في إقراء القرآن الكريم، وممارسته لذلك، وتوليه مشيخة الإقراء، ولكن لم نعثر على خبر يحدد المدة التي مكثها ابن كثير في مشيخة الإقراء، والعادة أن يستمر الشيخ فيها حتى الوفاة.

٥ـ مشيخة دار الحديث:

ولي ابن كثير رحمه الله تعالى مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق، لكنه لم يستمر فيها طويلاً، فبقي مدة يسيرة، ثم أخذت منه[2].

وأغلب الظن أنه تولاها بعد سنة ٧٦٣ هـ، لفترة ثلاثة أسابيع تقريباً، وأنه كان أعلم العلماء بالحديث في دمشق في زمانه[3].

وكان في دمشق حوالي عشرين مدرسة للحديث التي تعتبر من مفاخر النهضة العلمية بدمشق، وكان لها دور عظيم ومكانة كبيرة في العالم الإسلامي، وعرف منها باسم دار الحديث مدرستان: دار الحديث البرانية في صالحية دمشق[4]، ودار الحديث الجوانية في وسط

---

(١) الدارس ١/٣٢٦، وانظر: السيرة النبوية، المقدمة ١/٥، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨.

(٢) الدارس ١/٣٦، طبقات المفسرين ١/١١١، طبقات الشافعية ٢/٢٣٨.

(٣) ابن كثير، حياته ص ٦٦، ٦٧، ٦٨.

(٤) دار الحديث الأشرفية البرانية، تقع بسفح قاسيون على حافة نهر يزيد، بناها=

دمشق، وهذه الأخيرة هي المشهورة إذا أطلقت، وتولى رئاستها كبارُ العلماء الأفذاذ، والمحدثين الحفاظ، الذين مهروا في علم الحديث دراية ورواية، وتسمى دار الحديث الأشرفية، وهي المعروفة الموجودة بالعصرونية بدمشق حتى الآن.

وحدد النعيمي مكان دار الحديث الأشرفية الجوانية فقال: «جوار باب القلعة الشرقي، غربي العصرونية، وشمالي القيمازية الحنفية»[1].

ونقل النعيمي أن الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل (من ملوك الدولة الأيوبية بمصر والشام ٥٧٦ـ٦٣٥ هـ) اشترى هذه الدار التي كانت للأمير قايماز بن عبد الله النجمي (٥٩٦ هـ) وبناها دار حديث، وبنى سكناً بجوارها للشيخ المدرس بها[2]، ونقل عن

= الملك الأشرف نفسه مظفر الدين موسى بن العادل للحافظ ابن الحافظ جمال الدين عبد الله بن عبد الغني المقدسي (٥٨١ـ٦٣٩ هـ) وقد تهدمت هذه الدار واغتصبت، فجعلت دوراً، ولم يبق منها إلا واجهتها (الدارس ١/ ٤٧) وانظر: مدارس الحديث في دمشق (الدارس ١/ ١٩ـ١٢٢، ٢/ ٢٩٨ـ٥٠٠).

(١) الدارس ١/ ٢٠ـ٣٦.

(٢) قال ابن كثير عنه: «باني دار الحديث الأشرفية وجامع التوبة وجامع جراح... وقد كان رحمه الله تعالى شهماً شجاعاً كريماً جواداً لأهل العلم، لاسيما أهل الحديث...، وقد بنى لهم دار حديث بالسفح، وبالمدينة للشافعية أخرى، وجعل فيها نعل النبي ﷺ الذي مازال حريصاً=

الذهبي أنه في سنة ٦٢٨ هـ، أمر الأشرف بعمل دار الأمير قايماز النجمي دار حديث، فتمت في سنتين، وجعل شيخها الشيخ تقي الدين بن الصلاح (٦٤٣ هـ) وأملى فيها الحديث، وسمع بها الملك الأشرف «صحيح البخاري»، ثم ذكر النعيمي من تولى مشيخة دار الحديث منهم شهاب الدين الصقلي، وعماد الدين الحرستاني (٦٦٢ هـ)، وشهاب الدين أبو شامة (٦٦٥ هـ)، ومحيي الدين النووي (٦٧٦ هـ)، وزين الدين الفارقي (٧٠٣ هـ)، وصَدْر الدين ابن الوكيل (٧١٦ هـ)، والكمال ابن الزملكاني (٧٢٧ هـ)، وهو شيخ ابن كثير، وكمال الدين الشريشي (٧١٨ هـ)، وجمال الدين المِزّي (٧٤٢ هـ)، وتقي الدين السُّبْكي (٧٥٦ هـ)[1].

ثم قال النعيمي: «وهذا آخر ما انتهى إلينا ممن ولي مشيخة دار الحديث هذه على الترتيب، ثم وليها جماعات أخر لم نتحقق الترتيب بينهم، فمنهم الحافظ العلامة عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. . .» وذكر ترجمته[2].

٦ـ مشيخة التنكزية:

قال الحسيني ـ تلميذ ابن كثير ـ رحمهما الله تعالى: «وولي مشيخة

= على طلبه. . .، ونقل إليها كتباً سنية نفيسة. . . وبنى. . .» البداية والنهاية ١٣/ ١٤٦ـ١٤٧.

(١) الدارس ١/ ٣٦.

(٢) الدارس ١/ ٣٦.

أم الصالح والتنكزية بعد الذهبي، وذكره الذهبي في مسودات «طبقات الحفاظ»[1].

وعرض النعيمي «دور القرآن والحديث معاً» وأن أول دار اسمها «دار القرآن والحديث التنكزية» وحدد مكانها، بدمشق في «شرقي حمام نور الدين الشهيد بسوق البزورية، وتجاه دار الذهب» وبين نشأتها من تنكز الملكي الناصري، وأنه كان نائب السلطنة، وأن المدرسة «جاءت في غاية الحسن، ورتب فيها الطلبة والمشايخ»، وبيّن النعيمي أسماء بعض العلماء الذين تولوا مشيخة التنكزية حتى سنة ٧٤٩ هـ، دون أن يذكر بقية من تولى مشيخة التنكزية بعد هذا التاريخ[2].

٧ـ الفتوى:

وهي الإخبار بالحكم الشرعي، والفتوى أهم واجبات الفقيه، وهي منزلق خطير للخطأ والضلال من جهة، لذلك ورد في الحديث الشريف: «أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار»[3]، أي أكثركم

---

(١) السيرة النبوية، المقدمة ١/٥، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨، وانظر: الفصول ص ٣٧.

(٢) الدارس ١/ ١٢٣، ١٢٧، وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى أن «نائب السلطان سيف الدين تنكز بنى دار الذهب بالبزورية، وبنى التنكزية، كما بنى دار حديث بالقدس، وخانقاه» (البداية والنهاية ١٤/ ١٣٣).

(٣) هذا الحديث رواه الدارمي (١/ ٦١ المقدمة، باب الفتيا وما فيها من الشدة) ورواه ابن عدي مرسلاً (كشف الخفا ١/ ٥١) وانظر كتاب: «أجرؤكم على=

جرأة وتسرعاً في الفتيا فهو الأسرع إلى النار، لأنه لا يقدر عاقبة عدم إصابته للحق، بسرعته وعدم ترويه، أو عندما تكون الفتوى لغير وجه الله تعالى، أو لبيان الباطل وتحريف الدين، أو مسايرة الناس والعوام والحكام والرؤساء، أو بسبب الجهل بأحكام الدين.

كما أن الفتوى ـ من جهة أخرى ـ منزلة رفيعة، وواجب ديني، فهي من مهمات الأنبياء والمرسلين أولاً، الذين بلغوا عن الله شرعه، وأخبروا الأمم بدين الله وأحكامه، وهي من واجبات العلماء الفقهاء ثانياً، لأن المطلوب منهم أن يبلغوا دين الله وحكمه، ويؤدوا الأمانة التي حملوها، وإلا وقعوا في خطر الخيانة والإثم، لما جاء في القرآن العظيم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٧]، وحذر القرآن الكريم من كتمان العلم والحق، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٩]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٤]، وأكد ذلك رسول الله ﷺ فيما رواه

= الفتيا أجرؤكم على النار» للدكتور علي أحمد السالوس.

أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عن علمٍ فكتمه أَلجمَه الله بلجامٍ من نارٍ يومَ القيامة»[١].

وحدد العلماء صفات المفتين، وبينوا شروط الفتوى وواجباتها وآدابها وسننها في كتب مستقلة[٢].

وكان ابن كثير رحمه الله تعالى قد حصَّل الفقه الإسلامي من المذهب الشافعي على شيخه برهان الدين الفزاري وغيره، وأتقن معرفة الأحكام، وصنف فيها، وكان يمارس الفتوى بالحق والعدل، والصدق والأمانة، والإخلاص، حتى تركت فتاويه أصداء كثيرة، وأطلق عليه شيخه الذهبي لقب «الفقيه المفتي»[٣]، بل كان ابن كثير رحمه الله تعالى يأذن للطلاب بالفتوى إذا نضج علمهم، كما جاء في ترجمة تلميذه سعد الدين النواوي (٨٠٥ هـ)[٤]، وكانت ترسل إليه الفتاوى من الحكام لبيان حكم الشرع فيها، كما سيمر.

---

(١) هذا الحديث صحيح رواه الإمام أحمد (٢/ ٢٦٣، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣، ٤٩٥) والحاكم (١/ ١٠١) وأبو داود (٢/ ٢٨٨ كتاب العلم، باب كراهية منع العلم) والترمذي (٧/ ٤٠٧ كتاب العلم، باب كتمان العلم) وابن ماجه (١/ ٩٧ المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه).

(٢) انظر: كتاب أعلام الموقعين لابن القيم، صفة الفتوى والمفتي والمستفتي لابن حمدان، الفتوى في الإسلام للقاسمي.

(٣) طبقات الحفاظ ٤/ ١٥٠٨.

(٤) الدارس ١/ ٣٢٠، وانظر: الفصول ص ٣٧، شذرات الذهب ٦/ ٣٢٦، ٧/ ٤٩، ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦٩، الضوء اللامع ٣/ ٢٥٤.

وقال عنه ابن حبيب: «وأطرب الأسماع بالفتوى، وشنَّف»[1]، وقال ابن تغري بردى والشوكاني: «وأفتى ودرَّس»[2]، وقال شيخه الذهبي: «درَّس الفقه وأفتى»[3]، وقال تلميذه الحسيني: «وأفتى ودرَّس وناظر»[4]، وقال ابن حبيب أيضاً: «وطارت أوراق فتاواه إلى البلاد»[5]، وذكر طاش كبرى زاده في ترجمة الشيخ الجزري تلميذ ابن كثير فقال: «أذن له بالإفتاء شيخ الإسلام أبو الفداء إسماعيل بن كثير ٧٧٤ هـ»[6]، وقال الدكتور الندوي: «كان ابن كثير من المفتين الكبار في عصره»[7].

وهذا يدل على تمكن ابن كثير رحمه الله تعالى بالفقه ومعرفة الأحكام الشرعية، وإخلاصه في علمه وعمله، وثقة الناس به، وأخذ الطلاب عنه الفقه والإذن بالفتوى، وتوجيه القضاة والحكام الفتوى له في القضايا المهمة والخطيرة[8]، كما سنرى في الفصل التالي.

---

(١) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، السيرة النبوية ١/ ٨.

(٢) المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، البدر الطالع ١/ ١٥٣.

(٣) المنهل الصافي ٢/ ٤١٦.

(٤) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨، وانظر: عمدة التفسير ١/ ٢٦.

(٥) إنباه الغمر ١/ ٣٩، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، جلاء العينين ص ٣٤.

(٦) مفتاح السعادة ٢/ ٥٥.

(٧) ابن كثير، حياته ص ١٥٠.

(٨) انظر: البداية والنهاية ١٤/ ٢٦١، ٣١٥، ٣١٧، ٣٠٧، ١٦٢.

٨ـ التأليف والتصنيف:

يظهر أن ابن كثير رحمه الله تعالى لم تشغله الأعمال السابقة عن هوايته الأولى في التأليف، فكان حريصاً على ذلك، ومتفرغاً في معظم الوقت للتصنيف، بعد أن ملك ناصيته، وحصل العلوم المختلفة، وتخصص في الحديث والتفسير والتاريخ والفقه، وبلغ شأواً كبيراً في النحو والأدب وعلوم العربية.

وكان ابن كثير رحمه الله تعالى قد توفرت فيه مؤهلات التأليف والتصنيف بدرجة عالية، فأنس به، وبذل فيه الجهد الكبير، وأعطاه ثمين الوقت، وأكب على التدقيق فيه والتمحيص، وقدم للبشرية إنتاجاً ثرّاً، وعلماً غزيراً، وكتباً نافعة مفيدة، أصبحت مرجعاً لطلاب العلم والمعرفة في عصره، واستمرت طوال القرون السبعة التي مضت، ولا تزال المصدر الرئيس في تخصصاتها إلى اليوم والمستقبل.

ولذلك كان ابن كثير مبرزاً في هذا المجال أكثر من غيره، وسوف نخصص فصلاً مستقلاً لمعرفة إنتاجه هذا في الباب الأول، ثم نفرد الباب الثاني كاملاً لدراسة شخصيته العلمية، وتحليل العلوم التي أتقنها وصنف فيها.

قال ابن حجر: «وسارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته»[1].

وقال ابن تغري بردى: «وجمع وصنف»[2].

وقال الشوكاني: «وقد انتفع الناس بمصنفاته، ولاسيما التفسير»[3].

وقال الزركلي: «تناقل الناس تصانيفه في حياته»[4].

وقال الأستاذ محمود رزق سليم: «وقد اشتغل بالتصنيف في التاريخ والتفسير والحديث والأحكام، وذاعت مؤلفاته في حياته، وانتفع بها الناس»[5].

ومما يؤكد ذلك، وأن كتب ابن كثير طارت في الأقطار الإسلامية ما ذكره ابن كثير في حوادث سنة ٧٦٣ هـ أن شاباً أعجمياً حضر من بلاد تبريز وخراسان، «ويزعم أنه يحفظ البخاري ومسلماً وجامع المسانيد والكشاف للزمخشري، وغير ذلك».

وامتحنه ابن كثير بحضرة قاضي القضاة الشافعي وجماعة من

---

(١) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠، وانظر: ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٦١-٣٦٢.

(٢) المنهل الصافي ٢/ ٤١٥.

(٣) البدر الطالع ١/ ١٥٣.

(٤) الأعلام ١/ ٣١٨.

(٥) عصر سلاطين المماليك ٤/ ١٤٤.

الفضلاء بقراءة مجالس من البخاري وغيره، ثم قال: «وفرح بكتابتي له بالسماع على الإجازة، وقال: أنا ما خرجت من بلادي إلا القصد إليك، وأن تجيزني، وذِكرُكَ في بلادنا مشهور»[1] مما يدل على أن كتابه «جامع المسانيد» وصل إلى أقصى المشرق في بلاد تبريز وخراسان، وأن الشباب هناك يحفظونه، أو يحفظون شيئاً منه[2].

٩ـ نظم الشعر:

ومن النشاط العلمي الذي نتج عن تحصيل ابن كثير لعلوم العربية أن نظم الشعر، ولكنه كان نظماً قليلاً، قال ابن العماد: «وينظم نظماً وسطاً»[3]، ونقل العلماء عنه بعض الأبيات، وفيها بعض الحكم، كقوله في خاتمة سنة ٧٦٨ هـ:

تمرُّ بنا الأيام تَتْرى، وإنّما نُساق إلى الآجال، والعينُ تَنْظُرُ
فلا عائدٌ ذلك الشبابُ الذي مضى ولا زائلٌ هذا المشيبُ المكدِّرُ
ومن بعد ذا فالعبد إمّا منعَّمٌ كريم، وإمّا بالجحيم يُسعَّرُ

وعقب ابن حجر رحمه الله تعالى على ذلك فقال: «ولو قال: فلا عائدٌ صفو الشباب، إلى آخره لكان أمتع»[4].

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٩٤ـ٢٩٥.

(٢) عمدة التفسير ١/ ٢٩.

(٣) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، وانظر: مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢.

(٤) إنباه الغمر ١/ ٤٠، وانظر: طبقات المفسرين ١/ ١١٢، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، التعريف بالمؤرخين ص ١٩٨.

وذكر العلامة خير الدين الزركلي إجازة بخط ابن كثير في بيت من الشعر، وهو:

أجزتهم ما قد سئلت بشرطه بكاتبه إسماعيل ابن كثير[(١)]

وكان شعر ابن كثير ضرباً من الرجز الذي عرف به الفقهاء، ولم يكن شعراً أدبياً، ويؤكد ذلك منظومته التي أتم فيها ذكر الخلفاء العباسيين بعد المستعصم بالله، وذكره لخلفاء الفاطميين، وخلفاء بني أمية[(٢)].

ولم يكن ابن كثير رحمه الله تعالى متحمساً لقريض الشعر، والتكلف له، أو التفرغ له، بل يعتبر صناعة الشعر عملاً يستوجب الاستغفار والتوبة، بدليل ما نقله عن قصيدة والده في الوَجْد والغزل والحب، ثم قال بعدها: «وعدتها ثلاثة وعشرون بيتاً، والله يغفر له ما صنع من الشعر»[(٣)].

بينما يحكم على قصيدة في النسب النبوي الشريف التي جاءت بمجرد كلام ونظم موزون، بأنها قصيدة بليغة[(٤)].

١٠ـ المكانة العلمية والاجتماعية:

تبوأ ابن كثير رحمه الله تعالى مكان الصدارة اجتماعياً وعلمياً،

---

(١) الأعلام ١/ ٣١٨ هامش.

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٨ـ٢١٠.

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ٣٢ـ٣٣، وانظر: الفصول ص ٢٢.

(٤) الفصول ص ٢٢، ٨٨.

وذلك لعلمه وفضله، ومواقفه وآرائه، وعدله واعتداله في النظر إلى الأمور والحكم عليها، ولذلك كان يُدعى مع عليّة القوم للأمور الهامة، والقضايا الخطيرة، ليشارك في المشاورة، ويبدي رأيه في الخلافات الجسيمة، كما يشارك في امتحان الطلبة في التخصصات العالية، لما له من مكانة علمية، واحترام شعبي واجتماعي ورسمي. ويمكننا أن نذكر بعض النماذج التي تؤيد ذلك وتكشف عن مكانة ابن كثير رحمه الله تعالى:

أ ـ امتحان الطلبة:

ونورد هنا النص الحرفي عن ابن كثير نفسه، فيقول في حوادث سنة ٧٦٣ هـ عن امتحان أحد الطلبة، تحت عنوان «أعجوبة أخرى غريبة»: «لما كان يوم الثلاثاء، العشرين من شعبان، دُعيت إلى بستان الشيخ العلامة كمال الدين بن الشريشني شيخ الشافعية، وحضر جماعة من الأعيان منهم الشيخ العلامة شمس الدين بن الموصلي الشافعي، والشيخ الإمام العلامة صلاح الدين الصفدي، وكيل بيت المال، والشيخ الإمام العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي من ذرية الشيخ أبي إسحاق الفيروزآبادي، من أئمة اللغويين، والخطيب الإمام العلامة صدر الدين بن العز الحنفي أحد البلغاء، وأحضروا نيفاً وأربعين مجلداً من كتاب «المنتهى» في اللغة للتميمي البرمكي، وقف الناصرية، وحضر ولد الشيخ كمال الدين بن الشريشني، وهو العلامة بدر الدين محمد، واجتمعنا كلنا عليه بها،

وأخذ كل منا مجلداً بيده من تلك المجلدات ثم أخذنا نسأله عن بيوت الشعر المستشهد عليها بها، فينشر كلاً منها، ويتكلم عليه بكلام مبين مفيد، فجزم الحاضرون والسامعون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة، ولا يشذ عنه إلا القليل الشاذ، وهذا من أعجب العجائب، وأبلغ الإعراب»[1].

وامتحن ابن كثير سنة ٧٤٧ هـ صبياً عمره ست سنين، كان يحفظ القرآن الكريم، ويصلي بالناس في شهر رمضان، امتحنه فوجده يجيد الحفظ والأداء، وهذا من أغرب ما يكون نظراً لسن الصبي[2].

ب ـ المشاورة القضائية:

وكان ابن كثير يُطلَب للمشاورة القضائية في الأمور الجسيمة والخطيرة، لذلك يقول في حوادث ٧٤١ هـ: «وفي يوم الثلاثاء سلخ شهر شوال، عقد مجلس في دار العدل بدار السعادة، وحضرته يومئذ، واجتمع القضاة والأعيان على العادة، وأحضر يومئذ عثمان الدكاكي قبحه الله تعالى، وادعي عليه بعظائم من القول، لم يؤثر مثلها عن الحلاج. . . ، وقامت عليه البينة بدعوى الألهية لعنه الله، وأشياء أخر من التنقيص بالأنبياء، ومخالطة أرباب الريب. . . من الاتحادية عليهم لعائن الله، ووقع منه في المجلس من إساءة الأدب على

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٩٥ـ٢٩٦، وانظر: الفصول ص ٥٨.
(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢٢٠، وانظر: ابن كثير، حياته ص ٦٩.

القاضي الحنبلي، وتضمن ذلك تكفيره من المالكية أيضاً، فادعى أن له دوافع وقوادح في بعض الشهود، فرد إلى السجن مقيداً مغلولاً مقبوضاً. . .» إلى آخر القصة في الحكم عليه بقتله لردته وكفره وفسقه، وتنفيذ حكم القتل. . .، إلى أن قال ابن كثير: «وكنت مباشراً لجميع ذلك من أوله إلى آخره»[1].

جـ ـ مجلس كبار العلماء:

وكان ابن كثير يحضر مجالس كبار العلماء في عصره، مما يدل على مكانته العلمية والاجتماعية، فيقول عن حوادث سنة ٧٦٦ هـ وتحت عنوان: «عقد مجلس بسبب قاضي القضاة تاج الدين السبكي»: «ولما كان يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الأول عقد مجلس حافل بدار السعادة بسبب ما رمي به قاضي القضاة تاج الدين الشافعي ابن قاضي القضاة السبكي، وكنت ممن طلب إليه، فحضرته فيمن حضر، وقد اجتمع فيه القضاة الثلاثة، وخلق من المذاهب الأربعة، وآخرون من غيرهم، بحضرة نائب الشام سيف الدين منكلي. . .، وكان قد كتب فيه محضران متعاكسان، أحدهما له، والآخر عليه. . .» واستمر النظر في القضية، واستمر إلى الشهر التالي، وحضره ابن كثير، وفيه تفاصيل انتهت بالصلح[2].

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٨٩ـ١٩٠، وانظر: الفصول ص ٥٨.
(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، وانظر: الفصول ص ٥٧.

ويقول ابن كثير في حوادث سنة ٧٦٥ هـ: «وفي الرابع عشر منه (جمادى الآخرة سنة ٧٦٥ هـ) عقد بدار السعادة مجلس حافل، اجتمع فيه القضاة الأربعة، وجماعة من المفتين، وطُلبت فحضرت معهم، بسبب المدرسة التدمرية، وقربة الواقف، ودعواهم أنه وقف عليهم الثلث، فوقف الحنبلي في أمرهم، ودافعهم عن ذلك أشد الدفاع»[1]، وأمثلة ذلك كثيرة مبثوثة، وسجلها ابن كثير بنفسه في كتابه الشهير.

وكل ذلك يبين جانباً من المكانة الرفيعة التي وصلها ابن كثير، ومواقفه السديدة، كما سنبين ذلك في الفصل التالي.

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٣٠٧.

الفَصل الرابع

صفات ابن كثير

لا نريد في الكلام عن صفات ابن كثير الحديث عن صفاته الجسدية، فهي أمور فطرية من خلق الله تعالى، ولا شأن للإنسان بها، ولا فائدة من معرفتها، لأنه لا جدوى من بيانها، ولا يمكن التأسي بها.

والغالب أن خِلقة ابن كثير رحمه الله تعالى كانت كاملة، فلم يرد في المصادر شيء خاص فيها.

لكن كمال الخِلقة تؤثر بطريق غير مباشر على نفسية صاحبها من جهة، وتساعده على أداء مهماته الجسدية والمعنوية من جهة ثانية بالإقبال عليه، وعدم النفور منه، ولذلك ورد في الدعاء المأثور: «اللهمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقي فأَحْسِنْ خُلُقي»[1].

والمراد في هذا الفصل التذكير بصفات ابن كثير ذات التأثير المباشر في حياته الخاصة، وعلى علمه، ومواقفه، وأثرها الإيجابي في نفوس

---

(١) رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً (٤٠٣/١) وعن عائشة مرفوعاً (٦٨/٦، ١٥٥).

الآخرين، سواء أكانت هذه الصفات المَعْنوية خَلْقية أم خُلُقية[1].

ولم تذكر كتب التاريخ والتراجم شيئاً مفصلاً على خِلْقَة ابن كثير، وصفاته الجسدية، ولكن وصف مشايخ ابن كثير، ومعاصروه وتلاميذه، والمترجمون لحياته جانباً طيباً من صفاته المعنوية الخَلْقية والمكتسبة، مع الاتفاق على كونه ذكياً لامعاً، وعالماً علامة، وشخصية مرغوبة ومحبوبة.

١ ـ الحفظ:

يظهر أن الله تعالى وهب ابن كثير ذاكرة ممتازة، وحافظة متميزة، وموهبة متفوقة، فكان قادراً على حفظ العلوم، والمتون، واكتناز المعلومات، وظهر أثر ذلك في مصنفاته.

فقد ذكرنا سابقاً أن ابن كثير رحمه الله تعالى ختم القرآن الكريم وحفظه، وهو في الحادية عشرة من عمره، وصرح بنفسه على ذلك.

وحفظ «التنبيه» في الفقه الشافعي، وعرضه سنة ثماني عشرة، وحفظ «مختصر ابن الحاجب» في أصول الفقه[2].

---

(١) روى أبو داود عن رافع بن مكيث، وكان ممن شهد الحديبية مع النَّبي ﷺ، أن النَّبي ﷺ قال: «حُسْن الملكة يُمْن، وسوء الخُلُق شؤم» (سنن أبي داود ٢/ ٦٣٣ كتاب الأدب، باب حق المملوك) والملكة بفتحات: أي حسن الصنيع إلى المماليك وغيرهم يؤدي إلى اليمن والبركة، كما أن سوء الملكة يؤدي إلى الشؤوم والهلكة.

(٢) إنباه الغمر ١/ ٣٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، طبقات الشافعية . . =

وحفظ ابن كثير المتون المتنوعة في العلوم، ولذلك وصفه عدد من العلماء بحفظ المتون[1]، فقال شيخه الذهبي: «ويحفظ جملة صالحة من المتون والرجال وأحوالهم، وله حفظ ومعرفة»[2].

وقال عنه تلميذه ابن حِجّي: «أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ورجالها، وأعرفهم بجَرْحها وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك»[3]، وقال ابن حِجّي أيضاً عنه: «يحفظ «التنبيه» إلى آخر الوقت»[4].

وقال الداودي عنه: «وأقبل على حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد والعلل والرجال والتاريخ حتى برع في ذلك وهو شاب»[5].

وقال الدكتور المنجد: «كان جيد الحفظ لمتون الأحاديث»[6].

ولا شك أن هذه الصفة «الحفظ» مع الصفة التالية «الاستحضار» هما من أهم صفات المحدثين والحفاظ، ومن أشد الصفات الخَلْقية

= ٢/ ٢٣٧، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢.

(١) المراجع السابقة.

(٢) معجم محدثي الذهبي ص ٥٦، وانظر: المنهل الصافي ٢/ ٤١٦:

(٣) طبقات المفسرين ١/ ١١١، الدارس ١/ ٣٦.

(٤) طبقات المفسرين، المرجع السابق، الدارس ١/ ٣٧.

(٥) طبقات المفسرين ١/ ١١٠، وانظر: السيرة النبوية ١/ ٧.

(٦) مجلة معهد المخطوطات العربية ٢/ ١/ ١١٥، بحث «المؤرخون الدمشقيون».

ضرورة لهذا العلم الفريد الذي يعتمد على النقل والرواية، ويحتاج إلى قدرة الحفظ، وملكة الاستحضار، كما أن هاتين الصفتين ذواتا أثر كثير ومفيد في التأليف والتصنيف، علماً بأن ابن كثير لم يكن مجرد ناقل للنصوص الأخرى، بل كان يتصرف فيها، ويصيغ العبارات والجمل من بنات أفكاره، وأسلوبه الخاص، كما سنرى في الباب الثاني.

٢ـ الاستحضار:

اقترنت صفة الحفظ عند ابن كثير بميزة أخرى تقارنها وتكملها، وهي كثرة الاستحضار، مما يدل على المنحة الإلهية له بقوة الذاكرة، وقلة النسيان، وهو من أعظم المواهب الإلهية، وأكبر ميزة للعالم والمصنف والفقيه والمحدث.

لذلك كان ابن كثير رحمه الله تعالى يستحضر المتون، والكتب، والعلوم، حتى لفت نظر المحققين المحْدثين في طريقة ابن كثير في التصنيف، فهو ينقل من مصادر عدةٍ، ولكن يضع المعلومات بصيغته وأسلوبه الخاص، مما يرجح أنه كان يكتب ويصنف من ذاكرته وحافظته، ويتصرف بذلك حسب مقتضى الحال والمقام.

لذلك يقول الدكتور مصطفى عبد الواحد، عن منهج ابن كثير وأسلوبه في «السيرة النبوية» وهو قسم من كتابه «البداية والنهاية»: «فإذا تتبعنا نقول ابن كثير عن غيره وجدنا فيها ظاهرة عجيبة . . . هي أنه يكاد لا يلتزم نص أي شيء ينقله، فنقوله عن ابن إسحاق أغلبها

بالمعنى. . .، وكذلك نجد روايات ابن كثير للأحاديث تختلف بعض الاختلاف عما في أيدي الناس من الكتب التي ينقل ابن كثير عنها».

ويعلل الدكتور مصطفى عبد الواحد ذلك فيقول: «وحين نقف أمام هذه الظاهرة نبحث عن أسبابها، فإن هناك أحد احتمالين: الأول: إما أن يكون ابن كثير، وهو الإمام الحافظ المتقن كان يعتمد على حفظه وروايته، ولا ينقل من النسخ المتداولة. . .»[1].

ويصفه ابن العماد، فيقول: «كان كثير الاستحضار، قليل النسيان، . . . وكان يستحضر التنبيه، ويكرر عليه إلى آخر الوقت»[2]، وقال ابن حجر: «كان كثير الاستحضار، قليل النسيان»[3]، وقال أيضاً: «كان كثير الاستحضار»[4]، وقال عنه تلميذه ابن حجي: «وكان يستحضر كثيراً من الفقه والتاريخ، قليل النسيان»[5].

٣ـ الفهم الجيد:

هذه الصفة من المنح الإلهية للإنسان، ومن التوفيق الرباني له، وتتأثر بالعوامل المكتسبة عن طريق الإخلاص، والتقصي،

---

(١) السيرة النبوية، المقدمة ١/ ١٥، ١٦.
(٢) شذرات الذهب ١/ ٢٣١، وانظر: مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، السيرة النبوية ١/ ٨، جلاء العينين ص ٣٤.
(٣) إنباه الغمر ١/ ٣٩.
(٤) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠، وانظر: ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١.
(٥) طبقات المفسرين ١/ ١١١، وانظر: طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧، الدارس ١/ ٣٧.

والدراسة، والاستيعاب، والاجتهاد، وتحري الدقة العلمية، مما تساعد صاحبها ـ مع فضل الله تعالى وتوفيقه ـ إلى الفهم الجيد، والإدراك الصحيح، والاستنتاج المقبول.

وهذا ما تحلى به ابن كثير رحمه الله تعالى في الجوانب الفطرية والمكتسبة، ويؤيده ما أكده العلماء فيه، ويبرهن عليه ما وصل إليه من آراء واجتهادات وترجيحات في كتبه المعتمدة، وأصبحت صفة له.

لذلك يقول ابن العماد عنه بأنه: «جيد الفهم»[1]، وقال ابن حجر: «كان... جيد الفهم»[2]، وقال تلميذه ابن حِجّي: «وكان فقيهاً جيد الفهم، صحيح الذهن»[3].

٤ـ خفة الروح:

وهذه صفة شائعة على الألسنة في عصرنا الحاضر، وتعتبر من الصفات الحسنة للإنسان عامة، ومن عوامل التفوق والنجاح في التدريس والوعظ خاصة، وتدل على سماحة النفس، والاهتمام بالطلاب، والتخفيف عنهم، والترويح في التدريس.

---

(١) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، وانظر: مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، السيرة النبوية ١/ ٨.

(٢) إنباه الغمر ١/ ٣٩.

(٣) طبقات المفسرين ١/ ١١١، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٨.

لذلك وصف المؤرخون ابن كثير رحمه الله تعالى بأنه كان «حسن المفاكهة»[1].

٥ـ الالتزام بالحديث والسنة:

من صفات ابن كثير أنه كان حريصاً على التزام السنة، والدعوة إلى اتباع السلف، وهو ما يظهر من مراجعة مؤلفاته وكتبه، ولا غرابة في ذلك فهو المحدث الحافظ لأحاديث رسول الله ﷺ، مع العقل النيِّر، والتحرر من العادات الباطلة والأعراف الفاسدة، والبدع والخرافات، ويؤكد ذلك أن أسرة ابن كثير رحمه الله تعالى شغفت بالحديث، وبرزت فيه، وعكفت عليه دراية ورواية، وأنه تتلمذ على الحفاظ وأئمة الحديث كالمِزّي والذهبي، ثم كان متبعاً ومتأثراً بشيخ الإسلام ابن تيمية الذي رفع لواء الدعوة لاتباع الكتاب والسنة، ومحاربة البدع والخرافات والأوهام.

وكان ابن كثير رحمه الله تعالى يحارب البدع، ويدعو إلى تركها، ويساهم في إنكارها، ويفرح لإبطالها، ويسجل هذه المشاعر والعواطف والمبادىء في كتبه ومصنفاته، ولذلك قال مهللاً ومغتبطاً بمناسبة إبطال بعض هذه الضلالات، فقال في سنة ٧٥١ هـ: «ومن العجائب والغرائب التي لم يتفق مثلها، ولم يقع من نحو مائتي سنة

---

(١) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠، وانظر: السيرة النبوية ١/ ٧.

وأكثر، أنه بطل الوقيد[١] بجامع دمشق (الأموي) في ليلة النصف من شعبان، فلم يزد في وقيده قنديل واحد على عادة لياليه في سائر السنة ولله المنة، وفرح أهل العلم بذلك، وأهل الديانة، وشكروا الله تعالى على تبطيل هذه البدعة الشنعاء التي كان يتولد بسببها شرور كثيرة بالبلد، والاستيجار بالجامع الأموي، وكان ذلك بمرسوم السلطان الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون خلد الله ملكه، وشيد أركانه، وكان الساعي لذلك بالديار المصرية الأمير حسام الدين أبو بكر بن التجيبي بيَّض الله وجهه، . . . وقد كنت رأيت عنده فتيا عليها خط الشيخ تقي الدين بن تيمية، والشيخ كمال الدين الزملكاني، وغيرهما، في إبطال هذه البدعة، فأنفذ الله ذلك، ولله الحمد والمنة، وقد كانت هذه البدعة قد استقرت بين أظهر الناس من نحو خمسين وأربعمائة، وإلى زماننا هذا، وكم سعى فيها من فقيه وقاض ومفت وعالم وعابد وزاهد ونائب سلطنة وغيرهم، ولم ييسر ذلك إلا في عامنا هذا، والمسؤول من الله إطالة عمر هذا السلطان، ليعلم الجهلة الذين استقر في أذهانهم أنه إذا أبطل هذا الوقيد في عام يموت سلطان الوقت، وكان هذا لا حقيقة له، ولا دليل عليه إلا مجرد الوهم والخيال»[٢].

وهكذا كان يتتبع البدع، ويتألم لوجودها، ويسعى لإبطالها،

---

(١) الوقيد والوِقاد والوَقود: ما توقد به النار وتشعل.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢٣٥.

ويهلل لإلغائها، وكان يكشف زيفها وبطلانها، وتكرر مثل هذه العواطف والمبادىء في مناسبات عدة، اكتفينا بنبذة منها، ومن يتتبع كتابه «البداية والنهاية» وغيره يجد الكثير.

٦ـ الخلق والفضيلة والموضوعية:

كانت أخلاق ابن كثير رحمه الله تعالى حميدة، ويلتزم الفضائل والقيم، وسعة الصدر، والحلم، والصداقة المخلصة، والوفاء لأصدقائه، والتقدير لشيوخه، فقد ترجم لعدد كبير منهم في تاريخه «البداية والنهاية» وأثنى عليهم خيراً، وعدَّد مناقبهم، وأثبت فضائلهم، واعترف بالأخذ عن الأساتذة، وحسن الصحبة للزملاء والمعاصرين، ويظهر ذلك في صفحات عدة من الجزء الرابع عشر من كتابه الذي يغطي أحداث القرن الثامن الهجري، وتراجم الفضلاء والعلماء والقضاة وغيرهم في هذا الجزء.

فمن ذلك أنه ترجم لمعاصره شمس الدين بن العطار (٧٦٥ هـ) وقال عنه: «صاحبنا» وأثنى عليه، وذكر فضائله، ثم قال بعد أسطر: «وفي يوم الأحد حادي عشر صفر (٧٦٥ هـ) درَّس بالمدرسة الفتحية صاحبنا الشيخ عماد الدين إسماعيل بن خليفة الشافعي، وحضر عنده جماعة من الأعيان والفضلاء»[١].

وسوف تظهر هذه الصفة الحميدة في مواقفه التي سنعرضها في الفقرة التالية.

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٣٠٥.

٧ـ مواقف ابن كثير:

لم يكن ابن كثير رحمه الله تعالى منعزلاً عن المجتمع وقضاياه وأحداثه اليومية، ولم يقبع في منزله، أو ينزوي في مسجده ومدرسته، بل كان يشارك في مجريات الأمور، التي هي المحك الحقيقي للإنسان، فيظهر معدنه، وتنكشف خباياه، ويتحدد موقعه، ويمتحن بها الرجال، وتسجل هذه المواقف لتبقى في ذاكرة الأيام، ويتم بها التقييم والحكم.

وكان ابن كثير رحمه الله تعالى يبين حكم الشرع في الأحداث، مستفيداً من مكانته العلمية والاجتماعية والشعبية والرسمية، فكان موضع الاحترام والتقدير من الناس والعلماء، ويتمتع باحترام الحكام وثقتهم دون أن يجاملهم على حساب الحق، أو يتملق إليهم بطلب منصب، فكان الجميع يحرصون على مشاركته، ويتطلعون إلى إبداء رأيه، ويقفون عند نصحه وتوجيهه.

والأمثلة على ذلك كثيرة، نجتزىء نماذج منها:

أ ـ موقفه من أهل الذمة:

أهل الذمة هم المواطنون غير المسلمين، القاطنون في أرض الدولة الإسلامية، وهم من رعايا الدولة الإسلامية، ولهم حقوقهم وعليهم واجباتهم كالمسلمين، ولهم عهد الله وذمته في الحماية والأمن وممارسة شؤون الحياة، بما نص عليه القرآن الكريم، والأحاديث الكثيرة،

وفصله الفقهاء بإسهاب لا مجال لعرضه هنا.

وقد يخطىء مسلم في حق الذميين، وقد يخطىء ذمي في حق المسلمين، فيكون ذلك ذريعة لإثارة التعصب الديني، وكثيراً ما تعبث الأيدي الخارجية لإفساد العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة كما حدث في الحروب الصليبية، وفي فتنة لبنان عام ١٨٦٠ م بتحريض فرنسا، وفي العصر الحاضر في لبنان أيضاً وفي مصر وغيرهما، ويغيب العقل أولاً، ويهمش جانب الدين ثانياً، وتطمس الأحكام الشرعية ثالثاً، وتظهر الغوغاء ودعاة الثأر والفتن الطائفية والانتقام، وتكون الضحية الأولى الأبرياء والأطفال والنساء والغافلين عن المؤامرات والأحداث، مما يندى له الجبين، ويبرأ منه الدين.

وهنا يظهر الدعاة والعلماء والفقهاء والمصلحون لرد الحق إلى نصابه، وإخماد نار الفتنة، ومنع الثأر، وحماية الأبرياء، وتحكيم العقل والدين في الأمور، ليعاقب المسيء والمذنب، ويمنح الباقون الطمأنينة والأمن على أرواحهم وأنفسهم وأموالهم.

ويطل علينا ابن كثير رحمه الله تعالى بموقفه المعتدل، الحيادي، الإصلاحي، الداعي إلى التزام الشرع والدين، فيؤرخ في حوادث سنة ٧٦٧ هـ أن الفرنج اعتدوا على مدينة الإسكندرية، فصدر المرسوم السلطاني بالانتقام من نصارى الشام، ومصادرة أموالهم، قصاصاً من الفرنج، فأعلن ابن كثير بطلان ذلك، وأنه مخالف للشرع، ولا

يجوز تطبيقه، فقال في تفصيل القصة تحت عنوان: «استيلاء الفرنج لعنهم الله على الإسكندرية»:

«ووردت الأخبار بما وقع من الأمر الفظيع بمدينة الإسكندرية من الفرنج لعنهم الله، وذلك أنهم وصلوا إليها في يوم الأربعاء، الثاني والعشرين من شهر الله المحرم، فلم يجدوا بها نائباً ولا جيشاً، ولا حافظاً للبحر ولا ناصراً، فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار بعد ما حرقوا أبواباً كبيرة منها، وعاثوا في أهلها فساداً، يقتلون الرجال، ويأخذون الأموال، ويأسرون النساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير المتعال...» ثم قال:

«ولما بلغت الأخبار إلى أهل دمشق شق عليهم ذلك جداً...، وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية إلى نائب السلطنة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يؤخذ منهم ربع أموالهم لعمارة ما خرب من الإسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج، فأهانوا النصارى، وطُلبوا من بيوتهم بعنف، وخافوا أن يقتلوا، ولم يفهموا ما يراد بهم، فهربوا كل مهرب، ولم تكن هذه الحركة شرعية، ولا يجوز اعتمادها شرعاً، وقد طُلبت يوم السبت، السادس عشر من صفر إلى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة، وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ بعد الفراغ من لعب الكرة، فرأيت منه أنساً كثيراً، ورأيته كامل الرأي والفهم، حسن العبارة، كريم المجالسة، فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده في النصارى، فقال: إن بعض فقهاء مصر

أفتى للأمير الكبير بذلك، فقلت له: هذا مما لا يسوغ شرعاً، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون إلينا الجزية، ملتزمين بالذلة والصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد ـ الفرد ـ فوق ما يبذلونه من الجزية، ومثل هذا لا يخفى على الأمير. . .، فجعل يعجبه هذا جداً، وذكر أن هذا كان في قلبه، وأني كاشفته بهذا، وأنه كتب به مطالعة إلى الديار المصرية. . .»[1].

ب ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وهذا من المبادىء الإسلامية الرشيدة في الدعوة والنصح والإرشاد، والتكافل والتناصح بين أفراد المجتمع والأمة، وهو واجب عيني على كل مسلم قادر مستطيع أن يقوم به، لحديث رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[2].

ويتأكد واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الدعاة والعلماء والمصلحين، ثم على الحكام والمسؤولين، وكان ابن كثير رحمه الله تعالى يعرف واجبه في هذا الجانب الخطير، ويؤدي حقه في

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٣١٤ـ٣١٥، عمدة التفسير ١/ ٣٢ وما بعدها.

(٢) هذا الحديث رواه مسلم (٢/ ٢٢ كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان) وأحمد (٣/ ٩، ٢٠، ٤٩، ٥٤) وأصحاب السنن الأربعة عن أبي سعيد الخدري (الفتح الكبير ٣/ ١٩٢).

مرضاة الله تعالى للحاكم والمحكومين، والشعب وسائر الرعية، لا يبتغي بذلك إلا الأجر والثواب، ومرضاة الله تعالى، ولا يخش في الله لومة لائم، فيقول الحق، ويقرر الشرع، ويؤدي الأمانة، ويبلغ حكم الله تعالى في جميع الظروف والأحوال، ولو كان الأمر يتعلق بشؤون الحكم، والخلاف بين الأمراء الذين يحاولون أن يتحصنوا بفتوى كبار العلماء، ويجعلونها ذريعة لتحقيق مآربهم، وخاصة إذا لم يتنبه الفقيه المفتي إلى مجريات الأمور ومنعكساتها.

ففي حوادث سنة ٧٦٢ هـ جاءت لابن كثير فتيا من نائب السلطنة بدمشق سيف الدين بيدمر الذي حاول أن يتحصن بقلعة دمشق، ويرفض العزل الذي جاءه من أتابك مصر الأمير سيف الدين يَلْبُغا مُدبِّر الدولة بها، فعرف ابن كثير مقاصد الأمير في فتياه، وما له من مآرب وأطماع خاصة، فأجابه بالحق والعدل الذي لا يخرج عن حدود الشرع، ولا يعرضه للأذى، فقال ابن كثير رحمه الله تعالى:

«وجاءتني فتيا صورتها: ما تقول السادة العلماء في ملك اشترى غلاماً فأحسن إليه وأعطاه وقدَّمه، ثم وثب على سيده فقتله، وأخذ ماله، ومنع ورثته منه، وتصرف في المملكة، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله، فهل له الامتناع ؟ وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهيداً أم لا ؟ وهل يثاب الساعي في خلاص حق ورثة الملك المقتول من القصاص والمال ؟ أفتونا مأجورين».

«فقلت للذي جاءني بها من جهة الأمير: إن كان مراده خلاص

ذمته فيما بينه وبين الله تعالى فهو أعلم بنيته في الذي يقصده، ولا يسعى في تحصيل حق معين إذا ترتب على ذلك مفسدة راجحة على ذلك، فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقه، وإن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوى بها في جمع الدولة والأمراء عليه، فلابدَّ أن يكتب عليها كبار القضاة والمشايخ أولاً، ثم بعد ذلك بقية المفتين بطريقه، والله الموفق للصواب»[1].

جـ ـ إنصاف الخصوم:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٢]، وقال عز وجل: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٥] والعدل أهم مقاصد الشريعة، وهو إعطاء الحق لصاحبه، ولو كان قريباً، أو بعيداً، ولو كان عدواً، فالعدل واجب وفرض إسلامي، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٥/ ٨].

والعدل مطلوب من الحكام والقضاة ومن كل ذي ولاية وسلطة مهما تنوعت واختلفت وتفاوتت درجتها، وذلك بإنصاف الناس، وحتى الخصوم، من النفس، وحينئذ يصبح الإنسان من السابقين إلى ظل الله تعالى، لما رواه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها، أن

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٨١ـ٢٨٢، وانظر: عمدة التفسير ١/ ٢٩، الفصول ص ٦٣.

رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل الله عز وجل ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «الذين إذا أعطوا الحق قبلوا، وإذا سُئِلُوه بَذَلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم»[1] وروى مسلم وأحمد وغيرهما عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يَعْدِلون في حُكْمِهِم وأَهْلِهم وما وُلُّوا»[2].

والعدل من الفضائل، ومناقب الإنسان، وخاصة إذا كان الأمر مع الخصم، فهو أعلى درجات العدل بأن ينصف الإنسان خصمه من نفسه، وهذه المرتبة العليا لا يبلغها إلا القلة، ولذلك تعتبر من الصفات الحميدة، والأخلاق الفاضلة الكريمة، وتدل أن صاحبها بلغ رتبة عالية من تطبيق أحكام الشرع وآدابه، ومراقبة الله تعالى في ذلك، حتى يجاهد نفسه فيخضعها للحق، ويقف بها عند جادة الصواب، ولا يستسلم لهواه وأهوائه، وعلى وجه الخصوص إذا وقع الخصم في الشك والتهمة، وتحامل عليه الناس، ودعي الإنسان ليقضي في أمره، ويحكم عليه، فهنا تتسامى النفس الأبية المؤمنة المخلصة لتنطق بالحق والعدل، ولا تنتقم لذاتها، أو تتحامل عليه.

---

(١) مسند الإمام ٦/ ٦٧، ٦٩.

(٢) صحيح مسلم (١٢/ ٢١١ كتاب الإمارة، باب فضيلة الأمير العادل) مسند أحمد ٢/ ١٦٠، سنن النسائي ٨/ ١٩٥ كتاب آداب القضاة. باب فضل الحاكم العادل في حكمه.

وهذا ما حصل مع الشيخ ابن كثير رحمه الله تعالى في ترجمته لكثير من خصومه في الرأي والفكر والمواقف، فيصفهم بالحق والعدل، ولا يتجنى عليهم، ولا ينقصهم صفة لهم، وتاريخه في «البداية والنهاية» أكبر شاهد على ذلك، ونذكر أمثلة.

ففي حوادث سنة ٧٢٧ هـ يترجم لوفاة الشيخ كمال الدين بن الزملكاني ترجمة وافية ومنصفة، مع أنه كان خصماً لابن تيمية ومن يناصره، ومنهم ابن كثير، وكان ابن الزملكاني يبيِّت لشيخ الإسلام النوايا حتى قبيل وفاته، ومع ذلك يقول فيه ابن كثير: «شيخ الشافعية بالشام وغيرها، انتهت إليه رياسة المذهب تدريساً وإفتاءً ومناظرة...، وبرع وحصل، وساد أقرانه من أهل مذهبه، وحاز قصب السبق عليهم بذهنه الوقاد في تحصيل العلم، وأما دروسه في المحافل فلم أسمع أحداً من الناس درَّس أحسن منها، ولا أحلى من عبارته، وحسن تقريره، وجودة احترازاته، وصحة ذهنه، وقوة قريحته، وحسن نظمه، وقد درَّس بالشامية و...، فكان يعطي كل واحدة منهن حقها، بحيث يكاد ينسخ بكل واحدة من تلك الدروس ما قبله من حسنه وفصاحته، ولا يهيله تعداد الدروس وكثرة الفقهاء والفضلاء، بل كلما كان الجمع أكثر، والفضلاء أكبر كان الدرس أنضر وأبهر، وأحلى وأنصح وأفصح، ثم لما انتقل إلى قضاء حلب وما معه من المدارس العديدة عامله معاملة مثلها، وأوسع بالفضيلة جميع أهلها، وسمعوا من العلوم ما لم يسمعوا هم ولا آباؤهم، ثم طلب إلى

الديار المصرية ليولى الشامية دار السنة النبوية فعاجلته المنية قبل وصوله إليها. . . ، وكان من نيته الخبيثة إذا رجع إلى الشام مولياً أن يؤذي شيخ الإسلام ابن تيمية، فدعا عليه فلم يبلغ أمله ومراده»[1].

وكان بين ابن كثير رحمه الله تعالى وبين قاضي القضاة تقي الدين السبكي خصومة فكرية، وتشاء الظروف أن توجه اتهامات على قاضي القضاة بالتفريط في أموال الأيتام، وطلب من المفتين أن يضعوا خطوطهم بتثبيت الدعوى ضده، لتغريمه ومحاكمته، ويصل الأمر إلى صاحبنا العلامة الشيخ ابن كثير ذي الخلق الكريم، والموقف العادل، فيأبى الكتابة، وينصف قاضي القضاة، ويوقف الافتراء والاتهام إلى أن يتبين الحق، ويسجل ذلك في تاريخه فيقول في أحداث سنة ٧٤٣ هـ:

«. . . وفي يوم الجمعة السادس عشرينه قبل العصر ورد البريد من الديار المصرية بطلب قاضي القضاة تقي الدين السبكي إليها حاكماً بها، فذهب الناس للسلام عليه وتوديعه، وذلك بعد ما أرجف الناس به كثيراً، واشتهر أنه سينعقد له مجلس للدعوى عليه بما دفعه من مال الأيتام. . . ، وكتبت فتوى عليه بذلك في تغريمه، وداروا على المفتين، فلم يكتب لهم أحد فيها غير القاضي جلال الدين بن حسام الدين الحنفي، ورأيت خطه عليها وحده بعد الصلاة، وسئلت في الإفتاء عليها فامتنعت، لما فيها من التشويش على الحكام، وفي أول

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٣١ـ١٣٢، وانظر: الفصول ص ٦٣ـ٦٤.

مرسوم نائب السلطان، أن يتأمل المفتون هذا السؤال، ويفتوا بما يقتضيه حكم الشرع الشريف، وكانوا له في نية عجيبة، ففرج الله عنه بطلبه إلى الديار المصرية، فسار إليها صحبة البريد ليلة الأحد، وخرج الكبراء والأعيان لتوديعه، وفي خدمته»[(١)].

د ـ الوقوف مع الحق:

كان ابن كثير رحمه الله تعالى يقول الحق، ويلتزم به، ويقف إلى جانبه مهما لحقه من أذى، أو وصله من إساءة، فلا يحيد عنه، وأمثلته كثيرة مبثوثة في كتبه وآرائه، وأظهر مثال وقوفه إلى جانب شيخه وأستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية، واقتناعه لآرائه، واتباعه له، وإفتاؤه برأيه في مسألة الطلاق، حتى عرف بذلك، واشتهر به، وسجل في صحائفه، وكان يمتحن في ذلك، ويلقى الأذى، فيثبت على رأيه، ويصبر على ما يلقاه ابتغاء مرضاة الله تعالى[(٢)].

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وأخذ عن ابن تيمية، ففتن بحبه، وامتحن بسببه»[(٣)].

ويقول ابن قاضي شهبة: «كانت له خصوصية بابن تيمية، ومناضلة عنه، واتباع له في كثير من آرائه، وكان يفتي برأيه في مسألة

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٣١ـ١٣٢، وانظر: الفصول ص ٦٣، عمدة التفسير ١/ ٢٨.

(٢) انظر: عمدة التفسير ١/ ٢٨.

(٣) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠، وانظر: البدر الطالع ١/ ١٥٣.

الطلاق، وامتحن بسبب ذلك، وأوذي»[1].

ويقول ابن العماد: «وصحب ابن تيمية...، وأخذ عن الشيخ ابن تيمية فأكثر عنه،... كانت له خصوصية بابن تيمية، ومناضلة عنه، واتباع له في كثير من آرائه، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق، وامتحن بسبب ذلك، وأوذي»[2].

وهذا يستلزم أن نخصص فقرة مستقلة لبيان هذا الموضوع بإيجاز.

هـ ـ الإصلاح الديني:

نزل الإسلام صافياً من السماء، وبلغه رسول الله ﷺ حتى لحق بالرفيق الأعلى، وقد ترك أمته على البيضاء النقية، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، والتزم الصحابة رضوان الله عليهم ذلك الطريق المستقيم، والهدي القويم، وأدوا الأمانة، ونشروا الإسلام في الخافقين، وسار التابعون، وتابعو التابعين على نهجهم، فكانوا خير

---

(1) طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٨، وابن قاضي شهبة صاحب «طبقات الشافعية» هو تقي الدين أبو بكر بن أحمد (٨٥١ هـ) وهو غير كمال الدين عبد الوهاب بن محمد، ابن قاضي شهبة (٧٢٦ هـ) شيخ ابن كثير، وتقدمت ترجمته.

(2) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، ٢٣٢، وانظر: إنباه الغمر ١/ ٣٩، طبقات المفسرين ١/ ١١٠، المنهل الصافي ٢/ ٤١٤، الدارس ١/ ٣٦، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، ولكن لم نعرف بالضبط متى امتحن ابن كثير وكيف أوذي؟ إلا ما أشارت إليه المصادر إشارة (انظر ابن كثير، حياته ص ٥).

القرون في تطبيق الإسلام، ونصاعة مبادئه، ثم بدأ يعلق به الغبار مع الأيام، وتضاف إليه بعض الأمور التي لا تتفق مع جوهره، وتلحق به البدع والانحرافات شيئاً فشيئاً، ويتبناها الناس والعوام خاصة، وقد تستشري في بعض الأحيان لتشوه صورة الإسلام النقية.

وهنا يأتي دور العلماء والدعاة والمصلحين لتنقية الإسلام من الشوائب، وتطهيره من البدع والانحرافات، وإزالة ما علق به من مبادىء مدسوسة، وكثيراً ما يقع الخلاف والصدام والمخاصمة والعداوة بين العوام وأصحاب هذه البدع والخرافات وبين العلماء المصلحين.

ويقوم العلماء المخلصون المصلحون بالدعوة إلى تطبيق الإسلام، والعودة إلى مبادئه الصافية، والالتزام بالقرآن والسنة، واتباع السلف الصالح، والوقوف في وجه الأعداء والكفار خارجياً، والحث على الجهاد والصمود عسكرياً، مع طلب التخلي عن البدع، والابتعاد عن الخرافات والشعوذة والأضاليل، وما تسرب إلى المسلمين من تقاليد بالية، وقيم مستوردة، وأفكار هندوسية وبوذية وشرقية وغربية.

وظهر في القرن السابع والثامن الهجري علماء أفذاذ يمثلون هذا الاتجاه الإصلاحي من أمثال العز بن عبد السلام، والنووي، وابن تيمية، والمزيّ، والذهبي، وابن القيم، وابن كثير، وغيرهم.

وكان الأشهر والأبرز والأعلم والزعيم في هذه المدرسة شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، أبو العباس

ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الذي ولد بحران، وتحول به أبوه إلى دمشق، فنبغ فيها واشتهر، وطلب إلى مصر فقصدها، ثم عاد إلى دمشق، وكان إماماً فقيهاً، مجتهداً، محدثاً، مفسراً، ناصراً للسنة، ومحارباً للبدعة (٦٦١ـ٧٢٨ هـ) ولا يجامل ولا يداهن، ويقف في وجه الدجالين والمخالفين للشرع، وكان صريحاً شجاعاً لا يخاف في الحق لومة لائم، وكانت له آراء خاصة، واجتهادات مستقلة، ويفتي بما أداه إليه اجتهاده، فتارة يوافق بعض أئمة المذاهب الأربعة، وتارة يخالفهم جميعاً، ويخالف المعروف من آرائهم ومذاهبهم، كما حمل لواء الهدم والنقض للفلسفة والمنطق، ورفع الراية ضد غلاة المتصوفة، ومبادئهم الباطلة مثل وحدة الوجود التي لا تتفق مع عقل أو دين، وشد الرحال لأضرحة الأولياء وقبور العلماء، ومن مفرداته وغرائبه في الفقه جواز نقل الزكاة، وبطلان البيع إذا قصد به الحرام، وقصر الصلاة بكل سفر، والتيمم لخوف فوات الوقت مع وجود الماء، وتوريث المسلم من الكافر الذمي، وعدم الطلاق بالحلف به، ويكفي له كفارة يمين، وأن الطلاق الثلاث يقع واحدة رجعية، وتارك الصلاة عمداً لا قضاء عليه، وغير ذلك[١].

وكان من نتيجة ذلك أن انقسم العلماء والفقهاء والحكام والناس في شأن ابن تيمية ومواقفه وآرائه إلى فريقين، فتحامل عليه علماء

---

(١) انظر كتاب: ابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى، من سلسلة أعلام العرب ص ١٠٤، ٢٣٤ وما بعدها، السيرة النبوية، المقدمة ص ٧.

الصوفية، وكثير من الفقهاء والقضاة، حتى وشوا به إلى الحكام فوقف بعضهم بجانبه وناصره، ووقف بعضهم ضده فمنعه من الفتوى بآرائه، وعقدت المجالس لمناظرته ومحاكمته، وسجن بمصر، كما سجن بدمشق، عدة مرات، حتى مات سجيناً في القلعة.

وكان عدد قليل من كبار العلماء يقفون بجانبه، ويؤيدونه على مواقفه من البدع والخرافات وغلاة الصوفية، وناصروه بالقول والفعل، واللسان والجنان، منهم مؤرخ الإسلام الذهبي، والمؤرخ البِرْزالي، والحافظ المِزّي، وابنُ عبد الهادي، وابن قيم الجوزية، وصاحبنا الشيخ المفسر المؤرخ الحافظ ابن كثير.

ووصل الاختلاف والانقسام في شأن ابن تيمية مداه، فأطلق عليه مؤيدوه لقب شيخ الإسلام، فطعن خصومه بهذه التسمية، وتهجموا عليه، حتى قال العلاء الحنفي البخاري: إن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر، وقام الحافظ الإمام ابن ناصر الدين الدمشقي (٨٤٢ هـ) بتصنيف كتابه «الرد الوافر» على من طعن في تسمية ابن تيمية بـ «شيخ الإسلام» وهو كتاب مطبوع.

وقد لا ندرك اليوم أهمية آراء ابن تيمية في البدع والخرافات لأن معظمها قد انقرض وزال بفضل ابن تيمية وأعوانه وأتباعه مع الزمن، ومن اطلع على هذه البدع والخرافات في كتب التاريخ اقشعر لها بدنه، كما كانت الصوفية شبه مسيطرة على الساحة العلمية والشعبية، ويندر وجود من لا ينتسب إلى إحدى الطرق الصوفية، مع اختلاف النسبة

والتفاوت فيما بينهم، بين الاعتدال المقبول، والتطرف المذموم الذي يرفضه العقل والدين، ولذلك انقرض أيضاً معظمه.

وإن ثورة ابن تيمية، ومعه ابن كثير وغيره، على البدع والخرافات وغلاة التصوف حققت ثمارها، فباد معظمها، فلا نلمس خطرها وأثرها في المجتمع اليوم، مما يندى له الجبين وتتقزز منه النفس، وتنفر منه الروح، ويتنافى مع أحكام الدين والعقيدة، فكان لمدرسة ابن تيمية، وجهود العاملين المخلصين بعده ـ حتى اليوم ـ الأثر الطيب في تنقية العقيدة والإيمان والعبادة والتصرفات والعادات من الشوائب، مما ينعم به المسلم المخلص اليوم، وإن كان الأعداء قد فتحوا اليوم جبهات جديدة في صفوف المسلمين، كالتقصير في أمور الدين، والتفريط في أحكامه، والاقتصار على مجرد الانتساب بالاسم إلى الإسلام، والمتاجرة بشعاراته، وجعل الإسلام صورة جوفاء فارغة تقتصر على الصدى، مع الاحتكام إلى القوانين المستوردة، والمبادىء الدخيلة.



الفَصل الخامِس

تلاميذ ابن كثير وإنتاجه

إن العلم أخذ وعطاء، وهو سلسلة متصلة من الآباء والأجداد إلى الأبناء والأحفاد، وهو حلقة متواصلة من الشيوخ إلى التلاميذ، ومن الأساتذة إلى الطلاب، ومن العلماء إلى الناس أجمع، كما أن العلم أمانة يحملها الإنسان ليؤديها، وإن البخل بالعلم أشد خطراً من البخل بالمال، وإن كتمان العلم أكثر إثماً من منع المال، وإن اكتناز العلم يقتل صاحبه، ويشين حامله أكثر من اكتناز المال، لأن المال إذا اكتنزه الإنسان فقد خواصه وفوائده والتمتع به بنفسه خاصة، فإن مات فلا يأخذ منه شيئاً إلى القبر إلا النادر القليل ـ وهو الكفن ـ أما العلم إذا اكتنزه صاحبه وبخل به، ومنعه عن غيره فهو قتل لعلمه كاملاً، وإذا مات فَنِي علمه معه، واندثر بموته، ودفن في اللحد معه، وهذا لا يقع إلا من القليل النادر الذي حُرِم ثواب الآخرة أولاً، وخسر ذكراه في الحياة ثانياً.

أما ابن كثير رحمه الله تعالى فكان من الصنف المعطاء الجواد الكريم، بل لم يكن من الصنف الذي يأخذ ليعطي ما أخذه، ولم يجمع

العلم ليوزعه كما جمعه، وهذا شأن صنف آخر من العلماء، أما العلماء الأعلام فإنهم يعطون أكثر مما يأخذون، وينتجون ذاتياً، ويضيفون إلى المعرفة بمختلف صنوف الإضافة، ولذلك يبقى ذكرهم خالداً، واسمهم مسجلاً في ذاكرة التاريخ، وأثرهم في حياتهم ومجتمعهم، ثم في طلابهم وتلاميذهم، ثم إلى الأجيال اللاحقة.

وابن كثير رحمه الله تعالى كان من هذا الصنف الأخير الذي جاد بعلمه، وأثرى المكتبة الإسلامية بمصنفاته، وانتفع الطلاب به، وامتلأت المجالس باسمه وعلمه في حياته، وتعطرت المكتبات في العالم اليوم بفضله وكتبه، وتذكر آراؤه في مختلف المناسبات، وتقتنى مؤلفاته التي تطبع بالآلاف، وعدة طبعات، وإن كان من المؤسف والمحزن أن تبقى نصف مصنفاته مخطوطة لم ترَ النور حتى الآن كما سنفصله بعد قليل.

ويتمثل عطاء ابن كثير في تلاميذه، وإنتاجه الذي سطره، وهو ما خصصنا له هذا الفصل.

أولاً: تلاميذ ابن كثير:

اشتغل ابن كثير رحمه الله تعالى بالتدريس في المساجد والمدارس كما سبق، واستفاد من علمه الكثير من الناس، وكان العلم ـ في نظام التعليم الإسلامي ـ مجاناً من جهة، وعاماً من جهة ثانية، ومفتوحاً من جهة ثالثة، فليس فيه حصر للطلاب في الحلقة، ولا تحديد للتلاميذ في المدرسة، لذلك كان عدد تلاميذ ابن كثير كثيرون

ولا يحصرهم العد، لذلك قال ابن العماد عنه: «وتلامذته كثيرة»[1].

ولا يفيد البحث كثيراً في معرفة جميع التلاميذ، وترجمتهم، والإسهام في سيرتهم، لأنهم غير مقصودين في الدراسة، ولذلك لم نحرص على تتبع أسمائهم من كتب التراجم والتاريخ، واكتفينا بنماذج منهم، لأن المقصود من استعراض التلاميذ ومعرفتهم هو الاطمئنان على نقل العلم من الشيخ، وأخذه من الأستاذ، ونشره على الناس، وهذا ما حصل فعلاً.

قال الأستاذ محمود رزق سليم عن ابن كثير: «وقعد للتدريس، وأخذ عنه كثيرون، ومنهم من برع وصار في عداد الأفاضل كابن حجي»[2]، ويقول الدكتور مسعود الندوي: «فبلغ عدد المعروفين لنا منهم حتى الآن أربعة عشر تلميذاً، على حين لم تأت الإشارة إلا إلى واحد منهم عند من ترجموا لابن كثير قبلنا»[3]، ومن هؤلاء:

١ ـ سعد الدين النووي (٧٢٩ـ٨٠٥ هـ):

هو سعد بن يوسف بن إسماعيل بن يوسف، سعد الدين بن صدر الدين النووي ثم الخليلي، الشافعي، نزيل دمشق، القاضي.

قدم دمشق صغيراً بعد ٧٤٠ هـ فاشتغل بها، وسمع الحديث

---

(١) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، وانظر: جلاء العينين ص ٦٤.

(٢) عصر سلاطين المماليك ٤/ ١٤٤.

(٣) ابن كثير، حياته ومؤلفاته ص/ك، ٧٠ وما بعدها.

ومهر به، وأخذ عن الذهبي وابن نباتة والتاج المراكشي وابن كثير، وقرأ على الشيخ ابن كثير «مختصره في علوم الحديث» الذي ألفه، وأذن له بالفتوى، وصار من العلماء الحذاق، وحدَّث وأفتى ودرَّس، وتصدر بجامع بني أمية فدرس فيه، ودرس بأم الصالح، وأعاد بالناصرية، وولي إمامة المدرسة القيمرية، وكان أسن من بقي بالشام من الشافعية، وناب في الحكم بدمشق، وولي قضاء بعض القرى، وحدث وولي قضاء الخليل بفلسطين، ومات هناك في جمادى الأولى سنة ٨٠٥ هـ بعد أن ولي مدة يسيرة.

قال ابن حجي: «كان ذا ثروة جيدة، فاحترقت داره في الفتنة (فتنة تيمورلنك) وأخذ ماله، فافتقر» وذكره ابن حجر في «إنبائه» و «معجمه» والمقريزي في «عقوده» وآخرون[1].

٢ـ شهاب الدين بن حِجّي (٧٥٠ـ٨١٦ هـ):

هو أحمد بن حِجّي بن موسى بن أحمد، شهاب الدين، أبو العباس السعدي (نسبة إلى الصحابي عطية بن عروة السعدي) الحسباني الأصل، الدمشقي الشافعي، الشيخ، الإمام، العالم، الحافظ، المتقن، ذو الخصال الزكية، والأخلاق المرضية، وشيخ الشافعية، ومؤرخ الإسلام.

ولد بظاهر دمشق، ونشأ وحفظ القرآن و «التنبيه» وتفقه بأبيه

---

(١) شذرات الذهب ٧/ ٤٩، الضوء اللامع ٣/ ٢٥٤، الدارس ١/ ٣٢٠.

ولازمه عشرين سنة، وسمع الحديث من خلائق، وأجاز له خلق من بلاد شتى، وقرأ بنفسه الكثير، وكتب الكثير، واستفاد من مشايخ العصر، وتخرج في علوم الحديث بالحافظين ابن كثير وابن رافع، ودرس وأفتى، وأعاد وناب في الحكم، وولي خطابة الجامع الأموي، وأريد على القضاء فامتنع، وقدم القاهرة مراراً، وحدث بها وببلده، وكتب بخطه الحسن ما لا يحصى كثرة، منها «الدارس في أخبار المدارس» و «الذيل على تاريخ ابن كثير» وكتب في الفقه، وولي في آخر عمره الخطابة ومشيخة الشيوخ شريكاً لغيره، وانتهت المشيخة في البلاد الشامية إليه، وكان ديناً خيراً، له أوراد، وعنده أدب وحشمة وحسن معاشرة، وكان يكتب على الفتاوى كتابة حسنة، وخطه مليح، ومات بدمشق في المحرم سنة ٨١٦ هـ[١].

واستفاد ابن حِجّي من شيخه ابن كثير، وأثنى عليه وذكر صفاته ـ كما ستمر عبارته ـ ثم قال عنه: «ما اجتمعت به قط إلا استفدت منه، وقد لازمته ست سنين»[٢].

---

(١) شذرات الذهب ٧/ ١١٧، الضوء اللامع ١/ ٢٦٩، الدارس ١/ ١٣٨ـ١٤٣، مجلة معهد المخطوطات العربية ٢/ ١/ ١١٩، الأعلام ١/ ١٠٥.

(٢) انظر: إنباه الغمر ١/ ٣٩، طبقات المفسرين ١/ ١١١، الدارس ١/ ٣٦، وجاء اسم ابن حجي مصحفاً في بعض المراجع، وقالوا عنه: «ابن حجر» (انظر: جلاء العينين ص ٣٤، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢).

٣ـ الشيخ ابن الجزري (٧٥١ـ٨٣٣ هـ):

هو محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف بن الجزري، أبو الخير، شمس الدين، العمري، الدمشقي، ثم الشيرازي، الشافعي، الشهير بابن الجزري، نسبة إلى جزيرة ابن عمر قرب الموصل، شيخ القراء في زمانه، ومن حفاظ الحديث.

ولد بدمشق، وبها نشأ، وحفظ القرآن الكريم، و «التنبيه» في الفقه، وأخذ القراءات، ودرس الأصول والمعاني والبيان، وسمع الحديث، وأذن له بالإفتاء شيخ الإسلام أبو الفداء إسماعيل بن كثير، وتصدى للإقراء والتدريس والإفتاء في الجامع الأموي، وبنى مدرسة بدمشق، سماها «دار القرآن».

ثم رحل في طلب العلم، وتحصيل القراءات، وقام بالإقراء والتحديث أينما حل، وطاف بلاداً كثيرة منها الديار المصرية ومكة والمدينة وبلاد الروم، وسافر مع تيمورلنك إلى ما وراء النهر، وذهب إلى سمرقند وبلاد خُراسان وهراة وأصبهان، ثم وصل إلى شيراز فاستقر بها، ومات فيها سنة ٨٣٣ هـ.

ولي قضاء الشام، وقضاء شيراز، وحج مراراً، ونظم كثيراً من العلوم، وله أكثر من ثلاثين كتاباً، منها «النشر في القراءات العشر» و «طبقات القراء= غاية النهاية» وغيرها[١].

---

(١) مرجع العلوم الإسلامية ص ١٨٧، طبقات القراء ٢/ ٢٤٧، الضوء اللامع=

٤ـ الزركشي (٧٤٥ـ٧٩٤ هـ):

محمد بن بهادر بن عبد الله، بدر الدين الزركشي، أبو عبد الله المصري، الفقيه الشافعي، الأصولي، المحدث، المفسر، صاحب التصانيف النافعة المشهورة، رحل في طلب العلم إلى دمشق وحلب، وأخذ عن ابن كثير في الحديث، وقرأ عليه مختصره، ومدحه ببيتين، ثم توجه إلى حلب[١]، وعاد إلى القاهرة التي ولد فيها وتوفي، واشتغل بالتدريس والإفتاء، وكان زاهداً منقطعاً، ومن كتبه «البحر المحيط» في أصول الفقه، و «شرح التنبيه» و «المنثور» المعروف بقواعد الزركشي، وغيرها[٢] وهناك تلاميذ أخر بينهم الندوي[٣].

ثانياً: إنتاج ابن كثير ومؤلفاته:

سبق أن ذكرنا في أعمال ابن كثير أنه كان متفرغاً للتأليف والتصنيف مع أعماله الأخرى، كالتدريس والإفتاء والمشيخة، والمشاركة في الأمور الجسام، وقضايا الأمة والمجتمع.

وقدمنا أن ابن كثير ملك مؤهلات التأليف والتصنيف، بل كان

= ٩/ ٢٥٥، الشقائق النعمانية ١/ ٢٥، الأعلام ٧/ ٢٧٤، مفتاح السعادة ١/ ٥٥.

(١) الدرر الكامنة ٤/ ١٧.

(٢) انظر ترجمته في كتابنا (مرجع العلوم الإسلامية ص ٥٩٩، والمراجع المشار إليها في الحاشية)، ابن كثير، حياته ص ٧٣.

(٣) ابن كثير، حياته ٧٠ـ٨١.

موفقاً في كتبه ومصنفاته، وأنه قدم للبشرية إنتاجاً نافعاً، وعلماً غزيراً، وكتباً نافعة، أصبحت مرجعاً للناس في عصره، وبقيت في حيز الدراسة والمراجعة طوال القرون الخالية، ولا تزال تحتل الصدارة في وقتنا الحاضر في المدارس والجامعات الإسلامية، وكليات الشريعة والتاريخ، وعلى المستوى الثقافي والشعبي، قال الزركلي: «تناقل الناس تصانيفه في حياته»[1] وكذلك بعد وفاته وإلى اليوم، لذلك قال ابن حجر: «وسارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته»[2]، وكانت تقرأ السيرة النبوية من خطبه في الجامع[3]، ولم تكن مصنفات ابن كثير رحمه الله تعالى كثيرة العدد، إذا قيست بإنتاج المكثرين في هذا المجال، ولكنها كانت كبيرة الحجم من جهة، ومتنوعة من جهة ثانية، وأصبحت موئلاً ومرجعاً في موضوعها من جهة ثالثة.

وسوف نسرد مصنفات ابن كثير سرداً مع الترتيب الأبجدي لها، ثم نصنفها ونقسمها بحسب علومها وموضوعها، مع الإشارة إلى مخطوطاتها ومطبوعاتها، والتعريف السريع بها، لنعود إلى دراستها موضوعياً وتفصيلاً في الباب الثالث إن شاء الله تعالى.

---

(١) الأعلام ١/ ٣١٨.

(٢) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠، وانظر: ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١-٣٦٢، البدر الطالع ١/ ١٥٣.

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ٢٩٤.

وأثنى المعاصرون على مؤلفات ابن كثير وإنتاجه الغزير، ودقته وعمقه فيها، وذلك في مقدمات الكتب التي حققوها ونشرها، ونكتفي بكلمة الدكتور صلاح الدين المنجد الذي قال عنها: «من أجود المؤلفات في تراثنا العربي، وأكثرها فائدة، فكل ما كتب ابن كثير جيد، وقلَّ أن نجد عند غيره ما عنده من سعة الاطلاع، والتحرير والضبط، وحسن الانتقاء والدقة»[1].

ثالثاً: مصنفات ابن كثير:

ويمكننا تعداد كتب ابن كثير ـ الأصلية ـ التي تصل إلى العشرين تقريباً، مع ترتيبها الأبجدي وهي:

١ـ الاجتهاد في طلب الجهاد= رسالة في الجهاد.

٢ـ الأحكام الصغرى في الحديث، وتسمى الأحكام الصغير.

٣ـ الأحكام الكبير، وهو كتاب كبير لم يكمله، وصل فيه إلى باب «الحج».

٤ـ أحكام التنبيه.

٥ـ اختصار علوم الحديث، اختصر فيه «مقدمة ابن الصلاح المعروفة»، وطبع باسم «الباعث الحثيث».

---

(١) مولد الرسول ﷺ لابن كثير، المقدمة ص ٨، وانظر: ابن كثير، حياته ص ٨٥.

٦ـ اختصار كتاب «المدخل إلى كتاب السنن للبيهقي».

٧ـ البداية والنهاية، وهو كتاب التاريخ النفيس المعروف والمشهور.

٨ـ تخريج أحاديث أدلة «التنبيه» في فروع الشافعية.

٩ـ تخريج أحاديث «مختصر ابن الحاجب» في أصول الفقه.

١٠ـ تفسير القرآن العظيم= تفسير ابن كثير.

١١ـ التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل.

١٢ـ جامع المسانيد والسنن= الهَدْي والسَّنَن في أحاديث المسانيد والسنن.

١٣ـ السيرة النبوية (السيرة المطولة).

١٤ـ شرح «صحيح البخاري» لم يكمله.

١٥ـ شعب الإيمان.

١٦ـ طبقات الشافعية، ومعه مناقب الشافعي.

١٧ـ الفصول في سيرة الرسول (السيرة الصغيرة).

١٨ـ فضائل القرآن.

١٩ـ قصص الأنبياء.

٢٠ـ كتاب في السماع.

٢١ـ مسند الشيخين.

٢٢ـ مسند عمر بن الخطاب والآثار المروية عنه.

٢٣ـ المقدمات، ولعله في المصطلح.

٢٤ـ النهاية في الفتن والملاحم.

وكتب ابن كثير لا تزيد عن العشرين، لأن كتاب «شعب الإيمان» و «كتاب السماع» لم يثبتا لابن كثير.

وكتاب «قصص الأنبياء» وكتاب «النهاية في الفتن والملاحم» وغيرهما ـ كما سيمر ـ عبارة عن أجزاء مستلة من الكتاب القيم المشهور «البداية والنهاية»، وطبع أكثر من نصف المجموع السابق، وبقي الآخر مخطوطاً ومفقوداً حتى الآن[1].

رابعاً: تصنيف كتب ابن كثير موضوعياً:

لدى مراجعة فهارس الكتب (المخطوطة والمطبوعة) يجد القارىء كتباً عدة تزيد عن أربعة وثلاثين كتاباً، فنريد بيانها، ومعرفة المطبوع منها والمخطوط، مع التعريف الموجز لكل منها، وتقسيمها حسب الموضوعات والعلوم التي تبحث بها، ليتعرف القارىء عليها أولاً، ويكون ذلك تمهيداً لدراستها التفصيلية في الباب الثاني ثانياً، إن شاء الله تعالى.

---

(١) أوصل الدكتور الندوي العدد إلى ٣٤، وزاد مصحح كتابه عدداً آخر حتى ٥١ كتباً ورسالة، وغالبها أجزاء من كتبه، ولم تثبت له كما سنرى.

أ ـ كتب ابن كثير في التفسير وعلوم القرآن:

وهي في أصلها كتابان «التفسير» و «فضائل القرآن»، ولكن أهمية هذين الكتابين، وشهرة الكتاب الأول «التفسير» صرف عناية الناس إليهما، وبذلت دراسات عدة فيهما، وكلها طبعت ونشرت عدة مرات، وفي بلدان مختلفة[1]، نبين أهمها:

١ ـ تفسير آية الكرسي:

تأليف محمد بن عمر الرازي، إسماعيل بن كثير، عطاف بن محمد الألوسي، تحقيق محمود شلبي، طبع بدار المعرفة ـ بيروت ـ [د. ت] ويقع في ١٠٣ صفحات، رقم (ص ٦١١).

٢ ـ تفسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير:

اختصره وعلق عليه، واختار أصح رواياته محمد نسيب الرفاعي.

الطبعة الأولى ـ بيروت ـ (د. م) عام ١٩٧٢، أربع مجلدات، وبآخره فهرس آيات وأحاديث، رقم (ص ٢٩).

الطبعة الثانية الجديدة، مكتبة المعارف ـ الرياض ـ ١٩٨٩، ٤ مج (ص ١٢٠١٨٠).

---

(١) وكل ذلك متوفر في مكتبة الأسد بدمشق، ولذلك سنكتب رمزه ورقمه فيها.

٣ـ تفسير القرآن العظيم:

وهو الكتاب الأصلي، ويتم طبعه ونشره وتداوله بكثرة، وطبع بأربع مجلدات كبيرة عدة مرات في القاهرة ودمشق، وبيروت، وفي معظم الطبعات طبع في آخره «فضائل القرآن» لابن كثير، وفي بعض الطبعات مقدمة للمصحح أو الناشر، وفي بعض الطبعات فهارس في الأخير، وبعض الطبعات مصححة من نخبة من العلماء، وبعضها أغفل هذا العنوان، وبعضها طبعات أصلية، وكثير منها مصورة بالأوفست، وفيه نسخ عديدة بأرقام كثيرة في المكتبات العامة، كما أنه متوفر في المكتبات التجارية، والمكتبات الخاصة، وبيوت طلاب العلم والعلماء، وكثير من الناس، ويوجد نسخة خطية من التفسير بمكتبة الأسد الوطنية بدمشق، ورقمها ٥٢٩ تفسير ١٣٢.

٤ـ عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير:

اختصار وتحقيق أحمد محمد شاكر، مطبوع بالقاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٥٩م، ٥ ج، ورقمه (ص ٣١٩٨٩ـ٣١٩٩٣) (ص٤٢٠٣٢ـ٤٢٠٣٦).

وكتب الشيخ أحمد شاكر مقدمة له فقال: «فإن تفسير الحافظ ابن كثير أحسن التفاسير التي رأينا، وأجودها، وأدقها بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري»[1]. ثم ذكر منهج تفسير ابن كثير، وأهميته الخاصة في التعليم وعلم الحديث، ورغبته في نشره وإخراج

(١) عمدة التفسير ١/ ٥.

مختصر منه، ثم عرض منهج الاختصار[1].

٥ـ فضائل القرآن:

مطبوع أكثر من ست طبعات في القاهرة، وبيروت، وجدة، ثلاثة منها محققة، كل واحدة على انفراد، من سعيد عبد المجيد محمود، زهير شفيق الكبي، محمد إبراهيم البنا، وفي آخره فهارس، كما طبع هذا الكتاب القيم في آخر «تفسير القرآن العظيم» في معظم الطبعات، وجاء في ٥٥ صفحة من الحجم الكبير في نهاية طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة، وكلها متوفرة في المكتبة الوطنية، والمكتبات التجارية، وسماه ابن كثير في تاريخه «فضائل القرآن»[2].

٦ـ فهرس أحاديث تفسير ابن كثير:

إعداد يوسف عبد الرحمن المرعشلي، محمد سليم إبراهيم سمارة، جمال الدين الذهبي، الطبعة الأولى ـ بيروت ـ دار المعرفة ـ ١٩٨٦ م ٣٣٤ ص، ورقمه (و ٨٣١٥).

٧ـ مختارات من فضائل القرآن:

إشراف أحمد حمدي إمام، القاهرة ـ المؤسسة المصرية ـ ١٩٨١، ٨٣ صفحة، (ص ٧١٥٠٠).

---

(١) عمدة التفسير ١/ ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠.

(٢) البداية والنهاية ٥/ ٣٤٧، وانظر: ابن كثير، حياته ص ٩٣.

٨ـ مختصر تفسير ابن كثير:

اختصار الأستاذ شيخ القراء محمد كريم راجح، مجلدان.

الطبعة الثالثة ـ بيروت ـ دار المعرفة ـ ١٩٨٧ م (ص ١٣٠٩١، ٦٧٢٥٣، ٧٩٨٧٤).

٩ـ مختصر تفسير ابن كثير:

اختصار وتحقيق الأستاذ الشيخ محمد علي الصابوني، ثلاث مجلدات.

مطبوع عدة طبعات، منها طبعة بيروت ـ مكتبة جدة ـ ١٩٨٩ م (و ٥٧٤٩ م).

والطبعة الأولى في بيروت ١٩٧٣ م، والثانية في بيروت ـ دار القرآن الكريم ـ ١٩٨١ م.

ب ـ كتب ابن كثير في الحديث وعلومه:

كان ابن كثير رحمه الله تعالى حافظاً ومحدثاً، واشتغل بالحديث وعلومه معظم حياته، وصنف فيه عدة كتب، ولكن بعضها كبير جداً يقع في مجلدات، وبعضها صغير، وبعضها أكمله، وبعضها بدأ به ولم يكمله، وأكثرها لا يزال مخطوطاً ولم يرَ النور، وطبع منها القليل، وهاك التفصيل:

١ـ الأحكام الصغرى:

ويسمى أيضاً الأحكام الصغير في الحديث، سماه ابن كثير «الأحكام الصغير» في كتابه «اختصار علوم الحديث» وذكره حاجي خليفة[١].

٢ـ الأحكام الكبير:

وهو كتاب مبسوط في الحديث، لكنه لم يتمه، ووصل فيه إلى باب «الحج».

أحال إليه ابن كثير مراراً في كتابه «البداية والنهاية» وفي كتابه «اختصار علوم الحديث» وفي كتابه «التفسير»[٢].

وقال الداودي: «وشرع في أحكام كثيرة حافلة كتب فيها مجلدات إلى الحج»[٣]، وقال السيوطي: «وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يتمه»[٤].

وظن الدكتور الندوي أن الكتاب في الفقه، وذكر الإحالات عليه من ابن كثير في «البداية والنهاية»، ولكن عقب عليه المصحح للطبعة

---

(١) كشف الظنون ١/ ٥٥، الفصول ص ٥٤، الباعث الحثيث ص ٢٠٢، ابن كثير، حياته ص ١٣٤.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ٥٢٤، ٦/ ٨، الفصول ص ٥٤، الباعث الحثيث ص ٣١، ٣٥.

(٣) طبقات المفسرين ١/ ١١١، وذكر نفس العبارة ابن العماد (شذرات الذهب ٦/ ٢٣١)، وابن قاضي شهبة (طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧).

(٤) ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١.

الثانية السيد مجد مكي أن هذه الإحالات إلى كتاب الفقه «الأحكام الكبرى» لأنها لم تقتصر إلى باب الحج، وإنما أحال إلى أحاديث في بقية كتب الفقه كالجنائز والنكاح والبيع والمزارعة واللباس والحيل والأذان، وأحال إليه ابن كثير أيضاً في تفسيره، وأفاد المصحح أن لابن كثير كتابين، الأول كتاب «الأحكام الكبرى» في الحديث (الباعث الحثيث ص ٥٧، ٢٠٢) والثاني كتاب «الأحكام الكبير» في الفقه، وأحال عليه ابن كثير في «البداية والنهاية» و «التفسير».

ولكني أرجح أن الكتابين كتاب واحد، لأن الأول الذي يحيل عليه ابن كثير في (الباعث الحثيث) يصرح باسمه بأنه «الأحكام الكبير».

٣ـ اختصار علوم الحديث:

اختصر فيه ابن كثير كتاب «علوم الحديث» لابن الصلاح (٦٤٣ هـ) ويعرف أيضاً بـ «مقدمة ابن الصلاح» وهو من أهم الكتب، فتناوله ابن كثير وقال في مقدمته: «واختصرت ما بسطه، ونظمت ما فرطه»[1].

وبعد اختيار الكتاب للتدريس في كلية أصول الدين، ودراسة بعض أنواعه في كلية الشريعة بجامعة الأزهر، قام العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر بالسعي في طبعه وتصحيحه وكتابة شرح عليه، وطبع

---

(١) الباعث الحثيث ص ١٩.

الكتاب واشتهر باسم «الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث» وطبع مرات عديدة، وانتفع الطلاب به، وقد قرره علينا في كلية الشريعة بجامعة دمشق أستاذنا الفاضل المرحوم الدكتور محمد أمين المصري، ودرسناه عام ١٩٦١ـ١٩٦٢ م في السنة الأولى من الكلية، ولا يزال مرجع الطلاب إلى الآن.

٤ـ تخريج أحاديث أدلة التنبيه:

وكتاب «التنبيه» من أهم مختصرات الفقه الشافعي، وكان الطلاب يعولون عليه، ويحفظونه عن ظهر قلب، وهو ما فعله ابن كثير رحمه الله تعالى، ثم عمل على تخريج الأحاديث الواردة في أدلته، والكتاب للشيخ أبي إسحاق الشيرازي (٤٧٦ هـ)[١].

وأشار إلى هذا الكتاب كثيرون، قال ابن حجر: «وخرج أحاديث أدلة التنبيه»[٢]، وحققه حديثاً الأستاذ محمد إبراهيم السامرائي[٣].

٥ـ تخريج أحاديث «مختصر ابن الحاجب»:

إن مختصر ابن الحاجب (٦٤٦ هـ) المسمى «مختصر المنتهى» أهم

---

(١) انظر التعريف بكتاب «التنبيه» في كتابنا (مرجع العلوم الإسلامية ص ٥١٥) ومقدمة تحقيقنا للمهذب للشيرازي.

(٢) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠، وانظر: ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١، ويوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة فيض الله بتركيا تحت رقم ٧٨٣/ ٢ كما أفاده المصحح لكتاب «ابن كثير، حياته ص ١٣٧».

(٣) ابن كثير، حياته ص ١٣٧، زيادة من المصحح.

مختصر دقيق في أصول الفقه[1]، وحفظه ابن كثير أثناء طلب العلم، ثم سعى إلى تخريج الأحاديث الواردة فيه.

وأشار إلى كتاب ابن كثير عدد من المصادر، ولم يطبع بعد، لكن حققه الأستاذ عبد الغني الكبيسي، وقال ابن قاضي شهبة: «وخرج الأحاديث الواقعة في «مختصر ابن الحاجب» وكتبه رفيقه الشيخ تقي الدين بن رافع لنفسه منه نسخة»[2].

كما أشار ابن كثير نفسه إلى هذا الكتاب، فقال: «وقد منَّ الله عليَّ وجمعت كراريس في الكلام على ما أودعه فيه من الأحاديث النبوية، ولله الحمد»[3].

٦ـ جامع المسانيد والسُّنَن الهادي لأقوم السَّنَن:

ويسمى أيضاً: «الهَدْي والسَّنَن في أحاديث المسانيد والسُّنَن»[4]، وهو كتاب كبير، رتبه على حروف المعجم، يذكر كل صحابي له

---

(١) انظر التعريف بكتاب «مختصر ابن الحاجب» في كتابنا (مرجع العلوم الإسلامية ص ٦٢٢).

(٢) المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠، طبقات المفسرين ١/ ١١١، النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣، ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧.

(٣) البداية والنهاية ١٣/ ١٧٦.

(٤) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨، البدر الطالع ١/ ١٥٣.

رواية، ثم يورد في ترجمته جميع ما وقع في الكتب العشرة، وما تيسر من غيرها[1].

ويوجد منه سبع مجلدات فقط بدار الكتب المصرية، ويساوي ٢٢٨٠ ورقة، وفي معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية أجزاء منه، وتدل أن ابن كثير جمع الكتاب في عام ٧٦٣ هـ، وتاريخ النسخ ٧٨٩ هـ، ويرى الشيخ أحمد شاكر أن ابن كثير توفي ولم يتم الكتاب، وكان الطلاب والعلماء ينسخون ما يخرج منه، ويتداولونه بينهم حتى وصل من دمشق إلى تبريز وخراسان في أقصى الشرق[2].

وذكره المؤرخون والعلماء، وأثنوا عليه، كما سنرى في الباب الثاني في علوم الحديث والسنة، لأن ابن كثير جمع فيه أحاديث الكتب الستة المشهورة في الحديث، وجمع معها أربعة مسانيد، وهي مسند أحمد، ومسند أبي يعلى، ومسند البزار، ومعجمي الطبراني[3].

وترجم ابن كثير في هذا الكتاب لرواة الأحاديث الذين وردت

---

(١) يقول حسام الدين القدسي: «رتبه على الأبواب وهو أنفع كتبه»، (ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨ هامش ٤).

(٢) عمدة التفسير ١/ ٢٩، الرسالة المستطرفة ص ١٧٦.

(٣) البدر الطالع ١/١٥٣، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٧، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، إنباه الغمر ١/ ٤٠، كشف الظنون ١/ ٣٨٥، الرسالة المستطرفة ص ١٧٥، هدية العارفين ٥/ ٢١٥.

أسماؤهم في كتب الحديث الستة، ورتبه على حروف المعجم[1]، وقال ابن قاضي شهبة: «وصنف كتاباً في جمع المسانيد العشرة»[2].

وهذا الكتاب حقق حديثاً كما سنذكره في الباب الثاني[3].

٧ـ شرح البخاري:

وهو شرح لـ «صحيح البخاري»، شرح ابن كثير قطعة منه، ولم يكمله، وصل فيه إلى الحج، وأشار إليه مراراً، فقال عند الكلام عن حديث بدء الوحي: «وتكلمنا عليه مطولاً في أول «شرح البخاري» في كتاب بدء الخلق، إسناداً ومتناً»[4] وقال أيضاً: «وقد بسطت ذلك في أول شرح البخاري»[5].

وذكر الكتاب عدد من المترجمين والمصنفين، فقال ابن حجر: «وشرع في شرح البخاري»[6]، ولم يطبع بعد.

---

(١) عصر سلاكين المماليك ٣/ ١٠١.

(٢) طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧.

(٣) تم طبع هذا الكتاب في بيروت في ٣٥ مجلداً بتحقيق عبد المعطي قلعجي.

(٤) البداية والنهاية ٣/ ٣، ١٢٢، ١٢٦، ٤/ ٢٥٨، ٢٦٦، ١١/ ٢٤، ٣٣، وانظر: ابن كثير، حياته ص ١٢٩ وما بعدها.

(٥) المرجع السابق ١١/ ٣٣.

(٦) الدرر الكامنة ١/ ٣٩٩، وانظر: شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، طبقات المفسرين ١/ ١١١، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧، كشف الظنون ١/ ٣٦٨، الفصول ص ٥٣، النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٤، هدية العارفين ٥/ ٢١٥، ابن كثير، حياته ص ١٢٩.

٨ـ فهرس أحاديث تفسير ابن كثير:

هذا الكتاب ليس من عمل ابن كثير رحمه الله تعالى، وإنما كان من منهجه في كتابه «التفسير» أن يفسر القرآن الكريم بالسنة، ويذكر الأحاديث التي تبين المعنى، ويروي الأحاديث التي تتصل بالآيات.

وقام عدد من المعاصرين باستخراج هذه الأحاديث وجمعها مفهرسة، وطبعها، وذلك تسهيلاً على القارىء والباحث الذي يريد معرفة حديث ما، ذكره ابن كثير في تفسيره، وهي من إعداد: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، محمد سليم إبراهيم سمارة، جمال الدين الذهبي، وطبع الفهرس ـ الطبعة الأولى ـ بيروت ـ دار المعرفة ـ ١٩٨٦ م، ويقع في ٣٣٤ صفحة[١].

٩ـ مختصر المدخل إلى كتاب السنن للبيهقي:

اختصر ابن كثير كتاب البيهقي (٤٥٨ هـ) كما اختصر كتاب ابن الصلاح (٦٤٣ هـ) وصرح في مقدمة «اختصار علوم الحديث» بأنه اختصر الأول، فقال عنه: «وقد اختصرته أيضاً بنحو من هذا النمط، من غير وَكْس ولا شطط»[٢].

١٠ـ مسند الشيخين:

---

(١) الكتاب موجود بمكتبة الأسد برقم ٨٣١٥، ومتوفر في الأسواق.

(٢) الباعث الحثيث ص ١٧، وانظر: ابن كثير، حياته ص ١٣٢.

المراد بالشيخين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، والمراد بالمسند الأحاديث التي رواها أحد الصحابة عن رسول الله ﷺ مباشرة.

وذكر السيوطي هذا الكتاب لابن كثير رحمه الله تعالى[1]، ولا يعرف له أثر.

١١ ـ مسند عمر بن الخطاب:

ولعل هذا الكتاب جزء من الكتاب السابق، أو أنه مستقل عنه، وصرح به ابن كثير رحمه الله تعالى فقال: «كما بسطناه في مسند عمر»[2] ثم أشار إليه أيضاً فقال: «كما بسطنا ذلك في ترجمة عمر بن الخطاب وسيرته التي أفردناها في مجلد، ومسنده والآثار المروية عنه، مرتباً على الأبواب في مجلد آخر، ولله الحمد والمنة»[3].

وأفاد الدكتور الندوي عن «مسند الشيخين» أن «الكتاب أصلاً في سيرة الصديق والفاروق، ألحق به مروياتهما عن الرسول ﷺ، وآرائهما الاجتهادية في الفقه، مرتباً على أبواب الفقه، وأنه ليس كتاباً واحداً، بل كتابان في ثلاثة مجلدات بالترتيب، كتاب في سيرة

---

(١) ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١، الفصول ص ٥٥.

(٢) الباعث الحثيث ص ٥٧.

(٣) البداية والنهاية ٧/ ١٨، الفصول ص ٥٥، ابن كثير، حياته ص ١٢٨، وأشار في حاشيته إلى البداية والنهاية ٣/ ٢٧، ٧/ ٥٨.

الصديق، ومسنده في مجلد، وكتاب في سيرة الفاروق ومسنده في مجلدين، الأول في سيرته، والثاني في مسنده»[1].

وأفاد مصحح كتاب الندوي أن مسند الفاروق عمر بن الخطاب، حققه الأستاذ مطر الزهراني، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ولم يحدد التاريخ[2].

١٢ـ المقدمات:

وهذا الكتاب لعله في «مصطلح الحديث»، لأن ابن كثير ذكره في كتاب «اختصار علوم الحديث» لابن الصلاح، وأحال عليه[3].

جـ ـ كتب ابن كثير في التاريخ:

صنف ابن كثير رحمه الله تعالى كتاباً واحداً في التاريخ، يقع في ١٤ مجلدة، وطبع عدة مرات، ويبدأ التاريخ من أول الخليقة إلى عصره، ثم كتب أخبار النهاية وما فيها من علامات وآثار وفتن وملاحم، واحتل هذا الكتاب مركز الصدارة بين كتب التاريخ، وأصبح المرجع المعتمد، والموئل الرئيسي لدراسة التاريخ.

وانكب الناس على نسخ هذا الكتاب القيم المفيد، ثم أسرعوا إلى نشره، ثم إلى تحقيقه، ثم إلى عمل الفهارس له، ثم عمدوا إلى أخذ

---

(١) ابن كثير، حياته ص ١٢٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٩.

(٣) الباعث الحثيث ص ١٧، ٩٧، ١٠٢، ١٣٢، قصص الأنبياء، ت سليمان ص ٧.

أجزاء منه، صغيرة أم كبيرة، لطباعتها ونشرها، ولذلك تعددت كتب ابن كثير في التاريخ، ومنها:

١ـ بداية الخلق:

دراسة وتحقيق إبراهيم محمد الجمل.

الطبعة الأولى ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي ـ ١٩٨٥ م ـ ١٧٦ صفحة (ص ٥٨٣٩٠، ٦٨٥٠٣).

٢ـ البداية والنهاية:

مطبوع عدة مرات في القاهرة، وبيروت، وغيرهما، أولها في مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ١٩٣٢ م، وبعض الطبعات بدون تحقيق، وبعضها محقق ومصحح، وبعضها ألحق بآخره فهارس البداية والنهاية، وبعضها كتب له مقدمة عن الكتاب والمؤلف، والكتاب متوفر في الأسواق والمكتبات العامة والخاصة.

ويوجد منه عشر نسخ مخطوطة بمكتبة الأسد الوطنية بدمشق.

وقال البغدادي في كتب ابن كثير: «الكواكب الدراري في التاريخ، انتخبه من البداية والنهاية»[١].

٣ـ علامات يوم القيامة:

تحقيق وتعليق عبد اللطيف عاشور.

---

(١) هدية العارفين ٥/ ٢١٥.

مطبـوع بـالقـاهـرة ـ مكتبـة القـرآن ـ ١٩٨٠ م ١٥٠ صفحـة (ص ٩٦٣٨٠ م) بتحقيق وتعليق عبد اللطيف عاشور ـ القاهرة ـ، كما أن الكتاب مطبوع بتونس بتحقيق عبد اللطيف عاشور ـ دار بـوسـلامـة ـ ١٩٨٣ م ويقـع في ١٤٩ صفحـة، (ص ١٢٣٩٩٨ م ـ ص ٦٦٨٤٥ م).

٤ـ قصص الأنبياء:

وهو أجزاء من كتاب «البداية والنهاية» فصلها الدكتور مصطفى عبد الواحد عن أصله، ونشره في كتاب مستقل، وطبعته مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى، ثم الطبعة الثانية ـ القاهرة، دار الكتب الحديثة ـ ١٩٧٨ م ٢ ج (ص ٨٧٦، ٣٢٥٧٦)، وفي الطبعة الثانية تخريج الآيات والسنن التي لم يخرجها ابن كثير، والتعليق على بعض النقاط، وتقديم دراسة مبدئية لقصص الأنبياء.

ثم حقق هذا القسم وطبعه أكثر من ثلاثة عشر شخصاً، وكل منهم طبعه طبعة مستقلة في القاهرة، وبيروت، ودمشق، وكل هذه الطبعات متوفرة في المكتبة الوطنية، كما تتوفر نسخه في المكتبات التجارية والأسواق.

٥ـ الكواكب الدراري في التاريخ:

وهو كتاب انتخبه ابن كثير من «البداية والنهاية» واختصر

الأحداث التاريخية[1]، وهو في ثلاث مجلدات، ولم يرد له أثر في فهارس المخطوطات، إلا المجلد الثالث في عمومي باستنبول رقم ٥٠١٦[2].

٦ـ المسيح عيسى ابن مريم:

تحقيق وتعليق عبد الرحمن حسن محمود.

الطبعة الأولى ـ القاهرة، مكتبة الآداب ـ ١٩٨٦ م ١٥٩ صفحة (ص ٧٢٠٨٥).

٧ـ النهاية في الفتن والملاحم:

وهو تكملة كتاب «البداية والنهاية» ولم يطبع معه سابقاً، ثم طبع مؤخراً في خمس مرات، في خمس دور نشر في الرياض والقاهرة وبيروت، ومتوفر في المكتبات والأسواق.

واختصره وعلق عليه محمد أحمد عبد العزيز، وطبع بالقاهرة ـ مكتبة التراث العربي ـ عام ١٩٨٩ م ٣٩٥ صفحة بعنوان «النهاية: فتن وأهوال آخر الزمان» (ص ١٠٨٦٨٠)، ويقصد به ما سوف يجري في آخر الدنيا، ومنه مخطوط أحمد الثالث رقم ٢٥٩٤ في ٢٤٩ ورقة قطع كبير[3].

---

(١) كشف الظنون ٢/ ٣٣٧، هدية العارفين ٥/ ٢١٥، معجم المؤرخين ص ٢٠٤.

(٢) التاريخ العربي والمؤرخون ٤/ ٨٤ـ٨٥.

(٣) التاريخ العربي والمؤرخون ٤/ ٨٥.

د ـ كتب ابن كثير في السيرة والرجال والتراجم:

إن علم السيرة جزء من التاريخ، وابن كثير رحمه الله تعالى من أعلام المؤرخين وكتّاب السيرة، كما أن كتب الرجال والتراجم تجمع بين علم التاريخ وعلم الحديث، وابن كثير علم في ذلك، وله القدح المعلى، لذلك جاءت كتب ابن كثير في السيرة والرجال والتراجم مَعْلَمة بارزة، ولها ميزات كثيرة، وشهرة مميزة، كما أن بعض هذه الكتب مستل من كتابه «البداية والنهاية»، و «التفسير».

ولكن كتب ابن كثير في السيرة والرجال والتراجم طبع معظمها، وانتشرت في أيدي الناس، وفي ردهات العلم، ولكنه بقي القليل منها لم يطبع، مع أنه في الأهمية والقيمة العلمية لا يقل عما طبع، ونعرف بكل منها مع الترتيب الأبجدي:

١ ـ استشهاد الحسين:

تبين أن هذا الكتاب مستل من كتاب ابن كثير «البداية والنهاية»، وطبع مع عنوان آخر «رأس الحسين رضي الله عنه لابن تيمية»، وطبع الكتابان بجدة ـ دار المدني ـ ١٩٨٥ م، ويقعان في ١٩٠ صفحة (ص ٧١٥٥٦).

٢ـ الإسراء والمعراج، وهل رأى النّبي ﷺ ربه ؟:

هذا الكتيب مستل من «تفسير ابن كثير» حققه وعلق عليه محمد عبد العزيز الهلّاوي، ونشرته دار الطلائع ـ القاهرة ـ عام ١٩٩٢ م،

ويقع في ١٥٩ صفحة من الحجم الصغير، ورقمه (ص ١٣٠٩١٧).

٣ـ التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل:

ذكر حاجي خليفة هذا الكتاب بعنوان: «التكملة في أسماء الثقات والضعفاء»[١]، وذكره الحسيني فقال: «التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل، جمع بين كتاب «التهذيب» و «الميزان» وهو في خمس مجلدات»[٢]، وقال ابن العماد عنه: «واختصر «تهذيب الكمال»، وأضاف إليه ما تأخر في «الميزان» سماه «التكميل»»[٣].

ويظهر أن ابن كثير رحمه الله تعالى جمع في هذا الكتاب بين كتاب شيخه المزّي «تهذيب الكمال» وكتاب شيخه الذهبي «ميزان الاعتدال» مع زيادات مفيدة في الجرح والتعديل[٤].

ويوجد من هذا الكتاب مخطوطة بالرباط برقم ٢١٩ ك في ٩٩ ورقة، مخروم الآخر، وذكر الشيخ محمد حمزة وجود المجلد الأخير منه في إحدى مكتبات المدينة المنورة، وأنه يقع في تسع مجلدات[٥].

---

(١) كشف الظنون ١/ ٣٢٢، وانظر: هدية العارفين ٥/ ٢١٥، الإعلان بالتوبيخ ص ٥٨٩، ٦٠٠.

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٧.

(٣) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، وانظر: طبقات المفسرين ١/ ١١١.

(٤) يوجد نسخة خطية بدار الكتب المصرية في مجلدين، ورقمها: ٢٤٢٢٧ (انظر: تهذيب الكمال للمزي، المقدمة ١/ ٦٤).

(٥) الباعث الحثيث ص ٢٠٢ هامش ٢، وانظر: طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧، =

٤ـ الدلائل، معجزات النَّبي ﷺ:

وهو كتاب مأخوذ من كتاب «البداية والنهاية» بدراسة وتحقيق محمد عبد العزيز الهلّاوي، وسوف نعرِّف به في الفصل الرابع من الباب الثاني[١]، ورقمه (١٢٥٩٢٩).

٥ـ ذكر مولد رسول الله ﷺ ورضاعه:

وهذا الكتيب رسالة مستقلة حققها ياسين محمد السواس ومحمود الأرناؤوط[٢] (ص ٧١١٠١، ١٠٣٩٧٦).

٦ـ سيرة أبي بكر رضي الله عنه:

ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى هذا الكتاب في مواضع متفرقة من كتابه «البداية والنهاية» وقال فيه: «وقد ذكرنا ترجمة الصديق رضي الله عنه، وسيرته، وأيامه، وما روى من الأحاديث، وما روي عنه من الأحكام، في مجلد، ولله الحمد والمنة»[٣].

= التاريخ العربي والمؤرخون ٤/ ٨٥، الفصول ص ٥٢.

(١) نشر مكتبة القرآن، القاهرة، تاريخ الإيداع ١٩٩٢ م.

(٢) نشر دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م، ويقع في ٦٦ صفحة عادية، وكتب عليه نصوص تراثية.

(٣) البداية والنهاية ٧/ ١٨، الفصول ص ٥٥، ابن كثير، حياته ص ١٢٦ وما بعدها.

٧ـ سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

صرح ابن كثير بهذا الكتاب، فقال: «كما بسطنا ذلك في ترجمة عمر بن الخطاب وسيرته التي أفردناها في مجلد»[١].

٨ـ سيرة عمر بن عبد العزيز:

وهذا كتاب مستل من «البداية والنهاية» وطبع مستقلاً في سلسلة «مذاهب وشخصيات» القاهرة ـ المؤسسة المصرية العامة ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ بدون تاريخ، ويقع في ٨٦ صفحة، ورقمه (ص ٣٣٨٣٧، ص ٧٧١١٢).

٩ـ سيرة مَنْكلي بغا الشمسي:

وهو أحد مماليك الناصر حسن (٧٦٢ هـ) وكان منكلي الأتابك والنائب عنه بحلب، ودمشق، وذكر السخاوي هذا الكتاب، فقال: «وللعماد ابن كثير سيرة منكلي بغا»[٢].

١٠ـ السيرة النبوية:

وهي السيرة المطولة التي ضمها ـ في الغالب ـ ابن كثير إلى «البداية والنهاية» ثم قام الدكتور مصطفى عبد الواحد بإفرادها وطباعتها في

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ١٨، الفصول ص ٥٥.

(٢) الإعلان بالتوبيخ ص ٥٥٤، وانظر: معجم المؤرخين الدمشقيين ص ٢٠٤، التاريخ العربي والمؤرخون ٤/ ٨٥، ابن كثير، حياته ص ١٤٠.

أربعة أجزاء[1]، ثم قام الأستاذ أحمد عبد الشافي بطبعها من جديد في مجلدين[2]، ورقمه (ص ٩٩٧٢٥).

١١ـ شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه:

وهو كتاب مستل من «البداية والنهاية»، استخرجه الدكتور مصطفى عبد الواحد كملحق للسيرة النبوية، وطبعته دار المعرفة ـ بيروت ـ سنة ١٩٦٧ م، ويقع في ٥٨٤ صفحة، ورقمه (ص ٤٢١٧٨، ص ١٣٤١٥).

١٢ـ طبقات الشافعية:

يوجد منه عدة نسخ خطية كما سنبين، ثم طبع حديثاً بمصر، بتحقيق محمد علي زينهم، والدكتور أحمد عمر هاشم، وذكرها عدد من المؤرخين والمترجمين[3].

١٣ـ الفصول في سيرة الرسول ﷺ:

وهي «السيرة المختصرة» لابن كثير، وطبعت بمصر قديماً ثم أعيد تحقيقها للمرة الأولى وطبعت، ثم حققت على نسختين خطيتين،

---

(١) مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م، وانظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٨، السيرة النبوية ١/ ١٢.

(٢) نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٩٠ م.

(٣) شذرات الذهب ١/ ٢٣١، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧، النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣، هدية العارفين ٥/ ٢١٥، كشف الظنون ٢/ ٩٣، الفصول ص ٥٠، ابن كثير، حياته ص ١٢٣.

وطبعت عدة مرات، وتقع في ٤١٢ صفحة مع المقدمة المطولة، والفهارس المتنوعة، كما سنبينه في الباب الثاني[١].

١٤ـ مختصر سيرة ابن كثير:

وهو اختصار وشرح محمد علي قطب، الذي صرح في مقدمته أنه اختصر السيرة النبوية الواردة في كتاب «البداية والنهاية» وجاء المختصر في مجلد واحد، ونشرته دار المسيرة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م، رقمه (ص ٦٢٥٥٨).

١٥ـ مناقب الإمام الشافعي:

تدل عبارات ابن كثير رحمه الله تعالى أن هذا الكتاب جزء من «طبقات الشافعية»[٢]، وذكر بعض المترجمين أنه كتاب مستقل[٣]، ويوجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة شستربتي رقم ٣٣٩٠ في مجموع (من ورقة ١ـ٣٧)[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٨، هدية العارفين ٥/ ٢١٥، الفصول ص ١٥، ابن كثير، حياته ص ١٠٦.

(٢) البداية والنهاية ٦/ ٢٥١، ١٠/ ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٤، ابن كثير، حياته ص ١٢٣.

(٣) طبقات المفسرين ١/ ١١١، النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣، المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، كشف الظنون ٢/ ٦٢٥، هدية العارفين ٥/ ٢١٥، الفصول ص ٥٦، ابن كثير، حياته ص ١٢٣.

(٤) معجم المؤرخين الدمشقيين ص ٢٠٧.

وطبعه الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر في مكتبة الإمام الشافعي، سنة ١٤١٢ هـ، كما قام الدكتور إبراهيم صندقجي إلى طبع جزء منه، بعنوان «المسائل الفقهية التي انفرد بها الإمام الشافعي دون إخوانه من الأئمة» في مكتبة العلوم والحكم سنة ١٤٠٦ هـ[1]، وأشرنا سابقاً إلى نشر كتاب «طبقات الشافعية» كاملاً، ومحققاً.

١٦ـ مولد رسول الله:

وهو رسالة صغيرة، عثر على مخطوطتها الدكتور صلاح الدين المنجد في مجموعة يهودا في جامعة برنستن بأمريكا، وتاريخ نسخها سنة ٧٨٦ هـ، وحققها الدكتور المنجد، وطبعت لأول مرة سنة ١٩٦١ م ـ في بيروت ـ الطبعة الأولى ـ دار الكتاب الجديد ـ ثم صورت عدة مرات، والطبعة الثالثة عام ١٩٧٧ م وتقع في ٤٤ صفحة[1]، ورقمها (ص ٦٦٤٢).

هذه كتب ابن كثير في السيرة والتراجم والرجال، وسوف نعود لبيان مضمونها وشرحها في الفصل الثالث من الباب الثاني بمشيئة الله تعالى.

هـ ـ كتب ابن كثير في الفقه:

كان ابن كثير رحمه الله تعالى فقيهاً، ومفتياً، ومدرساً، ومع ذلك

---

(١) معجم المؤرخين الدمشقيين ص ٢٠٦، التاريخ العربي والمؤرخون ٤/ ٨٥، ابن كثير، حياته ص ١١٥.

لم يكتب كثيراً في الفقه بشكل مباشر، ولم يصلنا إلا كتاب واحد، وهو رسالة في الجهاد، ولكنه تعرض لأحكام الفقه أيضاً في كتبه الحديثية، كأحاديث الأحكام، كما أنه نسب إليه كتابان آخران، وكتبه الفقهية هي:

١ـ الاجتهاد في طلب الجهاد:

وهو رسالة في الجهاد صغيرة، ويوجد منها نسختان خطيتان بمكتبة الأسد الوطنية بدمشق، الأولى مكتوبة سنة ٩٢٢ هـ، ورقمها ٤٥٢٧، والنسخة الثانية بخط معتاد وسيء، ورقمها ١١٠٠٧، كما يوجد منها نسخ أخرى في أمكنة أخرى، وثبتت نسبة الكتاب لابن كثير، وقال حاجي خليفة: «كتبها للأمير منجك لما حاصر الإفرنج قلعة إياس»[١].

وطبع هذا الكتاب مرتين: الأولى بتحقيق وتعليق عبد الله عبد الرحيم عسيلان، الطبعة الأولى ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة ١٩٨١ م، وتقع في ١٣٦ صفحة، ومعها فهارس متنوعة، (ص ١٨٩٧) وقدم لها المحقق بمقدمة عن فضل الجهاد وأهمية الكتاب (ص ٥ـ٧) وتمهيد عن الجهاد في سبيل الله وفضله، وحقيقته، والحاجة إليه (ص ٩ـ٢٠) وترجمة للحافظ ابن كثير (ص ٢٢ـ٣٤)،

---

(١) كشف الظنون ١/ ٥٠، وانظر: الفصول ص ٥٥، الباعث الحثيث ص ١٨، هدية العارفين ٥/ ٢١٥، إيضاح المكنون ٣/ ٢٦.

ثم بين نبذة عن كتاب «الاجتهاد» (ص ٣٥ـ٣٨) وثبت بآثار العلماء والمؤلفات حول الجهاد (ص ٣٩ـ ٤٦)، وصور عن مخطوطة الكتاب (ص ٤٧ـ٥٦) وفكرة عن النسخة المطبوعة قديماً بمصر (ص ٥٧ـ٥٨)، ثم نص الكتاب (ص ٦١ـ٩٨) وأخيراً المصادر (ص ٩٩) والفهارس (ص ١٠٩ـ١٣٦).

والطبعة الثانية: بتقديم وتحقيق محمد زينهم ـ القاهرة ـ دار الرشاد ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣ م، وتقع في ٥٥ صفحة، وبآخرها كشاف عام (ص ١٣٢٨٨١)[1].

ووصف الأستاذ محمود رزق سليم هذا الكتاب فقال: «وهو حث على القتال في سبيل الله، وفيه نبذ تاريخية مناسبة»، وقال أيضاً: «وذكر فِيه جانباً من الحروب الصليبية وحروب صلاح الدين»[2].

٢ـ كتاب السماع:

وهو كتاب في بيان حكم استماع الغناء في الإسلام، ذكره حاجي خليفة دون غيره[3].

---

(١) هاتان الطبعتان في العصر الحاضر، ويوجد طبعة قديمة بمصر، ولكنها مفقودة، وغير محققة.

(٢) عصر سلاطين المماليك ٤/ ١٤٤، ٣/ ١١٤.

(٣) كشف الظنون ٢/ ٣٣، الفصول ص ٥٣، ابن كثير، حياته ص ١٤٠.

٣ـ أحكام التنبيه:

سبق أن ذكرنا أن كتاب «التنبيه» في الفقه الشافعي للشيخ أبي إسحاق الشيرازي (٤٧٦ هـ) كان أهم مختصر في الفقه الشافعي، يدرسه الطلبة، ويحفظه العلماء، وهذا ما فعله ابن كثير رحمه الله تعالى.

ولعل هذا الكتاب «أحكام التنبيه» أول كتاب صنفه العلامة ابن كثير، لأن ابن العماد صرح بقوله عن ابن كثير: «ألف في صغره أحكام التنبيه»[1]، وقال الداودي أيضاً: صنف في صغره كتاب «الأحكام على أبواب التنبيه»[2]، وقال ابن حجر: «وألف في صغره أحكام التنبيه، فيقال: إن شيخه البرهان (الفزاري) أعجبه وأثنى عليه»[3].

وذكر ابن كثير هذا الكتاب، فقال في ترجمة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي سنة ٤٧٦ هـ: «وقد ذكرت ترجمته مستقصاة مطولة في أول

---

(١) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، وانظر: جلاء العينين ص ٣٤.

(٢) طبقات المفسرين ١/ ١١١، وهي عبارة ابن قاضي شهبة (طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧).

(٣) إنباه الغمر ١/ ٣٩، وانظر: هدية العارفين ٥/ ٢١٥، وقال ابن قاضي شهبة: «ووقف عليه شيخه برهان الدين وأعجبه» (طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧).

شرح التنبيه»[1]، ثم قام ابن كثير نفسه بتخريج أحاديث «التنبيه» في كتاب مستقل كما سبق.

وهذا الكتاب في الفقه الشافعي غير الكتاب السابق في الحديث، وهو «الأحكام الكبير» وهو كتاب مبسوط في الحديث، وصل فيه إلى كتاب الحج، ولم يتمه، ولعل ابن كثير عرض فيه أحاديث الأحكام التي تستنبط منها الأحكام الفقهية، وبين آراء الفقهاء فيها، ورتبه على أبواب الفقه، فالتبس الأمر على بعض العلماء، فقال الداودي بعد ذكر كتاب الفقه السابق: «وشرح قطعة كبيرة من التنبيه»، ثم قال: «وشرع في أحكام كثيرة حافلة، كتب منها مجلدات إلى الحج»[2]، وهذا ما اقتصر عليه ابن العماد فكان أدق وأصرح في التمييز بين الكتابين، فقال عن الثاني: «وشرع في أحكام كثيرة حافلة، كتب منها مجلدات إلى الحج»[3].

و ـ كتب ابن كثير في العقيدة والإيمان:

لم يصنف ابن كثير رحمه الله تعالى كتاباً في العقيدة. والإيمان وأصول الدين، ولكن تعرض لهذا الموضوع بإسهاب وتفصيل في كتابه «البداية والنهاية» وفي كتابه «تفسير القرآن العظيم».

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ١٢٥، وانظر: ابن كثير، حياته ص ١٣٤.
(٢) طبقات المفسرين ١/ ١١١.
(٣) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، وانظر: الفصول ص ٥٣ـ٥٤.

ولعل بعض المتأخرين أفردوا هذه البحوث بورقات مستقلة، وهي:

١ـ شعب الإيمان:

لم يرد لهذا العنوان ذكر في ترجمة ابن كثير، أو في كتبه ومصنفاته، وعندما كنت أبحث عن مخطوطات ابن كثير في «مكتبة الأسد الوطنية» بدمشق، وجدت هذا العنوان «شعب الإيمان لابن كثير» مخطوط برقم ٣٧٦٩، ٣ ق [١٠ـ١٢]، أي يقع في ثلاث ورقات.

وبعد طلب الفيلم والاطلاع عليه وجدته بدأ بالبسملة، والحمدلة، والشهادتين، ثم قال: وبعد: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢/٢٠٨] واختلف العلماء في قوله: «كافة»، ثم انتقل وقال: «وقال رسول الله ﷺ: الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها...» وعددها وشرحها حتى سطرين في أعلى ورقة ١٣/أ، ومكتوبة بخط قليل الإعجام.

ولعل ابن كثير شرح هذا الحديث في أحد كتبه فاستلها أحد النساخ وأفردها في ورقات، وضعت في المجموع السابق.

٢ـ كيف تكون مؤمناً؟ من تفسير الإمام الحافظ ابن كثير:

هذا بحث استل من كتاب التفسير كما هو مصرح في العنوان، وهو من إعداد وتعليق نشأت المصري ـ مطبوع بالقاهرة ـ المختار

الإسلامي ١٩٨٨ م، ويقع في ١٢٤ صفحة، (ص ١١١٧٢٧).

ز ـ الكتب والرسائل المفقودة:

عرض الدكتور الندوي بعض المؤلفات المجهولة والمفقودة لابن كثير، وبيّن إشارة ابن كثير لها في كتبه، ثم قام مصحح كتاب الندوي السيد مجد مكي، فأضاف رسائل وكتباً أخرى، ونكتفي هنا بتعدادها:

١ـ الحواشي على زيادات مسلم وروايات (البداية والنهاية ٣/ ٣، ٥/ ١٤٧، ١٤٩).

٢ـ زواج أم سلمة من رسول الله ﷺ وولاية الابن لأمه في عقد النكاح (البداية والنهاية ٤/ ٩٠ـ٩١).

٣ـ بطلان وضع الجزية عن يهود خيبر (البداية والنهاية ٤/ ٢١٩، ٥/ ٣٥٢، ١٢/ ١٠٢، ١٤/ ١٩).

٤ـ بيع أمهات الأولاد (البداية والنهاية ٥/ ٣٠٤).

٥ـ جزء في الأحاديث الواردة في المهدي (البداية والنهاية ٦/ ٢٤٧ـ٢٤٨) وذكره ابن كثير في «النهاية».

٦ـ إنكار رسول الله ﷺ الزواج من عزة بنت أبي سفيان (البداية ٥/ ٣٥٤، ٨/ ٢١، ١١٩).

٧ـ جزء في حديث كفارة المجلس (البداية ١١/ ٣٤).

٨ـ جزء في فضل يوم عرفة ذكره ابن كثير في تفسيره الآية ١٩٩ من البقرة (١/ ٢٤٣).

٩ـ جزء في الصلاة على النَّبي ﷺ في التشهد الأخير، ذكره ابن كثير في «مناقب الشافعي» في المسائل الفقهية التي انفرد بها، وأنها فرض عند الشافعي (المسائل الفقهية ص ٨٦ من زيادات المصحح مجد مكي).

١٠ـ جزء في الأحاديث الواردة في قتل الكلاب (البداية والنهاية ١٤/ ٢٢٧).

١١ـ آداب الحمامات، حققه الأستاذ الشيخ أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري (من زيادات المصحح).

١٢ـ ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، وعد ابن كثير بتصنيفه (البداية والنهاية ١٤/ ١٣٧، ١٤١).

١٣ـ أحاديث التوحيد ورد الشرك، نسبه إليه بروكلمان، وتبين أنه ليس لابن كثير[١].

١٤ـ أقوال العلماء في مبنى الصلاة الوسطى[٢].

---

(١) ابن كثير، حياته ص ١٤٢ـ١٤٩.

(٢) الكتب من رقم ١٤ـ٢٤ من زيادة المصحح، وقال: «وأكثرها مستفاد من تفسير ابن كثير، وانظر الإمام ابن كثير المفسر، للشيخ مطر الزهراني، انتهى من مصححه مجْد مكي» (ابن كثير، حياته ص ١٤٨).

١٥ـ كتاب صفة النار.

١٦ـ مسألة الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها.

١٧ـ مصنف في تحريم الجمع بين الأختين.

١٨ـ جزء في إسناد حديث الشفاعة.

١٩ـ جزء في تقصي حديث ابن عباس في فضل العمل في عشر ذي الحجة.

٢٠ـ كتاب الصيام.

٢١ـ جزء في تكذيب حديث ذكره الخطيب في تاريخه عن ابن عمر.

٢٢ـ جزء في دخول مؤمني الجن الجنة.

٢٣ـ جزء في فتح القسطنطينية.

٢٤ـ جزء في مسألة هل الأخوان تسمى إخوة؟.

الفَصْل السَّادِس

وفاة ابن كثير والثناء عليه

نصل في الفصل الأخير من السيرة الشخصية لابن كثير بالكلام عن نهايته، وهي نهاية كل إنسان، وعندها، وبعدها، تنطلق الألسنة بأوصاف الناس ونظرتهم إليه بالثناء والمدح، أو الذم والقدح، عافانا الله وأعاذنا من الأخير.

أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: «مُرَّ على النَّبي ﷺ بجنازة، فأثنوا عليه خيراً، فقال: (وَجَبَت)، ثم مُرَّ بأخرى، فأثنوا عليها شراً، أو قال غيرَ ذلك، فقال: (وَجَبَت) فقيل: يارسول الله، قُلتَ لهذا وَجَبَت، ولهذا وَجَبَت ؟ قال: شهادة القوم، المؤمنون شهداء الله في الأرض»[1].

وأخرج مسلم الحديث برواية أوضح وأصرح، عن أنس بن مالك قال: «مُرَّ بجنازةٍ فأُثني عليها خيراً، فقال نبي الله ﷺ: وَجَبَت، وَجَبَت، وَجَبَت، ومُرَّ بجنازةٍ فأُثني عليها شراً، فقال نبي الله ﷺ:

(١) صحيح البخاري ٢/ ٩٩٤ رقم ٢٤٩٩.

وَجَبَت، وَجَبَت، وَجَبَت، قال عمرُ: فَدَى لك أبي وأمي، مُرَّ بجنازة فأُثني عليها خيراً، فقلت: وجبَت، وجبَت، وجبَت، ومُرَّ بجنازة فأُثني عليها شراً، فقلت: وجبَت، وجبَت، وجبَت، فقال رسول الله ﷺ: مَنْ أثنيتم عليه خَيْراً وَجَبَت له الجَنَّةُ، ومَنْ أثنيتم عليه شراً وَجَبَت لَهُ النَّارُ، أنتم شُهداءُ الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض»[1].

وأخرج البخاري الحديث مرة أخرى واضحاً ومختصراً، عن أنس ابن مالك قال: «مَرُّوا بجنازةٍ فأثنوا عليه خيراً، فقال النَّبي ﷺ: وَجَبَت، ثم مَرُّوا بأخرى فأثْنوا عليها شراً، فقال: وَجَبَت، فقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: ما وَجَبَت؟ قال: هذا أثنيتم عليه خيراً، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً، فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض»[2].

وقبل أن نتحدث عن تحديد تاريخ الوفاة لابن كثير، والثناء عليه، نقدم ما حصل له قبل الموت.

فقدان البصر:

كان ابن كثير رحمه الله تعالى قد كُفَّ بصره في آخر عمره، قال ابن

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٧/ ١٨ـ١٩ كتاب الجنائز، باب من أثني عليه خير أو شر من الموتى.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٤٦٠ رقم ١٣٠١.

حجر: «وكان قد أُضِرَّ في أواخر عمره»[1] يعني فقد بصره في آخر حياته، ولم يحدد لنا تاريخ ذلك، ولعله كان في السنة الأخيرة أو السنوات الأخيرة من عمره.

وحدد محققا كتابه «الفصُول» ذلك سنة ٧٦٧ هـ فقالا: «وكان قد أُضِرَّ في آخر عمره، فأقعده العمى عن متابعة مهمته في متابعة الأحداث وكتابة التاريخ عند سنة ٧٦٧ هـ»[2]، أي أنه فقد بصره قبل سبع سنوات من وفاته، وساق المحققان نصاً من «البداية والنهاية» ليس فيه دلالة على ذلك، ولم يبينا مرجعاً لتحديده، إلا إذا كان التحديد استنباطاً من تحديد انتهاء تأليفه في «البداية والنهاية» وأنه توقف عند حوادث سنة ٧٦٧ هـ[3].

وليس المهم تقدير المدة التي مكث فيها الشيخ ابن كثير رحمه الله تعالى فاقد البصر، ولكن ذلك ثابت، وهو يدل على أمرين:

١ـ إن ابن كثير رحمه الله تعالى أتعب نفسه في حياته بالدراسة والمطالعة، ثم بالتأليف والتصنيف، والبحث والاطلاع، فكان ذلك سبباً مؤثراً في فقدان البصر، وهذا ضريبة العلم والبحث غالباً، وهو ـ إن فقد بصره ـ فقد بقيت بصيرته نافذة، وعقله وقاداً، وذهنه

---

(١) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠، وانظر: التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٢، الباعث الحثيث ص ١٨.

(٢) الفصول ص ٧٠.

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ٣٢١.

صافياً، وقدَّم للأمة والبشرية ـ قبل ذلك وبعده ـ نتاجاً ضخماً، وأثراً خالداً، وعلوماً جمة، وذكرى عطرة، وبقي اسمه يتردد على الألسنة في أقطار المعمورة، وينال الثواب والرحمة الدائمة المتواصلة.

وصرح ابن الجزري أحد تلاميذ ابن كثير عنه قائلاً: «لازلت أكتب فيه (جامع المسانيد) في الليل، والسراج ينونص حتى ذهب بصري معه»[1].

٢ـ إن فقدان البصر يدل على زيادة الابتلاء من الله تعالى للإنسان عامة، ولابن كثير العالم المحدث الحافظ خاصة، لما ثبت في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعتُ النَّبي ﷺ يقول: «إنَّ الله قالَ: إذا ابتَلَيْتُ عَبْدي بحَبِيبَتَيْه فصبر، عَوَّضْتُهُ منهما الجنَّة» يريد: عينيه[2].

وأخرج الإمام أحمد والترمذي والدارمي عن أبي هريرة رفعَه إلى النَّبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: من أذهبتُ حَبيبتَيْه، فصَبرَ، واحتسب، لم أرضَ له ثواباً دون الجنَّة»[3]، والمراد بالحبيبتين

---

(١) ابن كثير، حياته ص ١٨، عن المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد، في أول مسند الإمام أحمد بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ١/ ٤٠ ط: دار المعارف بالقاهرة.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢١٤٠، رقم ٥٣٢٩.

(٣) مسند أحمد ٢/ ٢٦٥، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٧/ ٨١، كتاب الزهد، باب ذهاب البصر، واللفظ له، سنن الدارمي ٢/ ٧٧٩ رقم ٢٦٩٢=

المحبوبتان، لأنهما أحب أعضاء الإنسان إليه، لما يحصل له بفقدهما من الأسف على فوات رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسر به، أو شر فيجتنبه، والصبر والاحتساب أن يصبر الإنسان مستحضراً ما وعد الله به الصابر من الثواب، فإذا تلقى ذلك بالرضا تمَّ له المراد[1].

ومن أولى من ابن كثير رحمه الله تعالى من الصبر والاحتساب، وتسليم الأمر لرب الأرباب، وتفويض الابتلاء لله تعالى استسلاماً ورضاء، لترتفع مكانته عند الله تعالى، ويلقى ربه راضياً مرضياً، لينعم ـ بإذن الله تعالى ـ بمقام الصابرين الذين يوفون أجرهم بغير حساب، في عليين والمقام الرفيع يوم القيامة.

وفاة ابن كثير:

اتفق المؤرخون على أن ابن كثير رحمه الله تعالى توفي بدمشق سنة ٧٧٤ هـ الموافق ١٣٧٣ م، وحدد أكثرهم ذلك في شعبان، يوم الخميس[2]، ثم وقع الاختلاف والاضطراب في تحديد تاريخ اليوم،

= كتاب الرقاق، باب فيمن ذهب بصره فصبر.

(١) تحفة الأحوذي ٧/ ٨٢ بتصرف واختصار.

(٢) النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣، الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠، إنباه الغمر ١/ ٤٠، شذرات الذهب ٦/ ٢٣٢، المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٧، ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١، الرد الوافر ص ٩٢، البدر الطالع ١/ ١٥٣، معجم المؤلفين ٢/ ٢٨٣، الأعلام ١/ ٣١٨، مجلة معهد المخطوطات العربية٢/ ١/ ١١٥، هدية العارفين ٥/ ٢١٥، طبقات=

فقال ابن حجر: «مات في شعبان سنة ٧٧٤ هـ»[١]، وقال في كتاب آخر: «مات بدمشق في خامس عشر شعبان»[٢]، وحدد الداودي بدقة أكثر، فقال: «مات في يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة»[٣]، وأيد ذلك ابن تغري بردى فقال: «وفيها (سنة ٧٧٤ هـ) توفي الشيخ... في يوم الخميس سادس عشرين شعبان»[٤]، وقال ابن تغري بردى أيضاً: «توفي يوم الخميس، سادس عشرين شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة بدمشق، عن أربع وسبعين سنة»[٥].

وأخطأ ابن ناصر حين حدد تاريخ وفاته سنة ٧٩٤ هـ، وخالف جميع المؤرخين، ولعله خطأ من النساخ[٦].

وحدَّد بعض المؤرخين مكان دفنه بدمشق في مقبرة الصوفية عند

= الشافعية ٢/ ٢٣٧، جلاء العينين ص ٣٤.

(١) الدرر ١/ ٤٠٠، ومثله النعيمي (الدارس ١/ ٣٧) وابن العماد (شذرات الذهب ٦/ ٢٣٢) والسيوطي (ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١).

(٢) إنباء الغمر ١/ ٤٠٠، وتابعه طاش كبري زاده (مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢) ومحمود رزق سليم (عصر سلاطين المماليك ٤/ ١٤٥).

(٣) طبقات المفسرين ١/ ١١١.

(٤) النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣.

(٥) المنهل الصافي ٢/ ٤١٥.

(٦) الرد الوافر ص ٩٢.

شيخه ابن تيمية[1]، وحدد ابن ناصر ذلك، فقال: «وتوفي سنة ٧٧٤ هـ، وكانت جنازته حافلة مشهودة، ودفن بوصية منه بتربة شيخ الإسلام ابن تيمية، بمقبرة الصوفية، خارج باب الصغير من دمشق»[2].

وهكذا شيعت دمشق ابنها البار الشيخ العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى بجنازة حافلة، اعترافاً بفضله وعلمه، وتقواه وآثاره، وكتبه وتصانيفه، ودفن بوصية منه عند أستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية لمحبته له، وتأثره به، وإخلاصه له في حياته وبعد وفاته، لينعم بجواره حياً وميتاً، ويأنس بذكراه.

ورثى الشيخَ ابن كثير أحد طلابه، فقال:

لفقدك طلابُ العلومِ تأسَّفوا وجادُوا بدمعٍ لا يبيدُ كثير
ولو مَزَجوا ماءَ المدَامعِ بالدِّما لكانَ قليلاً فيكَ يا ابنَ كثيرِ[3]

ولعلع هذين البيتين للعلامة بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي

---

(١) شذرات الذهب ٦/ ٢٣٢، طبقات المفسرين ١/ ١١١، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٨، الأعلام ١/ ٣١٨، مجلة معهد المخطوطات العربية ٢/ ١/ ١١٥، الدارس ١/ ٣٧.

(٢) الرد الوافر ص ٩٢، ومقبرة الصوفية اندرست في دمشق، ولم يبق منها إلا ثلاثة قبور تقع خلف دار التوليد الجديدة بدمشق في حديقة المستشفى الوطني (سابقاً) التابع لجامعة دمشق، وأحد هذه القبور الثلاثة لشيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ، (الفصول ص ٧١ هامش ٢).

(٣) النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٤، المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، الفصول ص ٧١.

(٧٩٤ هـ) الذي جاء في ترجمته أنه «رحل إلى دمشق فأخذ عن ابن كثير في الحديث، وقرأ عليه مختصره، ومدحه ببيتين»[١].

وتنتهي رحلة الشيخ ابن كثير رحمه الله تعالى بعد أن أدى الأمانة، وحقق الوظيفة المنوطة به، ليسلم الروح إلى بارئها، وليخضع لقدر الله تعالى ومشيئته في الموت الذي قهر الله به العباد، وجعله أكبر العبر للناس، ليرحم به عباده من الحياة الدنيا، وينقلهم إلى الحياة البرزخية، استعداداً للحياة الأبدية يوم البعث والحشر والنشور والقيامة لرب العالمين، ثم للحساب والجزاء حسب الأعمال التي قدمها الإنسان.

وإن في الموت عبرة للأحياء، ورحمة للأموات، وتذكيراً للناس للاستعداد له، ومحاسبة النفس قبل أن تحاسب، واستدراك ما فات، وتحسين الأعمال الصالحة التي تنفع صاحبها، وتنفع الناس والمجتمع والإنسانية، نسأل الله تعالى أن يحيينا مادامت الحياة خيراً لنا، وأن يميتنا ما دام الموت خيراً لنا، وأن يحسن ختامنا، وأن يتوفانا على الإيمان والإسلام.

وهذا الموت حقيقة مطلقة لكل مخلوق، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٦-٢٧].

---

(١) الدرر الكامنة ٤/ ١٨، ابن كثير، حياته ص ١٨، وانظر ترجمة الزركشي في كتابنا (مرجع العلوم الإسلامية ص ٥٩٩ والمصادر المشار إليها في الهامش).

الثناء على ابن كثير:

تبوأ ابن كثير رحمه الله تعالى المكانة العلمية في عصره، واعترف له أشياخه بعلمه وفضله ومكانته وحفظه، وأثنى عليه معاصروه ثناء عطراً، وسطر تلاميذه صفاته وآثاره، وسجل المؤرخون وعلماء الرجال والتراجم والمصنفون مزاياه الرفيعة، وأوصافه الحميدة، وترحموا عليه، ودعوا له، وكل ذلك قليل أمام أثره الكبير، وفضله العميم، وثوابه الدائم المستمر عند الانتفاع بعلمه وكتبه، وخاصة «التفسير» و «البداية والنهاية» في التاريخ.

ونقتطف هنا باقة من أقوال العلماء والمصنفين فيه، مبتدئين بشيخه الذهبي، ثم بتلاميذه، ثم من بعدهم:

١ـ ذكر الحافظ مؤرخ الإسلام الذهبي (٧٤٨ هـ) ابن كثير في «طبقات الحفاظ» فقال: «وسمعت مع الفقيه المفتي المحدث ذي الفضائل عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البُصروي الشافعي، ... وله عناية بالرجال والمتون والتفقه، خرَّج وألَّف، وناظر وصنَّف، وفسَّر وتقدم»[1].

والذهبي رحمه الله تعالى من شيوخ ابن كثير، ومات قبله بست وعشرين سنة، وقال الذهبي أيضاً في «معجمه المختص» عن ابن كثير رحمه الله تعالى: «الإمام، الفقيه، المحدث، الأوحد، البارع، عماد

---

(١) طبقات الحفاظ ٤/١٥٠٨.

الدين البُصروي الشافعي. . . ، فقيه متقن، ومحدث متقن، ومفسر نقال[1]، وله تصانيف مفيدة، يدري الفقه، ويفهم العربية والأصول، ويحفظ جملة صالحة من المتون والتفسير والرجال وأحوالهم، سمع مني، وله حفظ ومعرفة، يدمج قراءته، مولده سنة نيف وسبعمائة»[2].

وهذه شهادة قيمة من الشيخ مؤرخ الإسلام لتلميذه، وهي أوسمة فخار، والشيخ أدرى الناس بتلاميذه، وهي تاج عز من الذهبي، وكل ما سيقال فهو تبع له.

٢ـ وترجم تلميذُ ابن كثير، الحافظ أبو المحاسن الحسيني (٧٦٥ هـ) لشيخه فقال: «الشيخ الإمام، العالم الحافظ، المفيد البارع، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. . . ، وأفتى ودرس وناظر، وبرع في الفقه والتفسير والنحو، وأمعن النظر في الرجال والعلل. . . »[3].

---

(١) هكذا وردت العبارة في المصدر المحقق بعد الطباعة، ولكن الحسيني وغيره نقلوها عن الذهبي فقال: «فقيه متقن، ومحدث محقق، ومفسر نقاد» (ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠، طبقات المفسرين ١/ ١١١، المنهل الصافي ٢/ ٤١٦، ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٨، التفسير والمفسرون ٢/ ٢٤٣.

(٢) معجم محدثي الذهبي ص ٥٦.

(٣) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨.

٣ـ وقال تلميذه الحافظ المؤرخ أحمد بن حِجّي (٨١٦ هـ): «كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بتخريجها ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وكان يستحضر شيئاً من الفقه والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيهاً جيد الفهم، صحيح الذهن، يحفظ «التنبيه» إلى آخر وقت، ويشارك في العربية مشاركة جيدة، وينظم الشعر، وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه، وقد لازمته ست سنين»[1].

٤ـ وقال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي (٨٤٢ هـ) عن ابن كثير: «الإمام العلامة الحافظ عماد الدين، ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين أبو الفداء. . . له مصنفات»[2].

٥ـ وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) عن ابن كثير رحمه الله تعالى: «كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته. . .» ثم نقل قول الذهبي فيه[3]، وترجم له ترجمة مطولة في كتابه الآخر «إنباه الغمر بأبناء العمر»[4].

---

(١) طبقات المفسرين ١/ ١١١، وانظر: إنباه الغمر ١/ ٣٩، الدارس ١/ ٣٦، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٨، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، شذرات الذهب ٦/ ٢٣٢.

(٢) الرد الوافر ص ٩٢.

(٣) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠.

(٤) إنباه الغمر بأبناء العمر ١/ ٣٩ وما بعدها.

٦ـ **وقال المؤرخ أبو طاهر ابن حبيب الحلبي (٧٧٩ هـ)** عن ابن كثير رحمه الله تعالى: «إمام ذوي التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بأقواله وشنَّف، وحدَّث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير»[١].

٧ـ **وقال العلامة العيني**، فيما نقله عن ابن تغري بردى: «كان قُدوة العلماء والحفاظ، وعُمدة أهل المعاني والألفاظ، وسَمع وجمع، وصنف ودرَّس، وحدَّث وألَّف، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير، وله مصنفات عديدة مفيدة»[٢].

٨ـ **وقال ابن تغري بردى (٨٧٤ هـ)** في سنة ٧٧٤ هـ: «وفيها توفي الإمام الحافظ المؤرخ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل...» وذكر نبذة من حياته[٢]، وقال في كتاب آخر: «الشيخ الإمام عماد الدين أبو الفداء... الحافظ، المفسر، المؤرخ، المعروف بابن كثير...، وجمع وصنَّف، ودرَّس وحدَّث، وألَّف، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والفقه والعربية، وغير ذلك، وأفتى ودرَّس إلى أن توفي...»[٣].

---

(١) إنباه الغمر ١/ ٣٩ـ٤٠، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٢، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١.

(٢) النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣.

(٣) المنهل الصافي ٢/ ٤١٥.

٩ـ وقال ابن قاضي شهبة: «وأقبل على علم الحديث...، وأخذ...، وقرأ...، وسمع الكثير، وأقبل على حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد والعلل والرجال، والتاريخ حتى برع في ذلك وهو شاب، وصنف في صغره»[١].

١٠ـ وقال الحافظ جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) في ترجمة ابن كثير رحمه الله تعالى: «الإمام المحدث الحافظ، ذو الفضائل، عماد الدين...»[٢].

١١ـ وقال الحافظ شمس الدين الداودي (٩٤٥ هـ) في ترجمة ابن كثير رحمه الله تعالى: «الحافظ عماد الدين...، كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة المعاني والألفاظ...، وأقبل على حفظ المتون ومعرفة الأسانيد والعلل والرجال والتاريخ حتى برع في ذلك، وهو شاب»[٣].

١٢ـ وقال طاش كبري زادة (٩٦٨ هـ) عن ابن كثير رحمه الله تعالى: «الفقيه الشافعي، الحافظ عماد الدين...، وكان كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم،... وصنف التصانيف الكثيرة في التفسير والتاريخ والأحكام»[٤].

١٣ـ وقال المؤرخ الفقيه الأديب ابن العماد الحنبلي في سنة ٧٧٤ هـ:

---

(١) طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧.
(٢) ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١.
(٣) طبقات المفسرين ١/ ١١٠.
(٤) مفتاح السعادة ١/ ٢٥١، ٢٥٢.

«وفيها توفي الحافظ الكبير عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير. . .، وكان كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم، يشارك في العربية، وينظم نظماً وسطاً»[1].

١٤ـ وقال الشوكاني (١٢٥٠ هـ) في ترجمة ابن كثير: «وبرع في الفقه والتفسير والنحو، وأمعن النظر في الرجال والعلل. . .، وأفتى ودرَّس، وله تصانيف مفيدة، منها «التفسير» المشهور، وهو في مجلدات، وقد جمع فيه فأوعى، ونقل المذاهب والأخبار والآثار، وتكلم بأحسن كلام وأنفسه، وهو من أحسن التفاسير، إن لم يكن أحسنها. . .، وله التاريخ المشهور، وقد انتفع الناس بمصنفاته، ولاسيما التفسير»[2].

١٥ـ وقال الشريف الكتاني (١٣٤٥ هـ): «الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير. . .، المحدث المتقن البارع، ذو الفضائل والتصانيف التي سارت في البلاد في حياته»[3].

١٦ـ وقال الزركلي: «أبو الفداء، عماد الدين، حافظ، مؤرخ، فقيه»[4]، وقال عمر رضا كحالة عنه: «محدث، مؤرخ، مفسر، فقيه»[5].

---

(١) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١.
(٢) البدر الطالع ١/ ١٥٣.
(٣) الرسالة المستطرفة ص ١٧٥.
(٤) الأعلام ١/ ٣١٨.
(٥) معجم المؤلفين ٢/ ٢٨٣.

١٧ـ ويقول الدكتور مصطفى عبد الواحد: «وقد اشتهر ابن كثير بالضبط والتحري والاستقصاء، وانتهت إليه في عصره الرياسة في التاريخ والحديث والتفسير»[١].

١٨ـ وإني أقول عن ابن كثير: المحدث، المؤرخ، المفسر، الفقيه، العالم، الداعية، المصلح، المجاهد، التقي، الورع، المخلص، الطيب الذكر، الغائب بجسمه، الحي الحاضر بروحه وعلمه.

وما لم يُقَل في ابن كثير أكثر وأفضل مما قيل، فألسنة الناس، والقراء، وطلاب العلم، والعلماء بالملايين يلهجون بذكره في كل مكان وعصر، وينتفعون بعلمه وكتبه، وموائد الدراسة والبحث معطرة باسمه، ليبقى ثوابه مستمراً، وذكراه حية ماثلة، وفضله عاماً، رحمه الله تعالى، وأجزل ثوابه، ونفعنا ـ والمسلمين ـ بعلمه، وجمعنا وإياه تحت لواء سيدنا محمد ﷺ في الفردوس الأعلى.

خاتمة الباب الأول:

وإلى هنا ننتهي من السيرة الشخصية العطرة لابن كثير رحمه الله تعالى، وهي سيرة واضحة، مشرقة، نيِّرة، ترفع الرأس، وتدعو للتأسي والاقتداء، وتمثل صورة وضاءة في تاريخ هذه الأمة، وتعطي ومضة سريعة عن حلقة من الأجيال الإسلامية، ابتداء من السلف، وحتى عصرنا الحاضر، وإلى المستقبل، لتبقى شعلة النور والإيمان

---

(١) السيرة النبوية، المقدمة ١/٧.

والإسلام مضيئة إلى أن تقوم الساعة، ويرث الله الأرض ومن عليها.

لما ثبت في الحديث الصحيح عن معاوية رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمرُ الله، وهم ظاهرون على الناس»[1].

---

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري (٣/ ١١٣٤ رقم ٢٩٤٨، ٣/ ١٣٣١ رقم ١٤٤٢) ومسلم (١٣/ ٦٦ كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق).
وروى مسلم (١٣/ ٦٥) والترمذي وابن ماجه عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك» ورواه البخاري (٣/ ١٣٣١) ومسلم (١٣/ ٦٦ كتاب الإمارة) عن المغيرة رضي الله عنه بلفظ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون» ورواه الحاكم (٤/ ٤٤٩، ٤٥٠) عن عمر رضي الله عنه بلفظ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» (انظر الفتح الكبير ٣/ ٣٢١).



الباب الثاني

السيرة العلمية لابن كثير

إن السيرة الشخصية لصيقة بالإنسان، ويندر أن يستفيد منها غيره إلا في بعض الجوانب، ويغلب عليها الطابع التاريخي.

أما السيرة العلمية فإنها تغذي القلب والفكر والعقل، وتكشف عن المكانة العلمية ـ حقيقة ـ لصاحبها، وهي صلة الوصل مع الأجيال اللاحقة، وهي مناط الانتفاع الدائم، وتكون حلقة في البناء العلمي.

والواقع فإن مكانة ابن كثير رحمه الله تعالى تكمن في إنتاجه العلمي، وكتبه النافعة المفيدة، أكثر بكثير من سيرته الشخصية التي كان لها تأثير محدود في حياته، وبعد وفاته، أما كتبه فسارت بها الركبان بمجرد تصنيفها، وشاعت في البلاد، ورسمت السمعة الطيبة لابن كثير في العالم العربي والإسلامي، ثم توسعت هذه المكانة العلمية بعد وفاته، وتوثقت صلة الناس به، وأصبحت كتبه مضرب المثل، وحديث العلماء، وطلاب العلم، ومجالس الدراسة، وخاصة كتابه في التفسير، وكتابه في التاريخ، وكتابه «اختصار علوم الحديث» وهي

أشهر كتبه التي طبعت في العصر الحاضر، وتداولها الناس، واعتمد عليها الباحثون والقراء.

وإن ابن كثير رحمه الله تعالى لا يقل مكانة في علم رجال الحديث وعلله عن التفسير والتاريخ، ومع ذلك فإن كتبه القيمة في ذلك لا تزال حبيسة المخطوطات، ولم ترَ النور، ولم تنتشر قديماً وحديثاً كما انتشر تفسيره، وكتابه في التاريخ.

وتظهر في السيرة العلمية لابن كثير صفحة منسية أخرى، يندر من تعرض لها، وهي الجانب الفقهي، فكانت آثاره فيها محدودة، وضاعت معظم كتبه، ولم يصل إلينا إلا رسالته الموجزة «الاجتهاد في طلب الجهاد»، ولكن تبقى السمة الفقهية بارزة في التفسير عند تناوله آيات الأحكام، كما ويؤكدها ممارسته للفتوى، ومشاركته في بيان المسائل المعضلة وحلها، كما يركز في تاريخه على تراجم الأئمة والفقهاء والقضاة، مما يدل على ميله إليهم، وصلته بهم.

لكل ما سبق وجدنا أن السيرة العلمية لابن كثير تتبلور في خمس صور، أفردنا لكل منها بحثاً مستقلاً في هذا الباب الثاني الذي جاء في خمسة فصول، وهي:

الفصل الأول: ابن كثير والتفسير.

الفصل الثاني: ابن كثير وعلوم الحديث.

الفصل الثالث: ابن كثير وعلم التاريخ.

الفصل الرابع: ابن كثير وعلم السيرة والتراجم.

الفصل الخامس: ابن كثير وعلم الفقه.

وسوف نعرض نبذة مختصرة عن هذه السمات العلمية لابن كثير، معتمدين على الوصف أولاً، والتحليل ثانياً.

ونسأل الله التوفيق والسداد.

الفَصل الأول

ابن كثير والتفسير

علم التفسير:

إن علم التفسير أحد علوم القرآن التي تعتبر أهم العلوم الشرعية على الإطلاق، وهي من العلوم الضرورية التي يحتاج إليها ـ كلياً أو جزئياً ـ كل مسلم، لأن القرآن الكريم هو الدعامة الأولى للعقيدة الإسلامية، والركيزة المتينة لبناء الإسلام، والمنبع الصافي للأخلاق، والمصدر الرئيس للعبادات والتشريع، والمعاملات والأحكام، وهو الباعث المحرك لكل تقدم أو حضارة أو مدنية أو رقي للمسلمين، في الماضي والحاضر والمستقبل، وأنه الدستور الخالد المقدس في الأرض[1].

وعلم تفسير القرآن الكريم أهم جانب في علوم القرآن، وهو أهم علوم القرآن، لما فيه من فائدة علمية لجميع الناس، سواء كانوا قراء، أم علماء، أم من العوام، لأنه يتعلق بالقرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى هداية للناس، ورحمة ونوراً، وهو كتاب المسلمين الأول،

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا: مرجع العلوم الإسلامية ص ١٤١.

ورسالة السماء النقية الصافية الخالدة، المحفوظة من التغيير والتبديل والتحريف، حتى تقوم الساعة، وهو سر وجود المسلمين وبقائهم وحياتهم ونهضتهم، ومتى وضع في التطبيق والعمل حقق الثمار اليانعة، والنتائج المذهلة، والتقدم والحضارة، والعزة والنصر[1].

ويتوقف الانتفاع بالقرآن الكريم ـ أولاً وأخيراً ـ على تفسيره الذي يبين معاني كلام الله تعالى الذي أمرهم بتدبره، وتفهم معانيه، ومعرفة أحكامه، ليدركوا عظمة الله تعالى، وفضله عليهم، وحقه عندهم، وليقوموا بما أمرهم به، ويجتنبوا ما نهاهم عنه، ويقفوا عند حدوده، ويقيموا مقاصده، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [صٓ: ٣٨/ ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٤/ ٨٢].

ولا يوجد كتاب في الدنيا ـ قديماً وحديثاً ـ لقي من العناية والرعاية والاهتمام والحفظ، والانكباب عليه، والدراسة حوله، والبحث فيه، ما لقي القرآن الكريم، مما عرف بعلوم القرآن جملة، وعدد من العلوم تفصيلاً، ويأتي في مقدمتها علم التفسير.

قال ابن كثير ـ مبيناً أهمية التفسير ـ: «ذكر البخاري رحمه الله تعالى (في كتابه صحيح البخاري) فضائل القرآن بعد كتاب التفسير، لأن التفسير أهم، فلهذا بدأ به، فجرينا على منواله وسنته، مقتدين به»[2].

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٧.

(٢) فضائل القرآن ص ٢.

وقال أيضاً: «فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه»[1].

إسهام ابن كثير في التفسير:

عرضنا سابقاً تسعة كتب مطبوعة تتعلق بالتفسير وعلوم القرآن الكريم لابن كثير، ولكنها في حقيقتها وجوهرها كتاب واحد.

فابن كثير رحمه الله تعالى لم يصنف إلا كتاباً واحداً، هو «تفسير القرآن العظيم» الذي طبع غالباً في أربع مجلدات كبيرة، وصنف ابن كثير ذيلاً له بعنوان «فضائل القرآن الكريم» وطبع مع الكتاب الأول في معظم الأحيان، ووجدت بعض النسخ الخطية تجمع بينهما، كما طبع كل منهما منفرداً أو مستقلاً في أحيان أخرى.

ونقتصر ـ في هذه الدراسة ـ على بيان الكتاب الأصلي «تفسير القرآن العظيم» ثم نعقب الكلام على ذيله «فضائل القرآن»، ثم نلقي إطلالة على الكتب التي تفرعت عن ذلك.

بدأ ابن كثير رحمه الله تعالى اهتمامه بالقرآن الكريم من الصغر، فختمه وحفظه وهو في السنة الحادية عشرة من عمره، وكان اهتمامه بالآثار وعلم السلف باعثاً له على معرفة أقوالهم في كتاب الله تعالى، كما كانت دراسته الفقهية المتفتحة والنيرة مساعداً له على تحري

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣، وانظر: تفسير الطبري ١/ ٣٥، ٣٦، التفسير بالمأثور ص ١٩، بحوث في أصول التفسير ص ٦٤ـ٦٥.

الأحكام الشرعية من مصدرها الأول «القرآن الكريم»، والتعمق في «آيات الأحكام»، كما تملك أدوات البحث في فهم كلام الله تعالى، وخاصة مشاركته الجيدة في علوم اللغة العربية، وآدابها، وممارسة التأليف والتصنيف فيها، وتوفرت فيه شروط المفسر لكتاب الله تعالى، كما بينها الأئمة والعلماء، وخاصة ابن جرير الطبري (٣١٠ هـ)، وأستاذ ابن كثير مباشرة الذي صاحبه ولازمه، وكانت له خاصية فيه، وتأثر بعلمه وهو شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨ هـ)[١]، فوجد ابن كثير نفسه مطالباً شرعاً بالإسهام في خدمة كتاب الله تعالى، وبيانه للناس، وتوضيحه لهم، وجمع المفيد من أقوال العلماء فيه، فصنف كتابه القيم «تفسير القرآن العظيم» الذي نلقي بعض الأضواء عليه.

قال ابن تغري بردى عن ابن كثير: «وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك»[٢]، وهذه العلوم تأهل وتساعد على تفسير القرآن العظيم.

لكن ابن كثير رحمه الله تعالى لم يبين الباعث له على كتابة التفسير، إلا ما ذكره من كلام عام بواجب العلماء في ذلك: «فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله تعالى، وتفسير ذلك، وطلبه من

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١/ ٥، ٣٢ وما بعدها، مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٣٨ وما بعدها، أصول التفسير، العك، ص ٤٥ وما بعدها.

(٢) المنهل الصافي ٢/ ٤١٥.

مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه»[١]، فوجد نفسه أهلاً لذلك، وهو أحد العلماء المعنيين بنصه، كما لم يحدد ابن كثير مشايخه في التفسير، ولم يقدم لائحة بكتب التفسير التي تأثر بها، وتخرج منها، واعتمد عليها، إلا ما ذكره داخل كتابه، ونقل منه عند الحاجة، كما سنوضحه بعد قليل.

أهمية تفسير ابن كثير:

يعتبر تفسير ابن كثير من خير كتب التفسير، واحتل مكانة مرموقة في المكتبة الإسلامية، وشهد له العلماء بذلك، وذاع صيت هذا الكتاب، وتداولته الأيدي قديماً وحديثاً، على مختلف المستويات العلمية والشعبية والدينية[٢]، وطبع الكتاب مرات كثيرة[٣]، بطبعات مستقلة في أربع مجلدات كبيرة من القطع العادي، وفي آخره فضائل القرآن. كما طبع مع غيره أحياناً كطبعته مع تفسير البغوي مرة ومع تفسير البيان في مقاصد القرآن لحسن صديق القنوجي البخاري مرة أخرى[٤]، وطبع مستقلاً بدار الأندلس في بيروت في سبع مجلدات.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣.

(٢) انظر كشف الظنون ١/ ٣٠٥.

(٣) يوجد في مكتبة الأسد وحدها إحدى عشرة طبعة لتفسير ابن كثير من دمشق، وبيروت، والقاهرة.

(٤) طبع تفسير ابن كثير مع فتح البيان بالقاهرة، الطبعة الأولى، بالمطبعة الكبرى الميرية ١٨٨٢ م، في عشر أجزاء، ضمن ٥ مجلدات.

يقول السيوطي: «له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثلُه»[1].

ويقول الشوكاني: «وله تصانيف مفيدة، منها: التفسير المشهور، وهو في مجلدات، وقد جمع فيه فأوعى، ونقل المذاهب والأخبار والآثار، وتكلم بأحسن كلام وأنفسه، وهو من أحسن التفاسير»[2]، ومما يؤكد أهمية تفسير ابن كثير عكوف العلماء عليه، وقيامهم باختصاره في عصره، فقد لخصه في نصف حجم الأصل شمس الدين محمد بن علي البعلي المعروف بابن اليونانية (٧٠٧ـ٧٩٣ هـ)، ثم اختصره عفيف الدين بن سعيد الدين بن مسعود الكازروني (المتوفى حوالي ٩٤٠ هـ) في كتابه البدر المنير، وطبع هذا المختصر الأخير، وعلى هامشه أصله سنة ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧ م[3].

ويقول الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر: «فإن تفسير ابن كثير أحسن التفاسير التي رأينا، وأجودها وأدقها، بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري»[4].

ويقول الدكتور الشيخ الذهبي: «كان ابن كثير على مبلغ عظيم من العلم، وقد شهد له العلماء بسعة علمه، وغزارة مادته، خصوصاً في

---

(١) ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١.

(٢) البدر الطالع ١/ ١٥٣.

(٣) ابن كثير، حياته ص ٩٢.

(٤) عمدة التفسير ١/ ٥، وانظر تعريفاً كاملاً بتفسير الطبري في كتابنا «الإمام الطبري» من سلسلة أعلام المسلمين ص ١٢٠ وما بعدها.

التفسير والحديث والتاريخ. . ، وعلى الجملة فعلم ابن كثير يتجلى بوضوح لمن يقرأ تفسيره، أو تاريخه، وهما من خير ما أَلَّف، وأجود ما أخرج للناس»[1].

ويقول الشيخ محمد كريم راجح: «وكنت أرى أن تفسير القرآن الكريم للإمام الجليل، الحافظ عماد الدين. . . ، كتاب جمع فأوعى، ففيه الدراية والرواية. . . ، وكان مما منَّ الله به أن جعل هذا التفسير فتحاً، فكان محبباً إلى القلوب، قريباً من الأفكار، عبارته سهلة، وعرضه ظاهر، وأهدافه واضحة. . . »[2].

ويقول الشيخ محمد نسيب الرفاعي: «وتفسير ابن كثير هذا غني عن التعريف، إذ يكاد أن يكون التفسير الوحيد الذي حرص صاحبه رحمه الله تعالى على أن يكون تفسيراً غير مختلط بأي علم آخر. . . فهو تفسير للتفسير فقط. . . ، ويرجو بذلك أن يصل إلى غاية سامية جليلة، وهي تعيين مراد الله تعالى من كلامه العظيم، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً»[3].

ويقول الدكتور محمد لطفي الصباغ: «وتفسير ابن كثير تفسير جيد، انتفع الناس به قديماً وحديثاً، وذلك عائد إلى سلامة منهجه، وإخلاص مؤلفه، وسهولة المراجعة فيه. . . ، إنه من أشهر كتب

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٣.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، راجح ١/ ٥.

(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، المقدمة ١/ ٦ـ٧.

التفسير بالمأثور، وأكثرها شيوعاً وانتشاراً بين الناس، وزادت المطابع في عصرنا من شهرته، فطبع أكثر من مرة، وفي أكثر من بلد، مستقلاً حيناً، ومع تفسير آخر حيناً آخر»[1].

التفسير المأثور:

تناول العلماء تفسير القرآن الكريم بأوجه متعددة، ومناهج كثيرة، وغايات مختلفة، ولذلك تنوعت التفاسير بحسب أوجه التفسير، وأنواع التفسير بحسب مصدره، وأنواع التفسير بحسب المنهج العلمي، وأنواع التفسير من الناحية الموضوعية[2].

وينقسم التفسير بحسب المنهج العلمي الذي سلكه العلماء إلى قسمين:

الأول: التفسير المأثور: وهو تفسير القرآن الكريم بالاعتماد على النقل والرواية والأخبار، ويشمل تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وتفسير القرآن من الصحابة، وأضاف كثيرون إلى ذلك: ما نقل من التفسير عن التابعين[3].

---

(١) بحوث في أصول التفسير ص ٦٣، ٦٤.

(٢) انظر أنواع التفسير في كتابنا (مرجع العلوم الإسلامية ص ١٥٦ وما بعدها).

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩، التفسير والمفسرون ١/ ١٥٢، البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٧٢، التفسير ورجاله ص ١٣، ١٤، محاضرات في علوم القرآن ص ١٤٨، التفسير بالمأثور ص ٢٩ وما بعدها.

والتفسير بالمأثور أول أنواع علوم القرآن تدويناً، وروي أولاً مع الحديث، ثم انفصل عنه، واستقل[1].

وأشهر كتب التفسير بالمأثور تفسير الطبري، وتفسير السمرقندي، وتفسير الثعالبي، وتفسير البغوي، وتفسير ابن عطية، وتفسير ابن كثير، وتفسير السيوطي.

الثاني: التفسير بالرأي: وهو تفسير القرآن بالاجتهاد، بالاعتماد على كلام العرب، ودلالة الألفاظ، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، ومعرفة مقاصد الشريعة، وبقية الأدوات التي يحتاج إليها المفسر، وما تشير إليه الآيات من الدلائل، وفيه التفسير بالرأي المحمود، والرأي المذموم.

وأهم كتب التفسير بالرأي: تفسير الرازي، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، وأبي حيان التوحيدي، والألوسي، وتفسير أبي حيان الأندلسي[2].

ويظهر مما سبق أن تفسير ابن كثير يصنف مع كتب التفسير بالمأثور، واشتهر ذلك على الألسنة، وعرف بين الناس بهذه الصفة الحميدة.

---

(١) انظر قيمة التفسير بالمأثور، وتدوينه، وأشهر الكتب المؤلفة فيه، في كتاب «التفسير بالمأثور ومناهج المفسرين فيه» ص ٥٧، ٨٧، ٩١.

(٢) انظر التعريف بمعظم هذه التفاسير في كتابنا «مرجع العلوم الإسلامية» ص ٢٠٦ وما بعدها.

يقول الدكتور الشيخ محمد حسين الذهبي: «تفسير ابن كثير من أشهر ما دُوِّن في التفسير المأثور، ويعتبر في هذه الناحية الكتاب الثاني بعد كتاب ابن جرير، اعتنى فيه مؤلفه بالرواية عن مفسري السلف، ففسر فيه كلام الله تعالى بالأحاديث والآثار مسندة إلى أصحابها، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحاً وتعديلاً»[1].

ويقول أيضاً: «وبالجملة، فإن هذا التفسير من خير كتب التفسير بالمأثور، وقد شهد له بعض العلماء»[2].

والتفسير بالمأثور أحسن طرق التفسير، وأصحها معنى، وأعلاها درجة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمِل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بُسِط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له»[3].

منهج ابن كثير:

عرض ابن كثير منهجه في التفسير في مقدمة كتابه، بعد أن طرح السؤال التالي: «فإن قال قائل فما أحسن طرق التفسير؟» وأجاب:

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٤، وانظر: التفسير بالمأثور ص ٩٩.
(٢) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٧.
(٣) مقدمة في أصول التفسير ص ٩٣.

«فالجواب أن أصح الطرق[1] في ذلك أن يفسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه بُسِطَ في موضع آخر».

«فإنْ أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل لقد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن...».

«والغرض: أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده، فمن السنة، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «فبم تحكم؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي، فضرب رسول الله ﷺ وقال: الحمد لله الذي وَفَّق رسول رسول الله لما يُرضي رسول الله» وهذا الحديث في المسند، والسنن بإسناد جيد...»[2].

«وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك

---

(1) في الأصل: الطريق، والتصويب من مقدمة في أصول التفسير ص ٩٣، وانظر: بحوث في أصول التفسير ص ٦٧.

(2) هذا الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند ٥/ ٢٤٢)، وأبو داود (٢/ ٢٧٢ كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء)، والترمذي (٤/ ٥٥٦ كتاب الأحكام، باب القاضي كيف يقضي)، وقال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي بمتصل»، والدارمي (١/ ٦٥) وضعف البخاري الحديث، وأنكره ابن حزم، فالحكم على صحة الحديث فيه اختلاف وتفصيل، ولكن معناه صحيح باتفاق وإطلاق، صح هذا الحديث أم لم يصح، وانظر: مقدمة في أصول التفسير ص ٩٥ هامش.

إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحـوال التـي اختُصـوا بهـا، ولمـا لهـم مـن الفهـم التـام والعلـم الصحيح، والعمل الصالح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم»[1].

ثم قال ابن كثير: «فصل: إذا لم تجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير...، وكسعيد بن جُبَيْر، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب...»[2].

ثم قال ابن كثير: «فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام...»[3].

ونلاحظ من منهج ابن كثير رحمه الله تعالى أنه يحدد طريقة التفسير بالمأثور، ويلتزم بها، ولذلك عرف هذا التفسير بأنه أهم كتب التفسير بالمأثور.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣ مع الاختصار، والنص منقول حرفياً عن ابن تيمية رحمه الله تعالى في: مقدمة أصول التفسير ص ٩٣ وما بعدها.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤، وانظر: مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٢ وما بعدها.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥، وانظر: مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٥ وما بعدها، بحوث في أصول التفسير ص ٦٧ وما بعدها، ابن كثير، حياته ص ٨٧.

خلاصة منهج ابن كثير:

ونستطيع أن نستخلص منهج ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره بالنقاط التالية:

١- **تفسير الآية بعبارة سهلة، وبأسلوب مختصر،** يوضح المعنى العام للآية.

٢- **تفسير الآية بآية أخرى إن وجدت،** حتى يتبين المعنى، ويظهر المراد، وقد يذكر ابن كثير عدة آيات في تفسير الآية الأولى، وكأنه يجمع بين الآيات المتماثلة والمتشابهة في المعنى، والمتحدة في الموضوع، فتأتي الآيات المتناسبة في مكان واحد مما يشكل ما يعرف اليوم بالتفسير الموضوعي.

ويعتني ابن كثير بشدة بهذا النوع من التفسير، المعروف بتفسير القرآن بالقرآن، وهو أول الأسس في التفسير المأثور[1].

٣- **رواية الأحاديث بأسانيدها غالباً،** وبغير إسناد أحياناً، لإلقاء الضوء النبوي على معنى الآية، لأن من وظيفة الرسول ﷺ التبليغ، والبيان[2]، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٤، التفسير بالمأثور ص ٩٩.

(٢) انظر كلام الشيخ أحمد محمد شاكر عن هذه النقطة في مقدمة اختصاره للتفسير، والتي سنذكرها بعد قليل.

ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ١٦/ ٦٤].

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن، ومثله معه»[١] يعني السنة، والسنة ـ في أصلها ـ وحي من عند الله تعالى بالمعنى، وتنزل بالوحي كما ينزل القرآن، إلا أنها لا تتلى كالقرآن، ولذلك يعتبر رسول الله ﷺ أول مفسر للقرآن.

٤ـ تفسير القرآن بأقوال الصحابة: يردف ابن كثير رحمه الله تعالى ما وصله من أقوال الصحابة في تفسير الآية حسب المؤهلات التي يمتلكونها، وعلى ضوء الأحداث التي تستدعي بيان القرآن الكريم للتطبيق في الحياة، وفي مجالس العلم والتدريس التي تولاها كبار الصحابة رضوان الله عليهم، وهم أقرب الناس لنزول الوحي، وقد تخرجوا من مدرسة النبوة، وملكوا ناصية اللغة العربية سليقة وفهماً وقرباً من منابعها، لذلك أصبحت أقوال الصحابة محل الاحترام والتقدير والقبول من جميع المسلمين، مع تعدد أقوالهم أحياناً في معنى الآية الواحدة.

٥ـ الاستئناس بأقوال التابعين وتابعي التابعين ومن يليهم من علماء السلف، وخاصة أهل القرون الثلاثة الذين شهد لهم

---

(١) هذا طرف حديث أخرجه أبو داود (٢/ ٥٠٥ كتاب السنة، باب لزوم السنة) عن المقداد بن معدي كرب، ورواه أحمد (٢/ ١٢٩، ٤/ ١٣١) وابن ماجه (١/ ٦).

رسول الله ﷺ بالخيرية، وحملوا الدعوة والإسلام من الصحابة، وقاموا بعبء الدعوة ونشرها للشعوب الإسلامية، والدول الإسلامية المتتالية، وهذا البند الخامس يعتبره كثير من العلماء من فقرات التفسير المأثور، والتزمه ابن كثير عملياً.

٦ـ **الإسرائيليات**: نتج عن روايات بعض الصحابة وبعض التابعين وجود الأحاديث والروايات المأخوذة من مصادر أهل الكتاب، والتي تسمى الإسرائيليات، ومعظمها غير صحيح ولا معقول، وأكثرها غرائب وطرائف، وكان ابن كثير محدثاً حافظاً، وهو أدرى الناس بذلك، ولذلك نص عليها في مقدمة تفسيره، وأنها «تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد»[١] وصنفها ثلاثة أقسام، وأدرك ابن كثير أن هذه الروايات للاستئناس لا للاعتقاد، ولا للبيان والقبول، وقد تسربت هذه الإسرائيليات إلى كتب التفسير وغيرها، ولذلك كان ابن كثير رحمه الله تعالى «ينبه إلى ما في التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات، ويحذر منها على وجه الإجمال تارة، وعلى وجه التعيين والبيان لبعض المنكرات تارة أخرى»[٢].

فمثلاً يذكر ابن كثير قصة طويلة وغريبة عن البقرة المذكورة في الآية ٦٧ من سورة البقرة، ثم يقول:

«وهذه السياقات عن عبيدة وأبي العالية والسُّدي وغيرهم فيها

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤، وانظر: مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٠.
(٢) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٥، وانظر: التفسير بالمأثور ص ١٠٠.

اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها، ولكن لا تصدق ولا تكذب، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم»[1].

ويصرح بخطر الإسرائيليات بشكل بارز في أمكنة متعددة ويحذر منها، ويكشف أسبابها، فمن ذلك ما يذكره عند تفسيره لأول سورة قٓ، وأنها من الأحرف التي ابتدأت بها بعض سور القرآن، ويبين رأيه فيها في أول سورة البقرة، ثم يقول: «وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا: قٓ جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف، وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق، ولا يكذب، وعندي: أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افتُري في هذه الأمة، مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها، أحاديث عن النَّبي ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ والنقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته ؟ ؟ وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»[2] فيما قد يجوز

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١١٠، وانظر: التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٥.
(٢) هذا جزء من حديث رواه البخاري، وأوله: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا...» (٣/ ١٢٧٥ رقم ٣٢٧٥ كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني=

العقل، فأما فيما تحيله العقول، ويحكم فيه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل، والله أعلم، وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنة...»[1].

ولابد من الإشارة هنا إلى أن ابن كثير وضع المنهج والقاعدة لقبول رواية الإسرائيليات في مقدمة كتابه «البداية والنهاية»[2]، وكنا نأمل أن يضعها هنا، ويلتزم بها.

٧- **الأحكام الفقهية**: يتعرض ابن كثير عند تفسير آيات الأحكام إلى بيان الأحكام الشرعية، ويستطرد في ذكر أقوال العلماء وأدلتهم، ويدخل في المناقشات الفقهية، واختلاف الفقهاء، ويخوض في المذاهب ويعرض أدلتهم، ولكنه لا يتوسع كثيراً مثل تفاسير أحكام القرآن، وإسراف الفقهاء المفسرين كابن العربي والجصاص والقرطبي.

يقول الدكتور الذهبي: «ولكنه مع هذا مقتصد مقل، لا يسرف

= إسرائيل)، ورواه الترمذي (٧/ ٤٣١ كتاب العلم، باب الحديث عن بني إسرائيل).

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢١، وانظر: التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٥ وما بعدها.

(٢) البداية والنهاية ١/ ٦.

كما أسرف غيره من فقهاء المفسرين»[1].

ولا غرابة في ذلك فابن كثير رحمه الله تعالى فقيه شافعي، وله باع كبير في الفقه، وكان يحفظ «التنبيه» وصنف عدة كتب في الفقه، وكان يدرِّس الفقه، ويمارس الفتوى، ويُستفتى ويأذن بالفتوى ـ كما سنرى ـ.

٨ـ الشواهد اللغوية والشعرية: اعتمد ابن كثير رحمه الله تعالى على اللغة العربية في فهم كلام الله تعالى الذي نزل باللغة العربية، ويجب أن يفسر حسب مقتضى الألفاظ العربية، وأساليب اللغة، ودلالات الألفاظ، وشواهد الشعر التي تدل على المعنى، وتوضح المراد، وتؤيد التفسير.

٩ـ الأعلام والرجال: حافظ ابن كثير في معظم الأحيان على ذكر الأسانيد، ونسبة الأقوال إلى أصحابها، وإيراد أسماء العلماء الأعلام الذين نقلت عنهم الآراء، ليكون دقيقاً في نقله، مع المحافظة على الأمانة العلمية، فجاء تفسيره زاخراً بأسماء العلماء، وأعلام الرجال.

١٠ـ قوة الشخصية: عرض ابن كثير لأحاديث متعددة، وروايات كثيرة، وأقوال مختلفة، ولكنه لم يقف عند هذا الحد، بل كانت شخصيته العلمية واضحة وبارزة، وظاهرة، فكان يبين درجة

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٦.

الأحاديث، ويثبت صحة أكثرها، ويضعف بعض الروايات، ويعدل بعض الرواة، ويجرح بعضاً آخر، وكل ذلك بسبب صفته العلمية الحديثية بأنه محدث وحافظ، وله المعرفة الواسعة، والباع الطويل في فنون الحديث وأحوال الرجال[1]، والتصنيف فيها، كما سنرى.

وسار على هذا المنهج في إيراد الأحكام الفقهية وآراء المذاهب فيعمد إلى بيان الراجح منها، والموافق لدلالة الآيات الكريمة.

١١ـ الاقتباس: كان ابن كثير رحمه الله تعالى يعتمد على من سبقه من المفسرين، وينقل عنهم، ويصرح بذلك، ومنهم إمام المفسرين ابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، وتفسير ابن عطية، وأقوال شيخ الإسلام ابن تيمية، حتى اقتبس معظم المقدمة من كتاب ابن تيمية «مقدمة في أصول التفسير»[2].

المآخذ على تفسير ابن كثير:

جاء تفسير ابن كثير ذخيرة علمية، ولكنه لم يخل من بعض المآخذ التي لاحظها العلماء، ونكتفي باثنتين منها:

١ـ الإطالة: فقد حرص ابن كثير رحمه الله تعالى على ذكر الأسانيد

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٤، التفسير بالمأثور ص ٩٩.

(٢) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٥، وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣، مقدمة في أصول التفسير ص ٩٣ وما بعدها، تحقيق الزميل الفاضل الأستاذ الدكتور عدنان زرزور.

كاملة، كما حرص على إيراد الروايات المتكررة في الموضوع الواحد، والاستعانة بالشواهد اللغوية، مما يؤدي إلى الملل، والتعب، والسآمة من الإطالة في عرض تفصيلات وجوانب متفرعة ودقيقة، لا يستفيد منها إلا فئة مخصوصة من العلماء والباحثين، وهذا ما دعا العلماء في هذا العصر لاختصار هذا التفسير، كما سنرى.

٢ـ الإسرائيليات: كان ابن كثير رحمه الله تعالى متنبهاً لأمر الإسرائيليات وخطرها، وتعرض لها في مقدمة كتابه، كما سبق، وهو المحدث الحافظ، ومع ذلك فقد أوردها في كتابه للاستئناس بها، بحجة «الاستشهاد، لا الاعتضاد»، ونبه في معظم الأحيان عليها، ويذكر الرواية، ثم يصرح بأنها إسرائيلية، وقد يبين بطلانها، وفسادها، ولكن القارىء العادي سيقرأها، وقد لا يتنبه إلى معنى كونها إسرائيلية، أو ينسى ذلك، وقد تعلق بذهنه، ولو صرح المصنف لبطلانها، فكان ذكرها بالتفسير مأخذاً، وإن الخطر والضرر في إثباتها أكثر بكثير من حذفها وإغفالها، ولذلك يتردد على ألسنة العوام، وأنصاف المتعلمين أن هذه القصة (الإسرائيلية) أو تلك وردت في تفسير ابن كثير.

ولذلك حرص القائمون على اختصار هذا الكتاب القيم إلى إغفالها نهائياً، وشطبها كلياً، كما سنرى.

كما بين القائمون على اختصار تفسير ابن كثير بعض المآخذ

والسلبيات التي وردت في التفسير، وحرصوا على تجنبها وحذفها، ليعم به النفع والفائدة.

تقويم ابن كثير في تفسيره:

ونخلص مما سبق إلى بيان الحقيقة التي وصلنا إليها، وهي أن ابن كثير رحمه الله تعالى لم يكن مبدعاً في تفسيره، ولم يأت بمنهج جديد، أو إبداعات خاصة، ولكنه كان ناجحاً نجاحاً متفوقاً في اختيار المنهج الذي سار عليه، والطريقة التي سلكها، والاختيارات التي انتقاها أو وصل إليها، والنقول التي جمعها، والأسلوب الذي عرضه.

وكان ابن كثير رحمه الله تعالى متميزاً في هذه المجالات، ولذلك انتشر تفسيره، وشاع في الأقطار، وتقبله الناس والعلماء.

ولذلك أرى أن أصح وصف له هو ما وصفه به شيخه الحافظ الذهبي بأنه «مفسر نقال» ولكنه أحسن النقل، وتوفق في الاختيار، ونجح في العرض والأسلوب، ولعل السر الأعظم في هذا النجاح والتوفيق والقبول أنه أخلص النية والقصد لله تعالى، فكتب الله له القبول والبقاء والانتشار، فما كان لله فهو الباقي والخالد.

ونختم هذه الفقرة بإعادة كلمة الدكتور الشيخ الذهبي، فقال: «وبالجملة، فإن هذا التفسير من خير كتب التفسير بالمأثور، وقد شهد له بعض العلماء»[١].

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ٢٤٧.

فضائل القرآن:

وهو ذيل تفسير الحافظ ابن كثير، وضعه في آخر التفسير، وجعله متمماً له، وطبع معه في أكثر الأحيان، وطبع مستقلاً أحياناً[1].

والكتاب في مجمله بيان لفضل القرآن الكريم، وبعض الجوانب المهمة في علوم القرآن بشكل موجز ومختصر.

بدأ فيه المصنف بعرض الأحاديث النبوية الواردة في فضائل القرآن، فذكر خمسة أحاديث مع أسانيدها، وبيان من أخرجها، وتحديد الغرض من كل منها، وما ترشد إليه من فوائد وعبر (ص ٢ـ٧).

ثم تعرض لجمع القرآن الكريم في زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه (ص ٨) وكتابة عثمان رضي الله عنه للمصاحف (ص ١٠) وتوزيعها في الأمصار الإسلامية، مع بيان أثرها، قائلاً: «فهذه الأفعال من أكبر القربات التي بادر إليها الأئمة الراشدون، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما حفظا على الناس القرآن، وجمعاه لئلا يذهب

---

(١) وجد الذيل في آخر النسخة الخطية المكية الوحيدة المقابلة على نسخة المؤلف، ولكنه غير موجود في النسخة المطبوعة بمطبعة بولاق (فضائل القرآن ص ١) وما جاء في آخر عبارة المصنف ترجح اعتبار فضائل القرآن متمماً للتفسير، فقال ابن كثير: «آخر فضائل القرآن، وبه تم التفسير» (ص ٥٨).

منه شيء، وعثمان رضي الله عنه جمع قراءات الناس على مصحف واحد، ووضعه على العرضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله ﷺ في آخر رمضان من عمره عليه السلام»[1]، وتطرق لقلة الكتابة في العرب، وآراء العلماء في كتابة المصاحف على وضع كتابة الإمام (وهو مصحف عثمان الذي صار إماماً للناس في القراءة).

ثم أورد ابن كثير حديث البخاري في كتّاب النَّبي ﷺ، وقراءة القرآن على سبعة أحرف (ص ١٦) وعرض أقوال العلماء في معنى السبعة الأحرف (ص ٢١).

ثم تناول ابن كثير لتأليف القرآن، مبيناً المراد من ذلك وهو ترتيب سوره، وترتيب الآيات والسور، وأن كل ذلك كان توقيفياً عن الله تعالى، وليس في تغييره رخصة لأحد (ص ٢٣).

واستطرد ابن كثير في فصلٍ لبيان نقط المصحف وشكله، وكتابة الأعشار على الحواشي (ص ٢٦)، وعاد للكلام عن معارضة جبريل للنبي ﷺ القرآن (ص ٢٦)، وبين القراء من أصحاب النَّبي ﷺ (ص ٢٧)، ونزول السكينة والملائكة عند القراءة (ص ٣٠)، ومن قال: لم يترك النَّبي ﷺ إلا ما بين الدفتين (ص ٣١)، وفضل القرآن على سائر الكلام (ص ٣٢)، والوصية بكتاب الله، وحكم التغني بالقرآن (ص ٣٣).

---

(١) فضائل القرآن ص ١٤.

ثم انتقل ابن كثير لفصل طويل فأورد الأحاديث التي وردت في معنى الباب السابق، وذكر أحكام التلاوة بالأصوات (ص ٣٤).

ثم ذكر بعض المباحث تحت العناوين التالية: اغتباط صاحب القرآن (ص ٣٨)، خيركم من تعلم القرآن وعلمه (ص ٣٩)، القراءة عن ظهر قلب (ص ٤٠)، استذكار القرآن وتعاهده (ص ٤١)، القراءة على الدابة (ص ٤٣)، تعلم الصبيان القرآن (ص ٤٤)، نسيان القرآن (ص ٤٤)، من لم يرَ بأساً أن يقول سورة البقرة وسورة كذا وكذا، الترتيل في القراءة (ص ٤٦)، مد القراءة، الترجيع، حسن الصوت بالقراءة (ص ٤٧)، من أحب أن يسمع القرآن من غيره، قول المقرىء للقارىء حسبك، في كم يُقرأ القرآن؟ (ص ٤٨)، البكاء عند قراءة القرآن، من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به (ص ٥١)، اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم (ص ٥٢)، وختم ابن كثير عرضه بعنوان: كتاب الجامع لأحاديث شتى (ص ٥٣)، وذكر الدعاء المأثور لحفظ القرآن وطرد النسيان (ص ٥٦-٥٨)، ويختم كتابه بقوله: «آخر فضائل القرآن، وبه تم التفسير»[1].

ومنهج ابن كثير في «فضائل القرآن» كمنهجه في التفسير، وهو العمل بالمأثور، فيبدأ بآيات القرآن الكريم في موضوع الفصل، ثم يحشد الروايات الكثيرة من الأحاديث بأسانيدها، مبتدئاً بأحاديث البخاري ومسلم، ويستشهد بأقوال الصحابة وبعض التابعين، مع

---

(١) فضائل القرآن ص ٥٨.

تصحيح بعض الأحاديث، وبيان الراجح من الروايات، والكلام على بعض رجال السند، واستنباط العبر والفوائد والأحكام.

وطبع كتاب «فضائل القرآن» مستقلاً في القاهرة وبيروت وجدة، وحققه سعيد عبد المجيد محمود، وزهير شفيق الكبي، ومحمد إبراهيم البنا، كل على حدة في طبعة خاصة، وتكرر بعضها أربع طبعات.

مختارات من فضائل القرآن:

تم اختصار فضائل القرآن، واختيار بعض الروايات منه بإشراف أحمد حمدي إمام، وطبعه بالقاهرة، المؤسسة السعودية عام ١٩٨١ م، وجاء في ٨٣ صفحة.

مختصرات تفسير ابن كثير:

نظراً لأهمية تفسير ابن كثير، ومنهجه المتميز، وخصائصه الكثيرة، وفوائده الجمة، وأسلوبه الواضح البديع، وتجنباً لما فيه من مآخذ محدودة، وخاصة الإطالة في الأسانيد وتعداد الروايات والأخبار في الموضوع الواضح، وحرصاً على إتمام الاستفادة من هذا التفسير القيم، ونشره بشكل لائق مناسب، وطبعه طباعة أنيقة متميزة، وحباً في انتفاع الناس منه، فقد قام عدد من العلماء الأفاضل باختصاره، وطباعته، ونشره، وتداوله، حتى أصبح هذا التفسير ـ بأصله ومختصراته ـ من أكثر كتب التفسير تداولاً وانتشاراً على مختلف الأصعدة.

ونعرض هنا نبذة مختصرة عن هذه المختصرات، مع بيان منهج كل منها[1].

١ ـ عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير:

وهو اختصار وتحقيق الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله تعالى، عرض فيه مقدمة قيمة عن حياة ابن كثير وتفسيره، ثم بين منهجه في الاختصار، ونقتبس طرفاً منها مع التلخيص والتصرف.

قال الشيخ أحمد محمد شاكر: «فإن تفسير الحافظ (ابن كثير) أحسن التفاسير التي رأينا، وأجودها، وأدقها، بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري».

«وقد حرص الحافظ ابن كثير على أن يفسر القرآن بالقرآن أولاً، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، ثم بالسنة الصحيحة التي هي بيان لكتاب الله، ثم يذكر كثيراً من أقوال السلف في تفسير الآي».

«وإنه ليذكر الأحاديث ـ في أكثر المواضع ـ بأسانيدها من دواوين السنة ومصادرها، وكثيراً ما يذكر تعليل الضعيف منها، ولكنه

---

(١) سبق ص٢٠٩ أن ابن اليونانية (٧٩٣ هـ) قد اختصره إلى نصف حجم الأصل، كما اختصره أيضاً الكازروني (المتوفى حوالي سنة ٩٤٠ هـ) وطبع هذا المختصر الأخير مع الأصل سنة ١٣٥٦ هـ/١٩٣٧ م، ابن كثير، حياته ص ٩٢.

يحرص أشد الحرص على أن يذكر الأحاديث الصحاح، وإن ذكر معها الضعاف»[1].

ويبين الشيخ شاكر أهمية هذا التفسير من الناحية الحديثية، فقال: «فكتابه ـ بجانب أنه تفسير للقرآن ـ معلِّم ومرشد لطالب الحديث، يعرف به كيف ينقُد الأسانيد والمتون، وكيف يميز الصحيح من غيره، فهو كتاب ـ في هذا المعنى ـ تعليم عظيم، ونفعه جليل كثير»[2].

وصرح الشيخ شاكر بهدفه من العمل فقال: «وقد بدا لي أن أقوم بالعملين، نشر هذا التفسير في طبعة علمية محققة متقنة، وإخراج مختصر منه للقارىء المتوسط يحفظ عليه مقاصده إن شاء الله ذلك، ويسَّره، ووفقني له»[3].

منهج الاختصار:

ثم حدد الشيخ شاكر منهجه في اختصار تفسير ابن كثير بفقرات عديدة أهمها ما قاله:

١ـ حافظت كل المحافظة على الميزة الأولى لتفسير ابن كثير، الميزة التي انفرد بها عن جميع التفاسير التي رأيناها، وهي تفسير القرآن بالقرآن.

---

(١) عمدة التفسير ١/ ٥.

(٢) عمدت التفسير ١/ ٦.

(٣) المرجع السابق ١/ ٧.

٢ـ حافظت على آراء الحافظ المؤلف وترجيحاته في تفسير الآيات، مجتهداً في إبقاء كلامه بحروفه ما استطعت.

٣ـ اخترت من الأحاديث التي يذكرها أصحها وأقواها إسناداً، وأوضحها لفظاً.

٤ـ حذفت أسانيد الأحاديث التي أذكرها.

٥ـ اكتفيت من ذلك بذكر الحديث عن الصحابي راويه، أو التابعي إذا كان الصحابي غير مسمى، ثم أذكر بعد ذلك من رواه من الأئمة.

٦ـ حذفت كل حديث ضعيف أو معلول، إلا لضرورة علمية.

٧ـ حذفت المكرر من أقوال الصحابة في التفسير، وكثيراً من آراء التابعين.

٨ـ نفيت عن كتابي كل الأخبار الإسرائيلية وما أشبهها، فإن المؤلفَ أثبت طائفة منها غير قليلة.

٩ـ حذفت أكثر ما أطال به المؤلف رحمه الله تعالى من الأبحاث الكلامية، والفروع الفقهية، والمناقشات اللغوية واللفظية.

١٠ـ رأيت أن أقتصر (في الأحاديث المطولة) على موضع الشاهد منه.

١١ـ وأصنع مثله في الأحاديث التاريخية[1].

بالإضافة إلى بعض النقاط الأخرى التي تتعلق بالطباعة والنواحي الشكلية، وجاء «عمدة التفسير» في خمسة أجزاء متوسطة الحجم، ومن القطع العادي في (١٤٤٢ صفحة) وطبع بدار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٩ م.

٢ـ مختصر تفسير ابن كثير:

اختصار الأستاذ محمد كريم راجح، شيخ القراء بدمشق، في مجلدين كبيرين، وبين فيه الأستاذ الشيخ محمد كريم راجح في مقدمته أهمية هذا التفسير، وميزاته، ثم قال: «وقد رأيت أن أختصره في جزء واحد يجمع أكثر ما فيه من المعاني»[2]، ثم عرض الهدف من عمله فقال: «والمهم أن يقرأ الناس القرآن وتفسيره، وأن يدخلوا إلى ذلك من أقرب الطرق وأخصرها، غير أنني حين حاولت الاختصار رأيت الكتاب بحراً لا ساحل له، فغلبني ما فيه من الجواهر، فكان في جزأين»[3].

ثم عرض الشيخ محمد كريم راجح منهجه في الاختصار، فقال: «وقد حرصت على عبارة الشيخ كل الحرص، والتزمت ألفاظه كل

---

(١) عمدة التفسير ١/ ٩ وما بعدها حتى ص ٢٣.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٦.
(٣) المرجع السابق.

الالتزام، حتى لا نخرج في هذا المختصر عن نور عبارة الأصل، ولا عن غاية مراميها، وأبعادها، فالشيخ رحمه الله ذو نور في القلب، وإشعاع في الفكرة، وعبارته متأثرة بنور قلبه، وضياء فكره، فكان لابد من التزامها كما هي»[1].

وصرح الشيخ محمد كريم راجح بالدوافع لعمله، فقال: «فالشيخ رحمه الله قد يأتي للآية الواحدة بعدة شواهد، فلا مانع من الاقتصار على بعضها، وبعدة أحاديث بروايات متعددة، كلها تؤدي غرضاً واحداً، فلا مانع من الاجتزاء ببعضها، وبأكثر من أثر للمسألة الواحدة، فقد يجوز أن يؤخذ بعضها، ناهيك بالأسانيد التي لا مانع ـ في أيامنا هذه ـ من حذفها، إذ هي محفوظة في الأصل...»[2].

وجاء هذا المختصر في مجلدين، ولقي إقبالاً كبيراً، وطبع عدة مرات بدمشق وبيروت، آخرها طبعة دار المعرفة، الطبعة الرابعة، بيروت، سنة ١٤٠٩ هـ، وبلغت صفحاته ١٥٢٤ من الحجم العادي.

٣ـ مختصر تفسير ابن كثير:

اختصار وتحقيق الأستاذ الشيخ محمد علي الصابوني.

عرض الناشر الأستاذ محمد بسام الأسطواني ما عاناه في قراءة تفسير

---

(١) المرجع السابق ١/ ٧.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، راجح ١/ ٦.

ابن كثير من الملل، والتعب، والإطالة في ذكر الأسانيد، والشواهد اللغوية، والتكرار في الروايات، وتفصيل أمور لا يستفيد منها إلا فئة مخصوصة من العلماء والباحثين، وأنه فكر باختصاره وشرع به، ثم غلبته الأعمال، فكلف الشيخ محمد علي الصابوني بهذا العمل الجليل، مبيناً أن المراد فهم كلام الله فهماً صحيحاً سليماً، وهذا المطلب الذي يقصده عامة المثقفين والقراء، لا يحتاج لذلك التطويل والتكرار والتفصيل، مع الاعتراف بفضل هذا التفسير، قائلاً: «لا نتهم بالمبالغة لو وصفناه بأنه أفضل التفاسير وأوثقها، أو على الأقل من أوثقها وأفضلها صحة وأسلوباً واستيعاباً»[١].

وبين الشيخ الصابوني أهمية هذا التفسير، وأنه من خير التفسير بالمأثور، ومن أوثقها، وهو تفسير جامع بين «الرواية» و «الدراية» يفسر القرآن بالقرآن، ثم بالأحاديث المشهورة في دواوين السنة المطهرة بأسانيدها، ويتكلم عن الأسانيد جرحاً وتعديلاً، فيبين ما فيها من صحيح وضعيف، وغريب وشاذ، ثم يذكر آثار الصحابة والتابعين[٢].

ثم صرح الشيخ الصابوني بالباعث والدافع لعمله، فقال: «وإنا لنجد في عصرنا الحاضر ميل الناس إلى التزود من الثقافة الدينية، لاسيما تفسير الكتاب الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وكثيراً ما

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني ١/ ٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني ١/ ٧.

يُسأل الإنسان أي التفاسير أسهل منالاً، وأجدى فائدة للقارىء في الزمن القليل؟ فيقف المرء واجماً لا يجد جواباً عن سؤال السائل، علماً بأن كتب التفسير، والحمد لله، كثيرة، وفيها فوائد جمة، ودرر متناثرة، وأسرار دينية عظيمة، ولكنها قد حشيت بالكثير من مصطلحات الفنون: من بلاغة، ونحو، وصرف، وفقه، وأصول، وغير ذلك، مما كان عقبة كأداء أمام العامة من القراء، لذلك دعت الحاجة الماسة إلى تذليل هذه الصعاب، وتيسير فهم القرآن العظيم على عامة الناس بسلوك منهج السهولة والسلاسة»[1].

وبين الشيخ الصابوني الحاجة إلى اختصار تفسير ابن كثير، فقال: «ولما كان تفسير العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى على ما فيه من مزايا كريمة، لا ينتفع بها إلا الخاصة من العلماء، وذلك لما فيه من تطويل وتفصيل لأمور لا حاجة لذكرها، وبخاصة عند ذكر الآثار المروية، والأسانيد للأحاديث الشريفة. . .، وكذلك الكلام على هذه الأسانيد بالجرح والتعديل، وما فيه من خلافات فقهية لا ضرورة لذلك، مما تجعل الفائدة منه قاصرة على فئة مخصوصة من طلبة العلم الشرعي، لذلك فقد عزمنا النية على اختصاره، وتنقيته من الشوائب، استجابة للرغبة الملحة من إخوتنا الأفاضل، وبتكليف من «دار القرآن الكريم»، ليعم به النفع، وتتحقق منه الفائدة المرجوة، علماً بأن اختصاره لا يعني أننا أغفلنا شطره، وحذفنا كثيراً منه، بل إن ما

(١) المرجع السابق ١/٨.

فعلناه لا يعدو أن يكون حذفاً لما لا ضرورة له من الروايات المكررة، والأسانيد المطولة، والآثار الضعيفة، والأحكام التي لا حاجة لها، وبقي روح التفسير كما هو. . .، بثوبه القشيب، وجماله الناصع، وأسلوبه السهل الميسر، مع تمام الترابط والانسجام»[1].

طريقة الاختصار:

وفصل الشيخ الصابوني منهجه في اختصار تفسير ابن كثير، وحدد طريقة الاختصار بما يلي:

١ـ حذف الأسانيد المطولة. . .، والإشارة في الهامش إلى من خرَّج الحديث.

٢ـ إثبات الآيات الكريمة التي استشهد بها المؤلف رحمه الله تعالى، مع الاقتصار فيها على مكان الشاهد منها.

٣ـ الاقتصار على الأحاديث الصحيحة، وحذف الضعيف منها، وحذف ما لم يثبت سنده.

٤ـ ذكر أشهر الصحابة عند التفسير بالمأثور. . .، مع تثبيت أصح الروايات المنقولة.

٥ـ الاعتماد على أقوال مشاهير التابعين المنقولة آراؤهم نقلاً صحيحاً.

---

(١) المرجع السابق ١/ ٨ـ٩.

٦ـ حذف الروايات الإسرائيلية، سواء كان غرض المؤلف الرد عليها، أو الاستشهاد بها على سبيل الاستئناس.

٧ـ حذف ما لا ضرورة له من الأحكام والخلافات الفقهية، والاقتصار على الضروري منها[١].

طباعة المختصر ونشره:

جاء هذا المختصر بطباعة أنيقة، وإخراج جميل، وعرض فني متميز، فجاءت آيات القرآن العظيم مخطوطة برسم المصحف، ومطبوعة بحرف أسود، وبارزة في أعلى الصفحة أو وسطها، مع مراعاة علامات الترقيم، وخاصة النقط والفواصل لمساعدة القارىء، مع تقسيم الموضوع إلى فقرات، وكل فقرة تبدأ من أول السطر، مع التعداد لها أحياناً، وإبراز العناوين في منتصف السطر، وجاءت أول الفقرات بحرف أسود، واستخدمت الأقواس الصغيرة «» للتنصيص، والأقواس المزركشة للآيات، وتحديد الكلمات المميزة والمصطلحات الخاصة، وكتابة الهوامش المختصرة والمفيدة بحرف أصغر، لكن اكتفى المحقق بعزو الأحاديث إلى مشهور كتب السنة، دون تحديد الجزء والصفحة، والكتاب والباب والرقم.

ووضع المحقق في أول كل سورة ما ورد في فضلها من الأحاديث والآثار، ورتبها أولاً، ثانياً. . . ، وهكذا.

---

(١) المرجع السابق ١/ ٩.

ولقي هذا المختصر رواجاً كبيراً، وانتشاراً واسعاً، وطبع عدة مرات على نفقة المحسن معالي السيد حسن عباس الشربتلي، وجعله وقفاً، ويوزع مجاناً، وكل ذلك برعاية دار القرآن الكريم بالكويت.

وجاء الجزء الأول في ٦٤٢ صفحة من الحجم الكبير، من سورة الفاتحة إلى آخر سورة الأنعام، وجاء الجزء الثاني في ٦٨٦ صفحة، ويبدأ من سورة الأعراف، وينتهي بآخر سورة الشعراء، ووقع الجزء الثالث في ٦٩٨ صفحة، ويبدأ من سورة القصص، وينتهي بسورة الناس، وفي آخره فهارس مفصلة لأهم محتويات المجلدات الثلاثة (ص ٧٠١ وما بعدها).

٤ـ تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير:

اختصره وعلق عليه، واختار أصح رواياته الشيخ محمد نسيب الرفاعي.

وصف الشيخ الرفاعي تفسير ابن كثير، وبين الباعث لاختصاره، فقال: «أضع بين يديك ـ بعد جهود خمس سنوات ـ مختصراً لتفسير القرآن العظيم، المشهور بتفسير ابن كثير...، وتفسير ابن كثير هذا غني عن التعريف...، ولهذا فقد انتهج المفسر الشيخ ابن كثير رحمه الله تعالى منهجاً سليماً، سلفياً كريماً، وهو تفسير القرآن بالقرآن، والقرآن بالحديث، وبأقوال السلف الصالح من الصحابة

والتابعين، وبمفاهيم لغة العرب[1]. . .، ولما كان تفسير ابن كثير ـ في أساسه ـ تفسيراً، لجأ مفسره رحمه الله تعالى إلى شيء من التفصيل، قد لا ينفع إلا الخاصة من العلماء، حتى يلموا بمواضيع الآيات المفسرة إلماماً يتفق مع رغبتهم الملحة من التفصيل والتطويل. . .، وهذا ليس موفور الأسباب عند سائر طلاب العلم، ولا عند عامة المسلمين»[2].

وعرض الشيخ الرفاعي منهجه في الاختصار، فقال: «طريقتي في الاختصار أنني لخصت كلام المفسر رحمه الله تعالى بشكل أبقيت على روح معانيه، بدون أي خلل، بأسلوب واضح يفهمه العالم، والمتعلم، والمبتدي بطلب العلم، وحتى العامة إن قرؤوه، أو قرىء عليهم. . .، ثم اكتفيت بما أورده المفسر رحمه الله تعالى من الأحاديث المتعددة في الموضوع الواحد بحديث أو حديثين، مما أخرجه الشيخان (البخاري ومسلم) أو أحدهما، أو ما صح من رواة أهل السنن والصحاح. . .، وكذلك فإني عمدت إلى الأخبار الإسرائيلية، والأقوال المرجوحة، والروايات الواهية فحذفتها. . .، أما الأخبار السخيفة التي أشار المفسر إلى سخفها ونبه على وهنها. . .، فإني استغنيت عن ذكرها البتة، حباً بالاختصار الذي اتخذته سبيلاً ومنهجاً. . .، وقد اضطرني في بعض الأحايين أن أنقل عبارة المفسر

---

(١) تفسير العلي القدير ١/ ٦ـ٧.
(٢) المرجع السابق ١/ ٧.

رحمه الله تعالى دون أي اختصار. . . ، وكذلك اخترت أصح الأقوال فيما ورد في الموضوع الواحد، وقد أكتب بعض التعليقات في أسفل الصفحة على بعض المواضيع التي أرى أنه يجب التعليق عليها نقداً، أو تأييداً، أو ترجيحاً. . . ، وإنني لم أُدخل على تفسير ابن كثير تفسيراً خارجاً عنه. . . ، وقد رقمت الآيات أرقاماً متسلسلة لكل سورة، كما أنني اعتمدت التقسيمات التي قسمها القرّاء»(١).

وطبع هذا التفسير الطبعة الأولى في بيروت سنة ١٩٧٢ م، في أربع مجلدات، تبلغ (٢٢٦٥ صفحة)، وبآخره فهرس آيات وأحاديث، ثم طبع طبعة جديدة في الرياض، مكتبة المعارف، سنة ١٩٨٩ م، في أربع مجلدات.

الكتب المتفرعة عن تفسير ابن كثير:

إن تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى نبع فياض، وبحر زاخر في المعارف والدرر والعلوم والموضوعات، لذلك كان محل العناية والرعاية، وقدمت عنه بعض الدراسات التي تسهل الانتفاع منه، والرجوع إلى مضمونه، كفهرسة الأحاديث الواردة فيه، كما قام بعض الباحثين باستخراج بعض الموضوعات الجزئية من التفسير، وطباعته مستقلاً، ليكون كتيباً قريب المتناول في موضوع واحد، مثل تفسير آية الكرسي، وكيف تكون مؤمناً.

---

(١) المرجع السابق ١/٩ـ١٠.

ونعرض لهذه الكتب الثلاثة بنبذة موجزة، مع الإشارة إلى الجهود الطيبة في تحقيق الكتاب الأصلي في مصر، وتخريج أحاديثه وطباعته في أوربا[1].

١ـ فهرس أحاديث تفسير القرآن العظيم:

للحافظ عماد الدين، أبي الفداء، إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ٧٧٤ هـ.

إعداد الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، محمد سليم إبراهيم سمارة، جمال الدين حمدي الذهبي.

ثبت لدينا من منهج ابن كثير في تفسيره اعتماده الكبير والواسع على الأحاديث النبوية القولية والفعلية، فجاء تفسيره زاخراً بالأحاديث، ومحشواً بالأخبار والآثار، ومترعاً بالروايات العديدة، وهذه الأحاديث وردت في تفسير الآيات الكريمة، فهي مبثوثة في جميع التفسير من أوله وآخره، مما يجعل إحصاءها أو الرجوع إليها، أو الاستفادة منها، ومن الدراسات التي قدمها ابن كثير عن الروايات، والرجال، والعلل، والأسانيد، والترجيح وغيره، صعباً ومرهقاً.

لذلك قامت ثلة من الأساتذة الأفاضل باستخراج الأحاديث، وجمعها بشكل مستقل، وفهرستها أبجدياً بحسب أولها، ليسهل

---

(١) انظر: بحوث في أصول التفسير ص ٦٤.

حصرها، والانتفاع بها، ومراجعتها[1].

وبين الإخوة السابقون أهمية تفسير ابن كثير، فقالوا: «وبعد: فإن تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير من أهم كتب التفسير بالمأثور، نظراً لما تضمن من الأحاديث والآثار الكثيرة المتعلقة بتفسير كتاب الله تعالى، ولما امتازت به شخصية الحافظ ابن كثير من الحفظ والتحقيق والتمحيص، واختيار الروايات والتعليق عليها، وتبيين مخارجها من كتب السنة والأصول»[2].

«ويحتوي تفسير ابن كثير على عدد كبير من المسائل العلمية، والشواهد القرآنية، والأحاديث على مختلف أنواعها: الموصولة، والمقطوعة، والمرسلة، والمسندة وغير المسندة، والقولية والفعلية، والوصفية والإقرارية، وعلى كثير من آثار الصحابة، وأقوال المفسرين من التابعين وأتباعهم، وعلى الشواهد الفقهية واللغوية والشعرية، وأعلام الرجال، مما يتعلق بالتفسير وغيره...، فهو بحر زاخر بأنواع الدرر، فعهد إلينا القيام بفهرسة الأحاديث النبوية الشريفة من بين سائر المسائل العلمية والشواهد التي حفل بها الكتاب»[3].

وقال المفهرسون: «وقد كان من توفيق الله لنا أن شرفنا بالعمل على خدمة هذا التفسير الجليل بوضع فهرس لأحاديثه حسب أوائلها

---

(١) طبع دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٨٦ م، ويقع في ٣٣٤ صفحة.

(٢) فهرس أحاديث تفسير القرآن العظيم ص ٥.

(٣) المرجع السابق ص ١٥.

على ترتيب حروف المعجم، تسهيلاً للباحث فيه»[1].

وأشار المفهرسون إلى عمل سابق لهم فقالوا: «وقد وضعت دار الفكر في بيروت فهرساً للأحاديث القولية في تفسير ابن كثير، وهو جهد مشكور، لكنه جاء ناقصاً لاقتصاره فقط على الأحاديث القولية»[2]، كما قامت لجنة العلماء التي أشرفت على طباعة وتصحيح تفسير ابن كثير في دار الأندلس ـ بيروت ـ بوضع فهرس الأحاديث القولية في آخر المجلد السابع ص ٥٢١ـ٥٨٤، وبينت الصفحات التي ورد فيها كل حديث.

وينقسم العمل في كل صفحة أفقياً إلى أربعة حقول، الأول: طرف الحديث (أي أوله)، الثاني: الراوي، الثالث: رقم السورة ورقم الآية، الرابع: الجزء والصفحة من طبعة دار المعرفة في بيروت عام ١٤٠٦ هـ التي جاءت في أربع مجلدات، ويمكن الاستفادة من هذا الفهرس في الطبعات الأخرى لوجود الحقل الثالث الذي يحدد ورود الحديث، ورقم السورة ورقم الآية، كما قدم المفهرسون مقدمة مسهبة عن علم الفهرسة وأهميتها وأنواعها وتطورها[3].

ونشر هذا الفهرس في دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م، وجاء في ٣٣٤ صفحة من الحجم الكبير.

---

(١) المرجع السابق ص ٥.
(٢) المرجع السابق ص ٣.
(٣) المرجع السابق ص ٧ـ٢٢.

ويجدر الإشارة إلى أن الشيخ محمد نسيب الرفاعي، الذي اختصر تفسير ابن كثير في أربع مجلدات، وضع في نهاية كل مجلد فهرساً للأحاديث التي ذكرها فيه، مرتبة بالأرقام، مع بيان طرف الحديث، ودرجته، وبيان الصفحة التي ورد بها، وبلغ عدد الأحاديث في الجزء الأول فقط ٩٠١ حديث. وكذلك فعل السيد سعيد عبد المجيد محمود الذي حقق كتاب فضائل القرآن لابن كثير، فصنع فهرس أطراف الحديث (ص ٢٠١ـ٢١٥) فبلغ العدد (٢٠٩ أحاديث) ثم فهرس الموقوفات (ص ٢١٧ـ٢٢٠) فبلغت ٢٥ حديثاً.

٢ـ تفسير آية الكرسي:

لإسماعيل بن كثير، تحقيق محمود شلبي.

أراد المحقق أن يتناول أعظم آية في القرآن، وهي آية الكرسي، ويقدم تفسيرها «بقلم أئمة التفسير الكبار، ليكون ذلك أشد أنساً للفؤاد»[١]، واختار «الفخر الرازي باعتباره إمام مدرسة العقل والفلسفة، وابن كثير باعتباره إمام مدرسة النقل (التفسير بالمأثور) والمأثور من الأحاديث، والألوسي باعتباره من أكبر أساتذة التفسير في القرنين الأخيرين، فهو أقرب العقول إلى مفاهيم زماننا»[٢] ليتكامل تفسير الآية الكبرى.

---

(١) تفسير آية الكرسي ص ٣.
(٢) المرجع السابق ص ٤.

وقال المحقق: «وأما ابن كثير فيقدم إلينا إشعاعات أحاديث رسول الله ﷺ الواردة في الآية»[1]، ثم نقل ما قاله ابن كثير حرفياً (ص ٤٣ـ٦٤) من الحجم الصغير.

٣ـ كيف تكون مؤمناً؟ من تفسير الإمام الحافظ ابن كثير:

إعداد وتعليق: نشأت المصري.

بين المعلق في المقدمة منهج الكتاب، مبتدئاً بأهمية الإيمان، وأنه نزلت فيه آيات كثيرة وأحاديث نبوية، وكلمات وتأملات، وأن الباحث يجتهد عن مفاتيح الإيمان من واقع الدستور الإلهي للحياة والآخرة، القرآن الكريم، لاختصار الطريق، والارتقاء إلى أعاليه، ثم قال: «وقد آثرت أن يتم ذلك عن طريق مصدر واحد، هو كتاب «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير، لما رأيته في هذا التفسير من إحاطة كبيرة بجوانب الموضوع»، ثم بين منهجه: بالالتزام بالتفسير الذي عقب فيه ابن كثير على الآيات والأحاديث وأقوال السابقين، إن وجد، ثم ترتيب الموضوعات بحيث يكتمل تسلسلها، واكتفى بذكر الراوي، وإسقاط السند[2].

ثم قسم المعلق كتابه إلى ثلاثة أبواب، الأول: صلة الله بعباده وضرورة الإيمان، والثاني: الطريق إلى الإيمان من صفات المؤمنين،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) كيف تكون مؤمناً ص ٩ـ١٠.

ونوافذ الإيمان، والثالث: أحوال المؤمنين، ثم اقتبس المادة العلمية لهذه الموضوعات من تفسير ابن كثير الغني القيم عند تفسير الآيات المتعلقة بالإيمان، وختم الكتاب بكشاف الآيات والأحاديث والأعلام (ص ١١٩ـ١٢٤) وهو عبارة عن حواشي الكتاب[1].

(١) طبع المختار الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٩٨٨ م، ويقع في ١٢٤ صفحة.

الفَصل الثاني

ابن كثير وعلوم الحديث

تعريف علوم الحديث:

الحديث الشريف هو ما أضيف إلى النَّبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة[1]، ويأتي الحديث النبوي في الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم في الأهمية الدينية والتشريعية واللغوية، ويحتل المرتبة الثانية في الدراسة والبحث والعلم والتعليم، والتأليف والتصنيف، والرعاية والحفظ، والرواية والنقل والتخصص في العلوم الشرعية[2].

وعلم الحديث من حيث هو تعبير لغوي: هو إدراك الحديث، أو معرفة أحاديث رسول الله ﷺ، وعرفه السيوطي في الاصطلاح، فقال: «علم بقوانين يعرف بها أحوال السند والمتن»[3]، أي هو

---

(١) انظر: أصول الفقه الإسلامي لنا ص ١٤٥، طرق تدريس التربية الإسلامية، لنا ص ٣٠٦، منهج النقد ص ١٩.

(٢) انظر تفصيلاً أكثر عن علم الحديث في كتابنا: مرجع العلوم الإسلامية ص ٢٢٧ وما بعدها.

(٣) النقاية للسيوطي، ص ٢٦٧ على هامش مفتاح العلوم.

الإدراك والمعرفة والاطلاع على القواعد والضوابط التي تكشف عن صفات رجال الحديث الذين نقلوه، وكيفية حكاية الحديث، وأحوال الرواة الذين رووه واحداً عن واحد إلى رسول الله ﷺ، وتدوين الأحاديث، ومعرفة الكلام دقة وضبطاً، وترتيباً ولفظاً، كما نطق به رسول الله عليه الصلاة والسلام، وبما يتعلق بالمتن الذين نطق به الرسول ﷺ، وبما يتعلق بالسند الذي توسط بين السامع والمصدر.

وكانت النواة الأولى لنشأة علم الحديث من العهد النبوي، وسماع الصحابة له، وتبليغهم الواجب له، ثم تطور في عهد التابعين ومن بعدهم، فوضعت له القواعد المحكمة، والمبادىء الدقيقة، والمنهج القويم، لسماع الحديث وقبوله، ونقله وتدوينه، فظهر علماً مستقلاً، ولأول مرة في تاريخ الأمم والشرائع والأديان والشعوب، مما يعتبر من خصائص هذ الأمة الإسلامية، وكونه علماً فريداً عندها، حتى دونت الأحاديث النبوية في كتب وموسوعات عديدة، ودرست تمحيصاً وتدقيقاً في مصطلح الحديث[1].

ويهدف علم الحديث إلى حفظ أحاديث رسول الله ﷺ، وصونها عن الخلل في النقل، أو الخلط في الرواة والسند، أو الدس والافتراء في المتن، ومعرفة المقبول من المردود، والصحيح من غيره، بقصد حفظ الدين من التحريف والتبديل، ومراعاة الدقة في نقل الأمة

---

(١) انظر: مرجع العلوم الإسلامية ص ٢٣١، وانظر: الحديث والمحدثون، أو عناية الأمة الإسلامية بالسنة النبوية ص ٦.

للحديث النبوي، والتحرز من التساهل أو الخطأ، أو التفريط أو الكذب على رسول الله ﷺ، الذي حذر من ذلك العمل الشنيع، والصنيع الخطير، بقوله ﷺ في الحديث المتواتر: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1].

وتم ـ بفضل علم الحديث، ومنهج النقد فيه، وجهود العلماء حوله ـ حفظ الأحكام الشرعية وصيانة السنة النبوية، ونقلها للأمة والأجيال المتلاحقة، وتصفيتها ممن حاول التسرب إليها، أو التعلق بها، أو الدس عليها[2].

وينقسم علم الحديث إلى قسمين:

الأول: علم الحديث رواية، أو علم رواية الحديث: وهو علم يشتمل على أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وصفاته، وروايتها، وضبطها، وتحرير ألفاظها، وتدوينها في الكتب.

الثاني: علم الحديث دراية، أو علم دراية الحديث: ويبحث ـ حسب الاستعمال الشائع الغالب ـ عن المعنى المفهوم من الحديث، والمعنى المراد من اللفظ، واستنباط الأحكام والعبر والفوائد منه، لكنه في المعنى الاصطلاحي هو علم يعرف منه حقيقة الرواية، وشروطها، وأنواعها، وأحكامها، وحال الرواة، وشروطهم،

---

(١) هذا حديث متواتر رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن عدد كبير من الصحابة (الفتح الكبير ٣/ ٢٣٤).

(٢) مرجع العلوم الإسلامية ص ٢٣٣.

وأصناف المرويات وما يتعلق بها[1]، وبتعريف أدق هو:

«علم بقوانين يعرف بها أحوال السند والمتن»[2].

وكان لعلم الحديث في القرن الثامن الهجري نشاط كبير، ورعاية شديدة، وظهرت فيه مصنفات عديدة، وكتب قيمة، تركت أثرها الكبير على العصور اللاحقة.

يقول الأستاذ محمود رزق سليم عن ذلك: «يمكن القول إن عصر المماليك من العصور الذهبية، في تاريخ الحديث ومصطلحاته، وشرحه ونقده، فقد تكاثر فيه الحفاظ، وعنوا بالرواية عناية تامة على الرغم من انتشار الخط وكثرة الخطاطين»[3] ثم ذكر المؤلف بعض الحفاظ، وبعض كتب الحديث التي ظهرت في هذا العصر.

إسهام ابن كثير في علوم الحديث:

كان لابن كثير رحمه الله تعالى إسهامات واسعة في علوم الحديث، وله فيها حظ وافر، وباع طويل، فقد سمع أسانيد الحديث من عدد من شيوخه بدمشق، وأجيز بالرواية من الحفاظ بمصر ـ كما سبق في تكوينه العلمي ـ وعرف ابن كثير بأنه الحافظ، المحدث، وحدَّث فعلاً في حياته، وكان يجيز طلابه بمروياته، كما قضى وقتاً طويلاً مع علوم

---

(١) أصول الحديث، للدكتور محمد عجاج الخطيب ص ٧.

(٢) النقاية للسيوطي ص ٢٦٧.

(٣) عصر سلاطين المماليك ٣/ ١٤٢ وما بعدها.

الحديث بالتأليف والتصنيف، وكانت كتبه في علوم الحديث تمثل أكبر عدد بالمقارنة مع كتبه في بقية العلوم، كما كانت أكبر حجماً أيضاً.

لكن ضاعت معظم كتب ابن كثير في علوم الحديث، للأسف الشديد، ولا يعرف عنها شيء في دور الكتب، وفهارس المخطوطات الموجودة اليوم في العالم، ولم يصل معظمها إلينا، وبقي أربع مخطوطات بدأت تظهر للوجود في السنوات الأخيرة، وطبع كتاب واحد قديماً، وهو اختصار علوم الحديث الذي عرف مطبوعاً باسم «الباعث الحثيث»، ونضيف إليها كتاباً واحداً في الحديث مستخرج من التفسير، وهذه الكتب هي:

أولاً: الكتب المفقودة:

١ـ الأحكام الصغرى.

٢ـ الأحكام الكبير.

٣ـ شرح البخاري.

٤ـ مختصر المدخل إلى كتاب السنن للبيهقي.

٥ـ مسند الشيخين.

٦ـ المقدمات.

ولا يعرف شيء عن هذه الكتب الآن إلا اسمها، وذكرها في المصادر، وسبق التعريف بها بشكل موجز (ص١٥٦ـ١٦٥) ونكتفي بالإحالة إليها.

ثانياً: الكتب المحققة:

١ـ جامع المسانيد والسُّنن، الهادي لأقوم السَّنن، ويسمى أيضاً «الهَدْي والسَّنن في أحاديث المسانيد والسُّنن»، وسوف نخصه بالدراسة لبيان أهمية هذا الكتاب ومكانته[1].

٢ـ تخريج أحاديث أدلة التنبيه، واسمه: «إرشاد الفقيه إلى معرفة أدلة التنبيه» ذكره بعض المترجمين لابن كثير[2]، ويوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة فيض الله بتركيا تحت رقم ٧٨٣/ ٢، وقام الأستاذ محمد إبراهيم السامرائي بتحقيقه[3].

٣ـ تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب، واسمه الكامل: «تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب» وقام بتحقيقه الأستاذ عبد الغني الكبيسي، معتمداً على نسخة فيض الله أفندي بتركيا، المكتوبة سنة ٧٤٤ هـ في حياة المؤلف، ونسخة دار الكتب المصرية، وطبع الكتاب بدار حراء بمكة المكرمة عام ١٤٠٦ هـ[2].

٤ـ مسند عمر بن الخطاب: وسوف نشير إليه باختصار بعد قليل.

ثالثاً: كتاب مطبوع:

وهو «اختصار علوم الحديث» ويعرف بعنوان: «الباعث الحثيث»، وسوف نفرده بالدراسة إن شاء الله تعالى.

---

(١) تم طبع هذا الكتاب في بيروت في ٣٥ مجلداً بتحقيق عبد المعطي قلعجي.

(٢) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠، ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦١.

(٣) ابن كثير، حياته ص ١٣٧، زيادة من المصحح الأستاذ مَجْد مكي.

رابعاً: تتمة وإضافة:

وهو كتاب في الحديث النبوي، لم يصنفه ابن كثير رحمه الله تعالى، وإنما استخرج من تفسيره، وطبع باسم «فهرس أحاديث تفسير ابن كثير» وذلك لكثرة الأحاديث والأخبار والآثار والروايات التي ذكرها ابن كثير في تفسير القرآن العظيم مما يؤلف كتاباً مستقلاً، وعرفنا به في الفصل السابق، ونكتفي بالإشارة إليه.

خامساً: كتب رجال الحديث:

ومن كتب ابن كثير التي تتعلق بعلوم الحديث ما صنفه عن رجال الحديث، وتراجمهم مع الجرح والتعديل، مما سندرسه في الفصل الرابع في كتب السيرة والرجال والتراجم.

وسوف نفرد الكتب المحققة، والمطبوعة بشيء من الدراسة فيما يلي:

أولاً: جامع المسانيد:

وهو كتاب كبير لابن كثير رحمه الله تعالى، وقال الشيخ محمد زاهد الكوثري: «وهو أنفع كتبه»[1] ويوجد منه سبع مجلدات فقط، مخطوطة بدار الكتب المصرية، وتبلغ ٢٢٨٠ ورقة، أي ٤٥٦٠ صفحة مخطوطة، فإذا طبعت تجاوزت عشرة آلاف صفحة، وفي معهد

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨ هامش ٤.

المخطوطات بجامعة الدول العربية أجزاء منه أيضاً، وتدل على أن ابن كثير جمع الكتاب عام ٧٦٣ هـ، وتاريخ نسخ بعضها سنة ٧٨٩ هـ، ويرى الشيخ أحمد شاكر أن ابن كثير توفي ولم يتم الكتاب[١].

بينما ذكره بقية المصادر على أنه كتاب كامل، وكان الطلاب والعلماء ينسخون ما يخرج منه، ويتداولونه بينهم حتى وصل من دمشق إلى تبريز وخراسان، كما ذكر سابقاً في قصة العالم الذي قدم من تبريز وخراسان ويحفظ «البخاري» و «مسلم» و «جامع المسانيد»[٢]، وذكرنا أقوال العلماء في هذا الكتاب[٣]، وذكر الزركلي أن للكتا[ب] مخطوطة في ثمانية مجلدات[٤].

مضمون «جامع المسانيد»:

قبل أن نبين مضمون «جامع المسانيد» وكشف أهميته، ومكانته العلمية، نريد أن نشير إلى الجهود الجبارة التي بذلت في تدوين السنة النبوية، وجمع الأحاديث الشريفة، واختلاف الطرق والمناهج في جمعها وتدوينها[٥].

فمنها الكتب التي حرصت على الاقتصار على الأحاديث

---

(١) عمدة التفسير ١/ ٢٩، وانظر: ابن كثير، حياته ص ١١٩.

(٢) ص ١٦٠ عن البداية والنهاية ١٤/ ٢٩٤.

(٣) سبق صفحة ١١٢.

(٤) الأعلام ١/ ٣١٨.

(٥) انظر بيان ذلك في كتابنا «مرجع العلوم الإسلامية ص ٢٨١ وما بعدها».

الصحيحة، ويأتي في قمتها: صحيح البخاري، وصحيح مسلم.

ومنها الكتب التي جمعت الأحاديث الصحيحة والحسنة، وقد يرد فيها نادراً أحاديث ضعيفة، وهي المعروفة بكتب السنن، وأشهرها أربعة، وهي «سنن أبي داود» و «سنن الترمذي» و «سنن النسائي» و «سنن ابن ماجه»[1].

وتعرف الكتب المذكورة سابقاً باسم «الكتب الستة» واشتهرت بذلك.

وهناك كتب جمعت الأحاديث النبوية بحسب أسماء الصحابة الذين رووا الحديث عن رسول الله ﷺ، وتسمى المسانيد، «جمع مسند، وهي الكتب التي موضوعها جعل حديث كل صحابي على حدة، صحيحاً كان أو حسناً، أو ضعيفاً، مرتبين على حروف الهجاء في أسماء الصحابة كما فعله غير واحد، وهو أسهل تناولاً، أو على القبائل، أو السابقة في الإسلام، أو الشرافة النسبية، أو غير ذلك، وقد يقتصر في بعضها على أحاديث صحابي واحد، كمسند أبي بكر، أو أحاديث جماعة، كمسند الأربعة أو العشرة»[2]، وكتب المسانيد كثيرة جداً، ويأتي في مقدمتها وأعلاها «مسند الإمام أحمد بن حنبل»،

(١) انظر التعريف بهذه الكتب في كتابنا «مرجع العلوم الإسلامية ص ٢٨٢ وما بعدها» و «الحديث والمحدثون ص ٣٥٣ وما بعدها».

(٢) الرسالة المستطرفة ص ٦٠.

ومثل مسند أبي يعلى، ومسند البزار، ومعجم الطبراني، وغيرها كثير[1].

كما صنف كثير من العلماء كتب الحديث على أبواب الفقه، وغير ذلك من الطرق.

وفي مرحلة لاحقة صُنفت كتب كثيرة تجمع بين الكتب السابقة، كالجمع بين الصحيحين، وجمع الكتب الستة المشتملة على صحيح البخاري وصحيح مسلم وكتب السنن الأربعة، والجمع بين المسانيد الثمانية وغيرها.

ومن هذه الجهود الطيبة المباركة ما قدمه العلامة الحافظ المحدث ابن كثير رحمه الله تعالى في هذا الكتاب الذي سماه:

«جامع المسانيد والسُّنن الهادي لأقوم السَّنَن».

وعرف باسم آخر، وهو: «الهَدْي والسَّنَن في أحاديث المسانيد والسُّنَن». ووصفه الكتاني «بالمسند الكبير»[2].

---

(١) الرسالة المستطرفة ص ٦١ وما بعدها، وهذه الرسالة أجمع كتاب في بيان طرق التدوين للسنة النبوية، وبيان الكتب فيها، ومعرفة العلماء الأعلام من الحفاظ والمحدثين، ثم يأتي كتاب «الحديث والمحدثون أو عناية الأمة الإسلامية بالسنة النبوية» للشيخ الدكتور محمد محمد أبو زهو. وانظر: ابن كثير، حياته ص ١١٧ وما بعدها.

(٢) الرسالة المستطرفة ص ١٧٥، وانظر: ما ورد في اسم الكتاب في (ابن كثير، حياته ص ١١٧ وما بعدها).

وجمع فيه أحاديث الكتب الستة المشهورة في الحديث، وهي: (صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن أبي داود، سنن الترمذي، سنن النسائي، سنن ابن ماجه) وأضاف إليها الأحاديث الواردة في أربعة مسانيد، وهي: «مسند الإمام أحمد، مسند أبي يعلى، مسند البزار، معجم الطبراني»[1]، فجمع في كتابه أحاديث عشرة كتب، ولذلك قال ابن قاضي شهبة: «وصنف كتاباً في جمع المسانيد العشرة»[2].

ومنهج ابن كثير في هذا الكتاب أن رتبه على حروف المعجم لأسماء الصحابة رضوان الله عليهم، فيبدأ باسم الصحابي، ويترجم له، ثم يذكر الأحاديث التي رويت عنه في الكتب العشرة السابقة، وهكذا ينتقل إلى الصحابي الثاني، والثالث، وهكذا[3].

---

(١) ذكر الشوكاني والحسيني ومحمد حمزة أن ابن كثير جمع الكتب الستة والمسانيد الثلاثة الأولى، وأضاف العاشر: ابن أبي شيبة، بينما ذكرت بقية المصادر، أن الكتاب العاشر هو معجم الطبراني، أو معاجم الطبراني. (البدر الطالع ١/ ١٥٣، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨، الباعث الحثيث ص ١٧).

(٢) طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧، وانظر: طبقات المفسرين ١/ ١١١، ابن كثير، حياته ص ١١٨.

(٣) الرسالة المستطرفة ص ١٧٥-١٧٦، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، إنباه الغمر ١/ ٤٠، هدية العارفين ٥/ ٢١٥، عصر سلاطين المماليك ٣/ ١٠١، وقال محمد حمزة: «ورتبه على الأبواب» (الباعث الحثيث ص١٧)، ولعله جمع =

وقال فيه حاجي خليفة: «وهو كتاب عظيم، جمع فيه أحاديث الكتب العشرة في أصول الإسلام، أعني الستة والمسانيد الأربعة»[1].

فائدة:

وبعد كتابة السطور السابقة عن هذا الكتاب العظيم، اطلعت على كتاب الدكتور الندوي، فوجدته يصنف الكتاب تحت عنوان «المؤلفات المخطوطة»، ولكن مصحح الكتاب السيد مَجْد مكي الذي نقح الكتاب ليعده للطبعة الثانية، أضاف بخط اليد فائدة جليلة نثبتها هنا.

«قام الأستاذ صالح أحمد الوعيل بتحقيق جزء من هذا الكتاب، وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٤٠٥ هـ من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كما نشر الأستاذ عبد الملك بن دهيش عدة مجلدات من الكتاب»[2].

وعبد الملك بن دهيش أحد قضاة مكة المكرمة المشهورين، ولم أقف على نسخة من هذا الكتاب في سورية حتى خريف سنة ١٩٩٤ م.

= بين الترتيب الأبجدي للصحابة، ثم رتب أحاديث كل واحد على أبواب الفقه.

(١) كشف الظنون ١/ ٣٨٥.

(٢) ابن كثير، حياته ص ١١٧ هامش.

ثانياً: مسند عمر بن الخطاب:

واسمه «مسند الفاروق أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأقواله على أبواب العلم»، وأشار إليه ابن كثير صراحة[1].

كان هذا الكتاب في عداد الكتب المفقودة، ولكن أفاد مصحح كتاب «ابن كثير، حياته ومؤلفاته» السيد مَجْد مكي، بخط يده على حاشية الكتاب أن مسند عمر بن الخطاب «حققه الأستاذ مطر الزهراني، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى بمكة المكرمة»، وهذه فائدة مهمة جديدة، ولم أستطع الاطلاع على هذا الكتاب القيم[2].

ثالثاً: الكتاب المطبوع: اختصار علوم الحديث:

إن الكتب المصنفة في مصطلح الحديث وعلومه كثيرة وعديدة، ويأتي في قمتها كتاب الإمام أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح (٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥ م) واشتهر كتابه باسم «مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث» ورجح الدكتور نور الدين عتر أن يكون عنوانه «علوم الحديث».

وهذا الكتاب أشهر مصنف في مصطلح الحديث، وأجمع كتاب في

---

(١) الباعث الحثيث ص ٥٧.

(٢) ابن كثير، حياته ص ١٢٩ هامش.

هذا الفن، استفاد منه مؤلفه من كتب سابقيه، وذكر فيه خمسة وستين نوعاً من أنواع علوم الحديث، وبين أحوال رواة الحديث وصفاتهم، وأحوال متون الحديث وصفاتها.

وعكف الناس على هذا الكتاب في التدريس والاختصار والشرح والنظم والتعديل، وطبع في الهند ومصر ودمشق طبعات عديدة، وحققه عدد من العلماء كل على حدة[1].

وعرف ابن كثير رحمه الله تعالى أهمية هذا الكتاب، ومكانته العلمية، وفائدته في علم الحديث فعكف على اختصاره، وقال في مقدمته:

«فإن علم الحديث النبوي ـ على قائله أفضل الصلاة والسلام ـ قد اعتنى بالكلام فيه جماعة من الحفاظ قديماً وحديثاً كالحاكم والخطيب، ومن قبلهما من الأئمة، ومن بعدهما من حفاظ الأمة».

«ولما كان من أهم العلوم وأنفعها، أحببت أن أعلق فيه مختصراً نافعاً جامعاً لمقاصد الفوائد، ومانعاً من مشكلات المسائل الفرائد، وكان الكتاب الذي اعتنى بتهذيبه الشيخ الإمام العلامة أبو عمرو بن الصلاح تغمده الله برحمته ـ من مشاهير المصنفات في ذلك بين الطلبة لهذا الشأن، وربما عني بحفظه بعض المهرة من الشباب ـ سلكت وراءه، واحتذيت حِذاءه، واختصرت ما بسطه، ونظمت ما

---

(١) انظر مزيداً من التعريف في كتابنا مرجع العلوم الإسلامية ص ٣١٢، وفي هامشه: كشف الظنون ٢/ ١٢٩، الرسالة المستطرفة ص ٤١٤.

فرطه. . . ، مع ما أضيف إليه من الفوائد الملتقطة من كتاب الحافظ الكبير أبي بكر البيهقي»[1].

اسم الكتاب:

إن اسم كتاب ابن كثير هو «اختصار علوم الحديث» ثم تغير الاسم لقصة يذكرها العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر، فيقول:

«إن العلامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة جعل له عنواناً آخر في طبعته الأولى بمكة، فسماه اختصار علوم الحديث، أو الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث، التزاماً للسجع الذي أغرم به الكاتبون في القرون الأخيرة».

ثم قال الشيخ شاكر: «ولا أدري كيف فاتني أن أغير هذا في الطبعة الثانية التي أخرجتها. . . ، ثم اشتهر الكتاب بين أهل العلم باسم «الباعث الحثيث» وليس هذا اسم كتاب ابن كثير».

«وليس من اليسير أن أعرض عن الاسم الذي اشتهر به أخيراً، فرأيت من حقي جمعاً بين المصلحتين: ـ حفظ الأمانة في تسمية المؤلف كتابه، والإبقاء على الاسم الذي اشتهر به الكتاب ـ أن أجعل «الباعث الحثيث» علماً على الشرح الذي هو من قلمي ومن عملي،

---

(١) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ص ١٩، وانظر: ابن كثير، حياته ص ١١٠.

فيكون اسم الكتاب «الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث» والأمر في هذا كله قريب»[1].

أهمية الكتاب:

إن كتاب ابن كثير قيم، ومفيد، ومتوسط الحجم، ليس بالطويل الممل، ولا القصير المخل، وقد وصفه محققه الشيخ أحمد محمد شاكر، فقال: «وهو كتاب فذ في موضوعه، ألفه إمام عظيم من الأئمة الثقات المتحققين بهذا الفن»[2].

ولذلك اختارته لجنة المناهج في علوم التفسير والحديث للمعاهد الدينية، وقررت دراسته كله في كلية أصول الدين، ودراسة بعض أنواعه في كلية الشريعة بجامعة الأزهر[3]، كما قرر للتدريس في السنة الأولى من كلية الشريعة بجامعة دمشق عام ١٩٦١ م.

عمل ابن كثير:

كان عمل ابن كثير رحمه الله تعالى ـ في الأصل ـ اختصار لكتاب «علوم الحديث» لابن الصلاح، ولكنه أضاف إليه إضافات مهمة وكثيرة، وعقد مقارنات عديدة بين آراء ابن الصلاح وآراء غيره من الأئمة والعلماء، ثم يبدي ابن كثير رأيه الصريح في الترجيح

---

(١) الباعث الحثيث ص ٣ـ٤ مع الاختصار، وانظر: ابن كثير، حياته ص ١١٢.

(٢) الباعث الحثيث ص ٧.

(٣) الباعث الحثيث ص ٥ـ٦.

والاختيار، وإن من يقرأ كتاب «اختصار علوم الحديث» يدرك الشخصية العلمية لابن كثير، وملكاته الواسعة في علوم الحديث، واطلاعه الكبير على المصنفات الموجودة فيه، فكان عمل ابن كثير اختصاراً من جهة، وتعليقاً وتعقيباً واستدراكاً من جهة ثانية، ومقارناً ومرجحاً من جهة ثالثة، ويظهر هذا في كل صفحة تقريباً، مع قوله المميز بعبارة «قلت».

وكان ابن كثير يحيل القارىء للتوسع في بعض الجوانب إلى كتبه، منها «مختصر المدخل إلى كتاب السنن للبيهقي» (ص ١٩) وكتابه «الأحكام الكبير» (ص ٣١، ٣٥)، ويقول: «وقد حررت ذلك في المقدمات» (ص ١٠٢).

ويضيف ابن كثير على كتاب ابن الصلاح من كتب أخرى سابقة أو لاحقة، منها ما ينقله عن ابن الحاجب (٦٤٦ هـ) في «مختصره» في أصول الفقه في جواز حذف بعض الخبر (ص ١٤٤)[1]، ومنها ما يضعه تحت عنوان «فرع» وهو كثير، أو «مسألة»، ويقارن بين كلام ابن الصلاح وكلام الخطيب البغدادي وغيره، وكثيراً ما يغير في ترتيب المعلومات والأفكار، عما جاءت في كتاب ابن الصلاح، لكنه حافظ على أنواع الحديث الخمسة والستين كما جاءت في الأصل[2].

---

(١) وانظر: ما نقله عن ابن الحاجب ص ٩٧، وما نقله عن النووي ص ٣٥، وعن الشافعي ص ٩٩، وعن ابن تيمية ص ٣٦.

(٢) الباعث الحثيث ص ٢٤٨، علوم الحديث لابن الصلاح، تحقيق الدكتور نور الدين عتر ص ٤٠٤.

فالكتاب في الحقيقة ليس مجرد اختصار، بل هو شرح ومقارنة وإضافة، حتى يكاد أن يكون تصنيفاً جديداً، مع المحافظة على الجوهر الأصلي لكتاب ابن الصلاح.

وختم ابن كثير رحمه الله تعالى كتابه بقوله: «وهذا آخر ما يسَّره الله تعالى من «اختصار علوم الحديث» ولله الحمد والمنة، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم»[1].

ووصف الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة عمل ابن كثير، فقال: «اختصرها في رسالة لطيفة، وعبارة سهلة فصيحة، وجمل مفهومة مليحة، واستدرك على ابن الصلاح استدراكات مفيدة، يبدؤها بقوله: «قلت» فسهَّل على طالب الفن تناوله في رسالة وسط، وخير الأمور أوساطها، لم يختصرها اختصاراً مضغوطاً مختلاً، ولا أطالها تطويلاً منتشراً مشوشاً، فكانت خطوة أولى، ومرحلة ابتدائية، يدرسها الطالب فيرتقي إلى دراسة أصلها، وما بعدها من كتب الأئمة»[2] وقال الحافظ ابن حجر: «وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح، وله فيه فوائد»[3].

---

(١) الباعث الحثيث ص ٢٤٨.

(٢) الباعث الحثيث ص ١٣.

(٣) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠.

مختارات من اختصار علوم الحديث:

توضيحاً لكلامنا السابق عن عمل ابن كثير في «اختصار علوم الحديث» نقتطف بعض الاختيارات له، لبيان جهده وعمله، ومعرفة تخصصه وتعمقه في هذا المضمار.

١ـ تعريف الحديث الصحيح:

ذكر ابن كثير تعريف ابن الصلاح للحديث الصحيح، وبين فوائده[1]، ثم قال: «قلت: فحاصل حد الصحيح: أنه المتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، أو إلى منتهاه، من صحابي أو من دونه، ولا يكون شاذاً، ولا مردوداً، ولا معللاً بعلة قادحة، وقد يكون مشهوراً أو غريباً»[2].

٢ـ تقييم المستدرك:

نقل ابن كثير كلام الشيخ ابن الصلاح على الحاكم في «مستدركه»[3]، ثم قال ابن كثير: «قلت: في هذا الكتاب أنواع من الحديث كثيرة، فيه الصحيح المستدرك، وهو قليل، وفيه صحيح قد خرَّجه البخاري ومسلم أو أحدهما، لم يعلم به الحاكم، وفيه الحسن والضعيف والموضوع أيضاً، وقد اختصره شيخنا أبو عبد الله الذَّهبي،

---

(١) علوم الحديث لابن الصلاح ص ١١ـ١٢.

(٢) الباعث الحثيث ص ٢٢.

(٣) علوم الحديث ص ٢٢.

وبيَّن هذا كله، وجمع فيه جزءاً كبيراً مما وقع فيه من الموضوعات، وذلك يقارب مائة حديث، والله أعلم»[1].

٣ـ تخريج حديث:

نقل ابن كثير إنكار ابن الصلاح على ابن حزم ردَّه حديث الملاهي، ثم قال ابن كثير: «قلت: وقد رواه أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، وخرجه البرقاني في صحيحه، وغير واحد، مسنداً متصلاً إلى هشام بن عمّار وشيخه أيضاً، كما بيناه في كتاب «الأحكام» ولله الحمد»[2].

٤ـ القطع بصحة أحاديث البخاري ومسلم:

حكى ابن الصلاح أن الأمة تلقت الكتابين بالقبول، ثم استنبط من ذلك القطع بصحة ما فيهما من الأحاديث، لأن الأمة معصومة عن الخطأ، ثم عقب ابن كثير عليه بمخالفة النووي بالاستدلال على القطع، ثم قال:

«قلت: وأنا مع ابن الصلاح فيما عوَّل عليه، وأرشد إليه، والله أعلم» ثم تابع كلامه قائلاً: «حاشية: ثم وقفت بعد هذا الكلام لشيخنا العلامة ابن تيمية، مضمونه أنه نقل القطع بالحديث الذي تلقته الأمة بالقبول عن جماعات من الأئمة: منهم...» وعددهم ثم

---

(١) الباعث الحثيث ص ٢٩.

(٢) الباعث الحثيث ص ٣٤ـ٣٥.

قال: «وهو معنى ما ذكره ابن الصلاح استنباطاً، فوافق فيه هؤلاء الأئمة»[1].

٥ـ الاحتجاج بالحديث المرسل:

نقل ابن الصلاح احتجاج مالك وأبي حنيفة بالحديث المرسل، وقال ابن كثير بعده: «قلت: وهو محكي عن الإمام أحمد بن حنبل في رواية»[2].

ونقل ابن الصلاح أن مراسيل الصحابة في حكم الموصول، ثم قال ابن كثير: «قلت: وقد حكى بعضهم الإجماع على قبول مراسيل الصحابة، وذكر ابن الأثير وغيره في ذلك خلافاً، ويُحكى هذا المذهب عن الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني، لاحتمال تلقيهم عن بعض التابعين، وقد وقع رواية الأكابر عن الأصاغر، والآباء عن الأبناء كما سيأتي إن شاء الله تعالى»[3].

٦ـ رأي في المناظرة:

علق ابن كثير على قلب الحديث، والحكم بضعفه عند ضعف سنده مع احتمال وجود إسناد له آخر، ثم قال: «قلت: يكفي في المناظرة تضعيفُ الطريق التي أبداها المناظر، وينقطع، إذ الأصل عدم

---

(١) الباعث الحثيث ص ٣٥ـ٣٦.
(٢) الباعث الحثيث ص ٤٨.
(٣) الباعث الحثيث ص ٤٩.

ما سواها، حتى يثبت بطريق آخر، والله أعلم»[1].

٧ـ التزام الحجة والدليل:

نقل ابن الصلاح كلاماً لابن عبد البر في عدالة العلماء حتى يتبين الجرح، واحتج بحديث شريف، وعقب ابن الصلاح بأن ذلك: اتساع غير مرضي، فقال ابن كثير: «قلت: لو صح ما ذكره من الحديث لكان ما ذهب إليه قوياً، ولكن في صحته نظر قوي، والأغلب عدم صحته، والله أعلم»[2].

٨ـ تكفير متعمد الكذب على رسول الله ﷺ:

عرض ابن كثير خطورة الكذب في الحديث، وحكم التائب من الكذب في حديث الناس، والكذب تعمداً في الحديث النبوي، وأن الأخير لا تقبل روايته أبداً وإن تاب، ثم قال ابن كثير:

«قلت: ومن العلماء من كفر متعمد الكذب في الحديث النبوي، ومنهم من يحتم قتله، وقد حرر ذلك في المقدمات»[3].

٩ـ المكثرون من الرواية:

نقل ابن كثير كلام الإمام أحمد بن حنبل عن الصحابة المكثرين من

---

(١) الباعث الحثيث ص ٩٠.

(٢) الباعث الحثيث ص ٩٣ـ٩٤.

(٣) الباعث الحثيث ص ١٠١ـ١٠٢.

الرواية، وهم ستة: أنس، وجابر، وابن عباس، وابن عمر، وأبو هريرة، وعائشة، ثم قال ابن كثير:

«قلت: وعبد الله بن عمرو، وأبو سعيد، وابن مسعود، لكنه توفي قديماً، ولهذا لم يعدّه أحمد بن حنبل في العبادلة، بل قال: العبادلة أربعة: عبد الله بن الزبير، وابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص»[1].

ونكتفي بهذه الأمثلة لنرى أن اختيارات ابن كثير، وأقواله، وتعقيباته، وتعليقاته، والفوائد التي أضافها على كتاب ابن الصلاح كثيرة جداً، وتدل على تعمقه في علوم الحديث، ومهارته فيها، وتبحره في أقوال العلماء، وإحاطته بمصادرها وكتبها، ومعرفته بأئمة هذا الفن الأعلام، وأنه لا يبدي رأيه مجرداً، بل يعلله ويدعمه بالنقول عن الآخرين، مع تخريج بعض الأحاديث، ويحكم على درجتها وصحتها، مما يؤكد جهده المشكور، وعمله النافع المبرور.

طباعة الكتاب:

لقي كتاب ابن كثير «اختصار علوم الحديث» اهتماماً كبيراً من العلماء قديماً وحديثاً، وطبع عدة طبعات، منها:

١ـ اختصار علوم الحديث، أو الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث، صححه العلامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، وقدم له

---

(١) الباعث الحثيث ص ١٨٥، ١٨٨ـ١٨٩.

مقدمة نفيسة، وترجم للمؤلف، وعلق عليه بعض تعليقات مفيدة، وطبع الطبعة الأولى بمكة المكرمة سنة ١٣٥٣ هـ[١].

٢ـ الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، تحقيق وتعليق وشرح العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر، وطبع في مطبعة محمد علي صبيح، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٠ هـ/ ١٩٥١ م، ثم أعيدت هذه الطبعة عدة مرات، منها الطبعة الثالثة ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٨ م، في مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح بالقاهرة، وهي التي اعتمدنا عليها، وأحلنا إليها.

ثم طبع الكتاب من قبل الدار العلمية ـ ببيروت ـ سنة ١٩٨٣ م، وطبعة أخرى في مؤسسة الكتب الثقافية سنة ١٩٨٨ م، وطبعة بدار الفكر ـ ببيروت ـ بدون تاريخ.

شبهة وردها:

على الرغم من معرفة ابن كثير الواسعة في علوم الحديث، دراية ورواية، وحفظاً وسماعاً، وتحديثاً وتأليفاً، وممارسة واستشهاداً في معظم كتبه، فقد نقده الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى، فقال: «ولم يكن على طريقة المحدثين في تحصيل العوالي، وتمييز العالي من النازل، ونحو ذلك من فنونهم، وإنما هو من محدثي الفقهاء، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح، وله فيه فوائد»[٢].

---

(١) الباعث الحثيث ص ٤، ٦.

(٢) الدرر الكامنة ١/ ٤٠٠.

ورد كثير من العلماء القدامى والمحدثين هذه الشبهة واللمز عن ابن كثير، وكان أولهم العلامة الحافظ السيوطي، فقال: «العمدة في علم الحديث معرفة صحيح الحديث وسقيمه، وعلله، واختلاف طرقه، ورجاله جرحاً وتعديلاً، وأما العالي والنازل، ونحو ذلك فهو من الفضلات، لا من الأصول المهمة»[1].

كما اتهم الشيخ محمد زاهد الكوثري الحافظ ابن حجر بالتحيز والتعصب، فقال: «وإن كان الغالب عليه (على ابن كثير) السعة في حفظ المتون، ولكن لم يكن بحيث لا يميِّز العالي من النازل، باعتبار معرفته بطبقات الرواة وأحوالهم، جل ذلك مما لا يخفى على من هو دونه بمراحل في معرفة الرجال، كيف؟ وقد لازم المِزّي مدة طويلة في ذلك، وعني بجمع التكميل؟ وفي تراجم من شهروا بالبراعة تبدو كوامن من ابن حجر، سامحه الله»[2].

واعترف العلماء والباحثون المتأخرون بفضل ابن كثير في الحديث، فوصفه الكتاني بـ«المحدث المتقن البارع»[3]، ووصفه الشيخ أحمد محمد شاكر بقوله: «إمام عظيم، من الأئمة الثقات المحققين»[4]، وعدَّه الدكتور صلاح الدين المنجد من «أعظم العلماء

---

(١) ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦٢.
(٢) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨ هامش ٢.
(٣) الرسالة المستطرفة ص ١٧٥.
(٤) الباعث الحثيث، المقدمة ص ٦. وانظر: ابن كثير، حياته ص ٥٩.

المسلمين الدمشقيين في الفقه والتفسير والحديث والتاريخ»[1].

ولا شك أن آثار ابن كثير رحمه الله تعالى ترجح رد الشبهة التي أثارها ابن حجر، وتدحضها، وتؤكد المكانة الرفيعة التي يحتلها ابن كثير في الحديث وعلومه.

(١) مولد الرسول ﷺ، المقدمة ص ٥، وانظر: ابن كثير، حياته ص ٦٠، الاجتهاد في طلب الجهاد، المقدمة ص ٢٨.

الفَصل الثالث

ابن كثير وعلم التاريخ

تعريف علم التاريخ:

التاريخ في اللغة: تعريف الوقت، يقال: أرَّختُ الكتاب تأريخاً إذا جعلت له تاريخاً، وهو بيان انتهاء وقته، وقيل: معرَّب، وقيل: عربي[1].

والتاريخ في العرف: هو تعيين الوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع من ظهور ملَّة، أو دولة، أو أمر مهم، أو من الآثار العلوية، والحوادث السفلية مما يندر وقوعه، ويُجعل مبدأ لمعرفة ما بينه وبين أوقات الحوادث والأمور التي يجب ضبط أوقاتها في مستأنف السنين، وقيل: هو عدد الأيام والليالي والسنين بالنظر إلى ما مضى من السنة والشهر[2].

والتواريخ في العالم القديم والحديث كثيرة، أما التاريخ الإسلامي

---

(١) القاموس المحيط ١/ ٢٥٦، المصباح المنير ١/ ١٥، مختار الصحاح ص ١٣.

(٢) كشف الظنون ١/ ٢١٣، كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٥٦، أبجد العلوم ٢/ ١/ ١٨١.

فأول من وضعه الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أُتي بصك مكتوب «إلى شعبان»، فقال: أهو شعبان الماضي، أو شعبان القابل ؟ ثم أمر بوضع التاريخ، واتفقت كلمة الصحابة على ابتداء التاريخ من هجرة النَّبي ﷺ إلى المدينة، وجعلوا أول السنة المحرّم[1].

أما علم التاريخ فقد عرَّفه وبيَّنه طاش كبرى زادة فقال: «هو معرفة أحوال الطوائف، وبلدانهم، ورسومهم، وعاداتهم، وصنائع أشخاصهم وأنسبائهم، ووفياتهم. . .، إلى غير ذلك، وموضوعه: أحوال الأشخاص الماضية؛ من الأنبياء والأولياء، والعلماء والحكماء، والشعراء، والملوك والسلاطين. . .، وغيرهم، والغرض منه: الوقوف على الأحوال الماضية، وفائدته: العبرة بتلك الأحوال، والتنصُّح بها، وحصول ملكة التجارب، بالوقوف على تقلُّبات الزمن، ليُحترَز عن أمثال ما نقل من المضار، ويُستجلَب نظائرها من المنافع، وهذا العلم كما قيل: عمر آخر للناظرين، والانتفاع في مِصْره بمنافع تحصل للمسافرينْ»[2].

---

(١) المصباح المنير ١/ ١٥ـ١٦. .، المختصر في علم التاريخ ص ٣٣٠، المطبوع ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين.

(٢) مفتاح السعادة ١/ ٢٥١، وانظر: أبجد العلوم ٢/ ١/ ١٨١، المختصر في علم التاريخ ص ٣٢٥، الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ أهل التاريخ ص ٣٨٢ وما بعدها.

أهمية علم التاريخ ومشروعيته:

يمثل التاريخ أحد مصادر المعرفة الإنسانية التي اهتم بها الناس، فتدارسوه، وألِفوا مجالسه، واستمعوا أخباره، وصنَّفوا فيه، لأنه يفيد تسلية ولذة، ويعطي المتعة الكافية، ويُرضي غريزة حب الاستطلاع، ويبعث على العبرة والتفكر في الأحداث، فالعاقل من اتعظ بغيره، والمحنَّك من تخطَّى تجارب غيره، فالتاريخ يعطي القارىء والسامع نماذج من السلوك البشري بما فيه من غرائز، وعواطف، وميول، وسلوك، وطموحات، وآمال، وآلام، فرداً أو جماعة، مع بيان النتائج التي تترتب على كل تصرف، سواء كان صواباً أم خطأً، عاماً أم خاصاً، مادياً أم معنوياً، فردياً أم اجتماعياً، وهذا يثير الهمم للنهوض، أو التأسِّي بالسَّلف، أو الاقتداء بالأمم الحية، أو التحرز والتحفظ من المسالك الوعرة، والمنزلقات الخطرة التي لا تُحمد عقباها.

وجاء القرآن الكريم يذكر أخبار الأمم السابقة، وقصص النبيين والمرسلين، ولكنه باختصار شديد، مركزاً على موطن العبرة والعظة، ومكان الإثارة والاستفادة، مع النص القرآني المتكرر على هذا الهدف[1]، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ

(١) انظر: البداية والنهاية ١/ ٦ وما بعدها.

ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٠١]، وخاطب الله رسوله، آمراً له بقص الأخبار الهادفة، فقال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١١/ ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٠١]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ﴾ [طه: ٢٠/ ٩٩].

ومن هنا اتجه ابن كثير من علماء المسلمين وأئمتهم إلى جمع الأخبار، ومعرفة الأماكن والأحوال التي أشارت إليها الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، واشتاقت نفوسهم إلى التوسع في فهم القصص المذكورة في القرآن عامة، وقصص الأنبياء خاصة، وفي ذات الوقت اعتنوا عناية شديدة بسيرة الرسول ﷺ، وما يتبعها من المغازي بشكل أخص، وكانت هذه الأخبار تصب في مِحْوَرَيْن، **الأول**: محور الأخبار والقصص التاريخية، وكان صاحبها يسمى أخبارياً، وتتسم أكثر قصصه بالأوهام والخرافات والأساطير القديمة، لعدم توفر المصادر الموثوقة فيها، **والمحور الثاني**: علم الحديث والمصطلح، وكان علماء الحديث يذكرون أخبار السيرة النبوية، وآثار الصحابة والخلفاء الراشدين مع الحديث برواياته وأخباره وإسناده، ولما دُوِّنَت كتب السيرة النبوية خُصِّص باب مستقل بعنوان المغازي والسير، إلى أن

استقل علم السيرة النبوية أولاً، وخُصصت له المصنفات والكتب، ثم استقل علم التاريخ[1].

وهكذا نرى الصلة الوثيقة بين علم التاريخ، وعلم السيرة، وعلم مصطلح الحديث ورجاله وتراجمه، وكثيراً ما جمع العالم الواحد بين هذه التخصصات الثلاثة كما هو الشأن في ابن جرير الطبري أولاً، وفي صاحبنا الشيخ ابن كثير ثانياً، كما مرَّ، وكما سنرى.

مع اختلافات دقيقة بين هذ العلوم الثلاثة، وخاصة من حيث منهج النقد الدقيق الذي امتاز به علم الحديث وتفرد به لحفظ أحاديث رسول الله ﷺ وصيانتها، لتكون المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، بخلاف السيرة والتاريخ.

العرب وتدوين علم التاريخ:

اهتم العرب قديماً بعلم التاريخ، بسبب اهتمامهم بالانتساب إلى الآباء والأجداد، والعشيرة والقبيلة، فحفظوا أنسابهم، وتفاخروا بأسلافهم حتى وصلوا إلى التعصب والعصبية، فكانوا يهتمون أصلاً بتاريخهم، وتاريخ الأمم قبلهم، ومن حولهم.

---

(١) ظهر الإسلام ٢/٢٠١، ٢٠٢، التاريخ العربي والمؤرخون ١/٥٧، علم التاريخ عند المسلمين، مقدمة المترجم الدكتور صالح أحمد العلي ص/أ، تاريخ الأدب العربي، بروكلمان ٣/٧، ضحى الإسلام ٢/٣١٩، مقدمة ابن خلدون ص ٣، ٩، الإعلان ص ٣٨٥، ٤٠٦، ٤١٢.

ولما ظهر الإسلام، وتعلم العرب مختلف العلوم، وحملوا مشعل العلم والنور والحضارة، وبحثوا في مختلف جوانب المعرفة، تكوَّن عندهم رصيد هائل منها، وكانت شفهية من جهة، ومختلطة مع بعضها من جهة أخرى، حتى انتشرت الكتابة والتأليف، وتميزت العلوم.

يذكر مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي أن تدوين العلوم، وتحديد ذاتيتها، وظهور كيانها كان في منتصف القرن الثاني الهجري، فيقول: «في سنة ثلاث وأربعين (ومائة) شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير...، وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودُوِّنَت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس، وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم، أو يَرْوون العلم من صحف صحيحة غير مُرتَّبة»[1].

وهكذا نشأ علم التاريخ، واستقل عن علم الحديث، ولم يعد المؤرخ يسمى أخبارياً، واقتصر مدلول الأخباري على راوي القصص والنوادر والحكايات، وأقبل العلماء والفقهاء على دراسة التاريخ، والتأليف فيه، وصار له مكانة عالية بين الناس، واعتنى الخلفاء بسماع تواريخ الملوك في الأمم الأخرى لتكون لهم عظة، ويستفيدوا من تجاربهم، ورأَوْا أن قراءة التاريخ تفيد الفطنة والحِنْكَة، ولذلك

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٦١، النجوم الزاهرة ١/ ٣٥١، تذكرة الحفاظ ١/ ١٦٠.

قال الجاحظ: «علم النسب والخَبر علم الملوك»[1].

وفي القرن الثالث الهجري استوى علم التاريخ على سوقه، وتوطَّدت دعائمه، وظهرت فيه المؤلفات والكتب التي تجمع المواضيع المتعاقبة، إما على أساس السنين، وإما على أساس الطبقات، وإما على تاريخ المدائن، وأصبح لعلم التاريخ منهج مرسوم، وصار له روَّاده وأعلامه، ويقصده طلاب العلم لذاته، وترجمت تواريخ الأمم الأخرى إلى العربية، وأصبحت مائدة التاريخ حافلة وشهية ونافعة، وفي نهاية هذا القرن ظهر شيخ المؤرخين الطبري، وكتب «تاريخ الأمم والملوك»[2].

يقول الدكتور شاكر مصطفى: «خص العرب علم التاريخ بجانب كبير من اهتمامهم، لميلهم إلى معرفة مصائر الأمم الماضية، وحوادث الأزمان السابقة، ولاهتمامهم بالأنساب، فرووا أخباره، وجمعوا ما استطاعوا جمعه من الروايات، وألفوا فيه»[3].

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٣/ ٧.

(٢) انظر كتابنا: الإمام الطبري: شيخ المفسرين، وعمدة المؤرخين ص ٢٠٣ من سلسلة أعلام المسلمين، وانظر: ظهر الإسلام ٢/ ٢٠٢، تاريخ الأدب العربي ٣/ ٧، أصول علم التاريخ في كتاب «المختصر في علم التاريخ» للكافيجي ص ٣٣٧ وما بعدها.

(٣) التاريخ والمؤرخون العرب ١/ ٣.

ثم يقول: «إن التاريخ ـ في اعتقادي ـ علم عربي إسلامي، أو يمكن اعتباره كذلك»[1].

التاريخ في العصر المملوكي:

كانت دمشق وبلاد الشام ذات عناية شديدة بعلم التاريخ، وكتابة المصنفات والموسوعات التي دوِّنت فيه، وامتاز علماؤها بالدقة والشهرة التاريخية، مما لا مجال للتوسع فيه[2].

وظهرت هذه العناية بالتاريخ خاصة في بلاد الشام في العصر المملوكي الذي ظهر فيه عدد كبير من المؤرخين، كما ذكرنا في التمهيد.

يقول الأستاذ محمود رزق سليم: «التاريخ في مقدمة الفنون التي سعدت بالعناية، ورزقت الرعاية في هذا العصر، فقد تضافرت الجهود، وتضاعفت الهمم، وتنافست العقول والأيدي على إخراج كتب تاريخية حافلة، فامتلأت بها خزانات الكتب، وتعددت أنواعها، وتكاثرت مزاياها، حتى أصبحت ذخيرة نفيسة عظيمة القيمة، لا غنى عنها للإنسانية والتاريخ في حلقاتها الحافلة، ولو لم توجد هذه الكتب التاريخية التي ألفها رجال العصر المملوكي لأصيب

---

(١) المرجع السابق ١/٦.

(٢) انظر: معجم المؤرخين الدمشقيين، مجلد ضخم للدكتور صلاح الدين المنجد.

تاريخ مصر، وتاريخ الإنسانية معها بنقص ذريع، ولبانت فيه ثغرة فاغرة واسعة لا يستطيع أحد من بعد سدَّها»[^١].

ثم يقول: «ولم يقصروا موضوعاتهم الرئيسية على ضرب من التاريخ دون ضرب، بل طرقوا صنوفه المتعددة، وأبوابه المختلفة، فتباينت أسفاره وتعددت»[^٢].

ويبين الأستاذ محمود رزق سليم أهمية كتب تراجم الأعلام بالذات: «إنما قدمنا ذكر هذا النوع من الكتب التاريخية، لأنها أكثرها عدداً، وأوفرها عناية، وأفضلها ضبطاً، وأكثرها سعة، وأصحها استيعاباً، وأعمها نفعاً، وأوسعها تناولاً . . .، وقد لا تجد في عصر من العصور السابقة ولا اللاحقة مجموعات من كتب التراجم شبيهة بما وضع منها في هذا العصر، وأجمل ما يلفت النظر فيها عناية المؤرخين بترجمة أعلام العصر نفسه، المعاصرين لهم، وغير المعاصرين»[^٣].

ثم يقول عن كتب التاريخ العام، وترتيبها حسب السنين: «ومهما يكن من شيء فبعضها موسوعات تاريخية واسعة النطاق، من أخذ نفسه بتنظيم التاريخ حسب الطرق الحديثة يجد لجهوده في هذه الموسوعات مراحاً طيباً، ومرعى خصباً»[^٤].

---

[^١]: عصر سلاطين المماليك ٣/ ٩٢.
[^٢]: عصر سلاطين المماليك ٣/ ٩٤.
[^٣]: عصر سلاطين المماليك ٣/ ٩٥.
[^٤]: عصر سلاطين المماليك ٣/ ١١٣.

ويقول المحامي عباس العزاوي: «والملحوظ أن تدوين التاريخ كان في الشام ومصر، تكاثرت الرغبة فيه، وزالت فكرة أن التاريخ يجب أن يؤخذ عن إيران عن المغول خاصة، فلما رأينا الآثار الجليلة قطعنا بأن العرب لم يُهملوا تاريخ المغول»[1].

وهذا الكلام ينطبق على كتاب ابن كثير «البداية والنهاية» فما هي إسهاماته في هذا المضمار ؟.

إسهام ابن كثير في علم التاريخ:

نشأ ابن كثير بدمشق وتعلم بها، وتتلمذ على علمائها الذين اهتموا بالتاريخ اهتماماً بارزاً، وخاصة البِرْزالي والذهبي، كما برز علم التاريخ والتصنيف فيه في القرن الثامن، وظهر عدد كبير من المؤرخين، كما سبق في التمهيد، واتجهت عناية ابن كثير إلى علم الحديث وتراجم الرجال والسيرة، وكلها تلتقي مع علم التاريخ في جوانب عديدة، ثم عكف على كتابة التاريخ في موسوعته الرائعة، وكتابه القيم «البداية والنهاية» حتى بَزَّ أقرانه، وتفوق على سابقيه ومعاصريه، واشتهر في كتابة التاريخ كاشتهاره في التفسير، وأصبح في عداد المؤرخين الدمشقيين في القرن الثامن، بل كان ألمعهم شهرة، وأكثرهم توفيقاً وسداداً، مخلصاً في عمله، موضوعياً في بحثه.

يقول المحامي عباس العزاوي عنه: «وعلى كل حال كان من

---

(١) التعريف بالمؤرخين ص ١٩٩.

مشاهير مؤرخي العالم الإسلامي، اشتهر بصدق اللهجة والتدوين للتاريخ، فلم يُدارِ أحداً، ولا كتب لرغبة ملك، أو أمير فهو من أجلِّ رجال العلم»[1].

مصنفات ابن كثير في التاريخ:

صنف ابن كثير كتاباً واحداً في التاريخ ثم اختصره، ولكنه كتب كتباً عديدة في السيرة وتراجم الرجال، أفردناها في الفصل التالي، ونقتصر هنا على كتبه في التاريخ وما تفرع عنها مرتبة أبجدياً:

١ـ بداية الخلق:

للحافظ الإمام ابن كثير، دراسة وتحقيق إبراهيم محمد الجمل، ويقع في (١٧٥) صفحة، قدم فيه المحقق مقدمة مسهبة عن الكتاب وعصر ابن كثير، وترجمته، ومع العلم الحديث، وتعدد العوالم، ومعطيات العلم ومعطيات القرآن، وخلق الإنسان، وبداية الخلق، ومنهج التحقيق (ص ٥ـ٤٢)، ثم يبدأ الكتاب (ص ٤٥ـ١٧٢) ثم تأتي مراجع التحقيق (ص ١٧٣ـ١٧٤) ثم الفهرس (ص ١٧٥)،

يقول المحقق: «هذا الكتاب جزء من كتاب البداية والنهاية، بدأنا من الصفحة رقم ٨ إلى الصفحة رقم ٩٩ حسب طبعتي دار الفكر العربي بالقاهرة، وطبعة بيروت» (ص ٧)[2].

---

(١) التعريف بالمؤرخين ص ١٩٨.

(٢) وهذا يقابل من (ص ٨) إلى صفحة (٨١) من الطبعة التي نحيل . . .=

ويوضح المحقق منهجه في الكتاب بأنه نسخ الأصل وصححه، واختار ما يناسب موضوع الكتاب، وأعرض عن الآخر، وخرَّج الآيات والأحاديث، وترجم للأعلام والبلدان والمواضع، وعلق على ما يستحق من تعليق، وقارن (في الهامش) بين ما ورد في الأصل، وبين ما جاء في العلم الحديث من منظور إسلامي، واختار العنوان المناسب لروح العصر «بداية الخلق» (ص ٤٢).

٢ـ البداية والنهاية:

وهو كتاب الأصل في التاريخ لابن كثير، وسوف نفرده بالدراسة والتحليل.

٣ـ الدلائل، معجزات النَّبي ﷺ:

وهو كتاب مطبوع حديثاً بدراسة وتحقيق محمد عبد العزيز الهلاّوي، والكتاب مأخوذ من كتاب «البداية والنهاية»[1] وسنشير إليه مرة أخرى في السيرة النبوية في الفصل القادم، ونشره الدكتور مصطفى عبد الواحد بعنوان: «شمائل رسول الله ﷺ ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه» في مجلد مستقل[2]، كما سنوضحه في الفصل الثالث عن السيرة.

= إليها سنة ١٩٦٦ بالرياض وبيروت.

(١) يقع كتاب الشمائل في الجزء السادس من البداية والنهاية ص ١١ـ٣٠٠.

(٢) ابن كثير، حياته ص ١٠٨.

٤ـ علامات يوم القيامة:

للحافظ ابن كثير الدمشقي ٧٧٤ هـ، تحقيق وتعليق عبد اللطيف عاشور، نشر مكتبة القرآن، القاهرة، سنة ١٩٨٠ م، ويقع في ٩٦ صفحة من القطع العادي.

يصرح المحقق في مقدمته فيقول: «فهذا الكتاب هو جزء من كتاب «البداية والنهاية» للإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى، اقتصرت فيه على الأحاديث الجامعة، والخاصة بعلامات الساعة، وما يكون بين يديها من عبر، وآيات، وشرور ستحدث وستقع، ومنها ما هو حادث وواقع في حياة الناس في هذه الأيام»[1].

ثم بين الهدف من نشر الكتاب، وأنه خرج أحاديثه، وقدم ترجمة للمؤلف في ثلاث صفحات، وعرض علامات الساعة وأشراطها، ووضع كل منها في عنوان مستقل، منها «ذكر أخبار الساعة، ذكر الفتن جملة، افتراق الأمم، المهدي، الدجَّال، نزول عيسى عليه السلام، الدخان، الصواعق، المطر الشديد، وأخيراً: صفة أهل آخر الزمان».

٥ـ قصص الأنبياء:

وهو أجزاء من «البداية والنهاية» فصلها عدد من المعاصرين، وكل واحدة طبعها طبعة مستقلة في بيروت والقاهرة، ودمشق.

---

(١) علامات يوم القيامة ص ٣.

٦ـ الكواكب الدراري:

وهو كتاب انتخبه ابن كثير نفسه من كتابه «البداية والنهاية» واختصر الأحداث التاريخية، ويقع في ثلاث مجلدات، ولا يعرف منه اليوم إلا المجلد الثالث في مكتبة عمومي باستنبول رقم ٥٠١٦[١].

٧ـ المسيح عيسى ابن مريم:

للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق وتعليق الأستاذ عبد الرحمن حسن محمود، نشر مكتبة الآداب ـ القاهرة ـ ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م، ويقع في ١٥٩ صفحة ثم صفحة للفهرس، من الحجم الوسط، وبدون مقدمة نهائياً عن الكتاب والمؤلف.

وبعد المقارنة بين هذا الكتاب، وما جاء في «البداية والنهاية» وجدت أن الكلام متطابق حرفياً، مما يدل أن هذا الكتيب أحد فصول الكتاب الأصلي، ومستل منه[٢].

٨ـ النهاية في الفتن والملاحم:

وهو تكملة كتاب «البداية والنهاية» ويقصد به ابن كثير رحمه الله تعالى بيان ما سوف يجري في آخر الدنيا.

---

(١) كشف الظنون ٢/ ٣٣٧، هدية العارفين ٥/ ٢١٥، معجم المؤرخين الدمشقيين ص ٢٠٤، التاريخ العربي والمؤرخون ٤/ ٨٤ـ٨٥.

(٢) انظر: البداية والنهاية ٢/ ٥٦ـ١٠٢.

ولم يطبع الكتاب سابقاً مع «البداية والنهاية» ثم طبع مؤخراً خمس مرات، في خمس دور نشر، في الرياض والقاهرة وبيروت، منها الطبعة التي ضبطها وصححها الأستاذ أحمد عبد الشافي، ونشرتها الدار العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م، وتقع في ٤٣٢ صفحة من الحجم الكبير، ومقسم إلى جزأين في مجلد واحد[١]، وسوف يرد الكلام عنه مع الكتاب الأصلي «البداية والنهاية».

مضمون البداية والنهاية:

هو كتاب في التاريخ عامة، والتاريخ الإسلامي خاصة، فاشتمل على تاريخ ما قبل الإسلام من بدء الخليقة، وهو المقصود «بالبداية»، ثم يذكر قصص الأنبياء، بدءاً من قصة آدم عليه السلام، ثم أخبار الأمم السالفة، حتى وصل إلى السيرة النبوية تفصيلاً، مع التوسع في سيرة الرسول ﷺ ومعجزاته، وتابع المسيرة مع تاريخ المسلمين في العهد الراشدي، فالأموي، فالعباسي، وما زامنه من العهد الفاطمي، والأيوبي، ثم المملوكي.

ورتب ابن كثير كتابه حسب السنين، فيقول: ثم بدأت سنة كذا، ويذكر الأحداث المهمة فيها بما يتعلق بالدولة والأحداث التاريخية

---

(١) ومنها الطبعة التي حققها الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري، ونشرتها المكتبة القيمة بالقاهرة، وطبعتها أربع طبعات، الأولى سنة ١٣٩٨ هـ، والرابعة سنة ١٤٠٧ هـ، وتقع في ٥٢٨ صفحة من الحجم العادي.

والخارجية والحروب والأوبئة والمجاعات، ثم يتعرض لوفيات تلك السنة بالإيجاز والاختصار، وترجمة الخلفاء والأمراء والعلماء الأعلام، دون استيعاب، حتى وصل إلى نهاية حوادث ٧٦٧ هـ.

ويأتي بعد ذلك بأخبار نهاية الأمم والعالم، وهو المراد «بالنهاية» ويكون المضمون متفقاً مع العنوان «البداية والنهاية».

يقول ابن كثير في مقدمته، مبيناً هدفه، ومضمون كتابه، ومنهجه فيه:

«فهذا كتاب أذكر فيه، بعون الله، وحسن توفيقه، ما يسره الله تعالى بحوله وقوته، من ذكر مبدأ المخلوقات: من خلق العرش، والكرسي، والسموات، والأرضين، وما فيهن، وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين، وكيفية خلق آدم عليه السلام، وقصص النبيين، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل، وأيام الجاهلية، حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، فنذكر سيرته، كما ينبغي، فتشفي الصدور والغليل، وتزيح الداء عن العليل».

«ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا، ونذكر الفتن والملاحم وأشراط الساعة، ثم البعث والنشور وأهوال القيامة، ثم صفة ذلك، وما في ذلك، وما يقع فيه من الأمور الهائلة، ثم صفة النار، ثم صفة الجنان، وما فيها من الخيرات الحسان، وغير ذلك، وما يتعلق به، وما ورد في ذلك من الكتاب والسنة، والآثار والأخبار المنقولة

المقبولة عند العلماء ورثة الأنبياء، الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام».

«ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب، مما فيه بسط لمختصر عندنا، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا، مما لا فائدة في تعيينه لنا، فنذكره على سبيل التحلي به، لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه، وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ما صح نقله، أو حسن، وما كان فيه ضعف نُبيِّنه، وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[1].

أقسام البداية والنهاية:

يقع كتاب «البداية والنهاية» في ستة عشر جزءاً، وينقسم إلى أربعة أقسام رئيسة[2]، وهي:

الأول: ما ذكره عن بدء الخليقة، وطرفاً من تواريخ الأمم الغابرة حتى يبلِّغه العرب في الجاهلية، وهذا يغطي الجزء الأول، وثلثي الجزء الثاني حتى (ص ٢٥٢)، ويمكن تسميته: التاريخ القديم.

الثاني: السيرة النبوية، وتبدأ من نشأة الرسول ﷺ، ثم الوحي

(١) البداية والنهاية ١/ ٦.
(٢) البداية والنهاية ١/ ٣.

وظهور الإسلام، والهجرة إلى المدينة المنورة، وقيام الدولة الإسلامية، وما رافقها من أحداث وغزوات حتى فتح مكة وما بعده، ثم حجة الوداع، وانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى في السنة الحادية عشرة للهجرة، وألحق به كتاب الشمائل، وهي معجزات النَّبي ﷺ.

ويبدأ هذا القسم من الثلث الأخير من الجزء الثاني، لكن ذهب الدكتور مصطفى عبد الواحد، ومن تبعه، عند طباعة السيرة النبوية مستقلة، إلى البدء من أخبار الجاهلية، وتحديداً من عنوان «ذكر أخبار العرب» (ج٢ ص ١٥٦)، وينتهي هذا القسم عند عنوان «كتاب تاريخ الإسلام الأول من الحوادث الواقعة في الزمان، ووفيات المشاهير والأعيان سنة إحدى عشرة من الهجرة، وخلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه» (ج٦ ص ٣٠١)، وهذا القسم يغطي ثلث الكتاب.

الثالث: تأريخ العهد الراشدي: فالدولة الأموية، فالعباسية، وما تفرع عنها من ممالك ودولات أيام انحطاطها وتدهورها حتى سقوط بغداد، ثم قيام دولة المماليك القائمة في حياة ابن كثير، فأرخ لها حتى سنة ٧٦٨ هـ وقبيل وفاته بعدة سنوات[١].

---

(١) يرى الشيخ محمد راغب الطباخ أن تاريخ ابن كثير ينتهي عند سنة ٧٣٨ هـ، وأن تاريخ السنين من ٧٣٨ هـ إلى سنة ٧٦٨ هـ هي بلا ريب لغير الحافظ ابن كثير، ويبرهن على رأيه (انظر مجلة المجمع العلمي العربي=

ويتحدد هذا القسم من (ج ٦ ص ٣٠١ فعرض سنتين من الخلافة الراشدة في هذا الجزء) وتابع بقية الأحداث حتى نهاية الجزء الرابع عشر، وهو أطول الأقسام، ويمكن تسميته: التاريخ الإسلامي.

الرابع: وهو النهاية، وفيه ذكر الآخرة، وعلامات قرب الساعة ومظاهرها، مع الأحاديث الشريفة التي تتضمن الوعظ الديني، والتذكير بمخافة الله تعالى، والاستعداد للرحيل، والحساب ويوم الجزاء، ويقع هذا القسم في جزأين، ومطبوع في مجلد واحد عدة مرات وفي أقطار مختلفة، وبتحقيقات متنوعة.

منهج ابن كثير في البداية والنهاية:

لم يلتزم ابن كثير رحمه الله تعالى منهجاً واحداً في كتابه، لاستحالة ذلك في التاريخ القديم، واختلاف طبيعة الموضوع، ولذلك غيَّر منهجه حسب الأدوار التاريخية، والأحداث التي عرضها، وبين جانباً من منهجه في المقدمة التي اقتبسنا بعضها قبل قليل[1].

= بدمشق مجلد ١٨ ص ٣٧٦-٣٧٧)، ويعتمد في كلامه على ما نقله السخاوي في ترجمة ابن حجي المتوفى سنة ٨١٦ هـ (الضوء اللامع ١/ ٢٧٠) وما قاله ابن العماد في (شذرات الذهب ٧/ ١١٧)، ولكن الدكتور الندوي ذكر هذه الاحتمالات، وناقشها، وذكر نصوصاً من هذا الجزء الأخير «تشير بصراحة متناهية بأن هذا الجزء أيضاً لنفس المؤلف الذي كتب التاريخ قبل سنة ٧٣٩ هـ» (ابن كثير، حياته ص ٩٦-١٠١).

(١) انظر: ابن كثير كمؤرخ ص ٨ وما بعدها، ١٤٢ وما بعدها.

ويمكننا استنتاج منهج ابن كثير رحمه الله تعالى في النقاط التالية:

١ـ تأثر ابن كثير في القسم الأول: بدء الخلق، والتاريخ القديم، وفي القسم الرابع: النهاية في الفتن والملاحم بما ورد من ذلك من الكتاب الكريم والسنة النبوية والأخبار والآثار المنقولة المصطفاة، مع اختيار بعض الأخبار الإسرائيلية.

٢ـ التزم ابن كثير رحمه الله تعالى في القسم الثاني: السيرة النبوية التزم المنهج السابق من جهة وخاصة في أخبار قبل البعثة والهجرة، ثم رتب الأحداث حسب السنوات من جهة أخرى، وهي أخبار الدولة الإسلامية في المدينة بعد الهجرة، وأفرد بعض الموضوعات بدراسة موضوعية مستقلة من جهة ثالثة، مثل كتاب الشمائل التي تعني معجزات النَّبي ﷺ.

٣ـ أما في القسم الثالث فقد التزم فيه سرد الأحداث التاريخية على السنوات المتتالية، متتابعة سنة فسنة، في جميع الأمصار والبلدان التي تناولها.

٤ـ الاختيار: إن كتاب «البداية والنهاية» موسوعة تاريخية، ومع ذلك لم تغط جميع الأخبار التاريخية والأحداث التي وقعت في التاريخ الإسلامي، وخاصة المغرب والأندلس، وكأن المؤرخين المشارقة يكتبون ـ غالباً ـ عن الشرق الإسلامي، والمؤرخين المغاربة يختصون ـ غالباً ـ بالغرب الإسلامي.

٥ـ واستفاد ابن كثير ممن تقدمه من كبار المؤرخين، كالطبري،

وابن عمر، والواقدي، وأصحاب السير، وابن الأثير، وابن الجوزي، وأبي شامة، وسبط ابن الجوزي، وابن خلكان، والكازروني، والشهاب محمود، واليونيني، والجزري، وأبي الفداء، وابن الساعي، والبِرْزالي، كما اعتمد على كتب التفسير والحديث والسيرة وأصول الفِقه، وخاصة الطبري، وابن الجوزي، وابن الأثير[1].

٦ـ اعتمد ابن كثير رحمه الله تعالى على كتاب أبي شامة، ونقل ملخص تاريخه لما يخص أيامه إلى سنة ٦٦٥ هـ التي مات فيها أبو شامة، فجاء البِرْزالي الذي ولد في هذا العام أيضاً، فتابع تاريخ أبي شامة في كتابه «المَقتفي لتاريخ أبي شامة»، فاعتمد ابن كثير في أخبار القرنين السابع والثامن على ما انتقاه من «تاريخ البرزالي» ونص على ذلك في آخر أحداث سنة ٧٣٨ هـ فقال:

«هذا آخر ما أرخه شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في كتابه الذي ذيل به على تاريخ الشيخ شهاب الدين أبي شامة المقدسي، وقد ذيلت على تاريخه إلى زماننا هذا، وكان فراغي من الانتقاء من تاريخه في يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين وسبعمائة أحسن الله خاتمتها آمين، وإلى هنا انتهى ما كتبته من لدن خلق آدم إلى زماننا هذا، ولله الحمد والمنة، وما أحسن ما قاله الحريري:

---

(١) انظر دراسة مفصلة لمصادر ابن كثير في كتاب (ابن كثير كمؤرخ ص ١١ وما بعدها، ١١٠ وما بعدها).

إنْ تَجِــدْ عَيْبــاً فَسُــدَّ الخَلَــلا   جَـلَّ مَـنْ لا عيـبَ فيـه وعَـلا

كتبه إسماعيل بن كثير بن ضوء القرشي الشافعي، عفا الله تعالى عنه آمين»[1].

٧ـ نقد الحوادث: لم يكتف ابن كثير بنقل الأخبار، والتعرض للحوادث، بل امتاز فوق ذلك بالتعرض لنقدها، وهو ما أفاض فيه عند ذكر حريق الجامع الأموي بدمشق[2].

٨ـ انتقاء الأعلام: عرض ابن كثير في نهاية أحداث كل سنة إلى أسماء وتراجم الأعلام الذين ماتوا في تلك السنة، وخاصة من الخلفاء والأمراء والعلماء الأعلام، وكان عمله انتقائياً فلم يستوعب أسماء الجميع، ولم يشمل كتابه كثيراً من العلماء، وكأن منهجه في ذلك لمجرد التمثيل.

٩ـ الاستشهاد بالشعر: كان ابن كثير يستشهد بالأشعار، سواء كانت بيتاً أو أكثر، وكان يذكر أحياناً قصائد كاملة، حتى بلغ فهرس الشعر وحده (١٠٣) صفحات من فهارس «البداية والنهاية» (ص ٢٣٥ـ ٣٣٧) التي أعدها الأستاذ علي شيري.

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٨٣ـ١٨٤، وجاء أول الشطر الثاني في المطبوعة: فجلا، وانظر: ابن كثير، حياته ص ٩٦ـ٩٧.

(٢) يقول الدكتور الندوي: «إن رسوخه في العلوم الإسلامية كان سبباً في تحقيق الأحداث الإسلامية، وإبداء الآراء القاطعة فيها، وهذا هو الذي يميز مؤرخنا عن غيره من المؤرخين» (ابن كثير كمؤرخ ص ٧).

١٠ـ التطرق للأبحاث والمسائل الفقهية التي ترد عرضاً مثل نسخ تأخير الصلاة في الجهاد بصلاة الخوف (٢/ ٢٥، ٤/ ٨٢، ١١٠) وولاية كل ابن لأمه (٤/ ٩١)، وعلامة البلوغ (٤/ ١٢٥)، ووجوب الحج على المستطيع (٤/ ١٨٠)، ومسائل الحج (٥/ ١١٠، ١٤٢، ١٥٨، ١٦٤)، ومسح الخف (٦/ ٢٤)، والعمل بالقافة (٥/ ٣١٢)، ونكاح المتعة (٤/ ١٩٣)[1].

١١ـ قوة الشخصية: كان ابن كثير رحمه الله تعالى ينقل الأخبار، ولكنه يحللها، ويعلق عليها، وله موقفه الخاص الذي يبديه صراحة، ولا يخفيه، مع الجرأة في ذلك، والثقة بالنفس، والمعرفة بالرجال، والاستفادة من منهج المحدث وصدقه[2]، وكان يتحرى الصدق، ويلتزم التثبت من الحقيقة، ويجتنب التحيز، مع الجرأة في الحق، والصراحة في النقد حتى في حوادث عصره، بإنكار البذخ والتكلف والمخالفات الشرعية، وإنصاف الحكام ببيان الجوانب الإيجابية والصحيحة في سياسة المماليك في وقته[3].

---

(١) انظر نماذج أخرى في (ابن كثير كمؤرخ ص ٤٥).

(٢) انظر: التاريخ العربي والمؤرخون ٤/ ٨٣ وما بعدها، التعريف بالمؤرخين ص ١٩٧، المؤرخون الدمشقيون في مجلة معهد المخطوطات العربية ٢/ ١/ ١١٥ـ١١٦، الفصول ص ٤٣، النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، مفتاح السعادة ١/ ٢٥٤، كشف الظنون ١/ ١٨٧، الفصول ص ٤٣.

(٣) انظر نماذج وأمثلة في (ابن كثير، كمؤرخ ص ١٥٥ وما بعدها، البداية=

المآخذ على البداية والنهاية:

وردت بعض المآخذ على كتاب «البداية والنهاية» منها:

١ـ عدم التوازن في تقسيم الكتاب، والتوسع في جانب، والاختصار في جانب آخر.

٢ـ عدم شمول الوفيات فيه للعلماء الأعلام الذين ماتوا في سنة ما.

٣ـ إن تقسيم الأحداث حسب السنين، تضطر المطلع إلى بذل مجهود كبير، ليجمع أشتات حادثة معينة وقعت في سنين متفرقة، أو جمع حوادث مصر معين في عدة سنين[1].

تقييم البداية والنهاية:

يقول الدكتور شاكر مصطفى عن هذا الكتاب: «وهو تاريخ عام، أسرف في أقسامه الأولى في الإسرائيليات ونقدها، مميزاً صحيح الأخبار عن سقيمها في ضوء الكتاب والسنة، وأطال في السيرة النبوية والراشدين...، وهو في ذلك جمّاعة، جيد الانتقاء والتنظيم والعرض...، ولعل ميزة تاريخه أنه يتعرض بالنقد للحوادث الماضية،... غير أنه له دوماً موقفه الخاص الذي لا يخفيه بصدق

= والنهاية ١٣/٣٢٧، ١٤/٣٧٨، ٣١٥، ٣١٧، ٣٢، ١٤٩).

(١) عصر سلاطين المماليك ٣/١١٣.

المحدث، وجرأته، وثقته، ومعرفته بالرجال، ولعل أجود ما فيه السيرة النبوية. . .، والتاريخ تقليدي المنهج، ومع ذلك يقوم على الأساس الحولي»[1].

وأطنب السخاوي في تقييم تاريخ ابن كثير، ووصف المؤلف بأنه من أكابر المؤرخين، صادق اللهجة، كاملاً. . .، ثم قال: «ولا تسقط مزاياه بالعثور على تاريخ «البرزالي» المسمى بالمقتفي، ولا بالاطلاع على ذيل الروضتين، أو الروضتين نفسها»[2].

وفي تقديري إن شهرة ابن كثير في التاريخ مقترنة بشهرته في التفسير، ولا تقل إسهاماته في التاريخ عنها في التفسير[3]، وإن الكتاب قيم، ومفيد، ويأتي في طليعة كتب التاريخ العام، والتاريخ الإسلامي، وخاصة أن صاحبه مفسر أولاً، ومحدث ثانياً، وخبير بالسيرة النبوية ثالثاً، ويتمتع بالصفات المؤهلة للتأليف والتصنيف، مع الحياد والموضوعية، والاعتماد على القرآن والسنة، وتحليل الأحداث من منظور إسلامي، مما جعل هذا الكتاب محل الاهتمام والاعتبار والنظر، واشتهر في العالم قديماً وحديثاً، وعكف عليه

---

(١) التاريخ العربي والمؤرخون ٤/ ٨٣، ٨٤.

(٢) التعريف بالمؤرخين ص ١٩٧.

(٣) ويقول الدكتور الندوي: «إن مكانة ابن كثير كمؤرخ ليست أقل من شهرته وامتيازه في التفسير والحديث اللذين عُرِفَ بهما» (ابن كثير، كمؤرخ ص ٧).

الباحثون والدارسون والعلماء، ولذلك قال عنه الشوكاني: «وله التاريخ المشهور»[1]، مع الأسلوب الواضح، والتوثيق، وحسن الاختيار.

وقال الدكتور الندوي عنه: «وهي موسوعة نفيسة شاملة معروفة...، وهي من أكبر التواريخ الإسلامية حجماً، وأغزرها مادة، وأكثرها فائدة»[2].

ملخصات وذيول البداية والنهاية:

نظراً لأهمية كتاب «البداية والنهاية» أقبل الناس والعلماء على دراسته وتلخيصه وكتابة الذيول عليه.

وأول من لخصه ابن كثير نفسه في كتابه «الكواكب الدراري» وجاء الملخص في ثلاث مجلدات كما سبقت الإشارة إليه.

وقال ابن قاضي شهبة: «وقفت عليه بخطه من سنة...، وما عدا ذلك وقفت على مختصر منه لخصه بعض أصحابنا»[3].

وقد لخصه البدر العيني تماماً، واختصره الحافظ أبو الفضل أحمد ابن علي بن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ[4].

---

(١) البدر الطالع ١/ ١٥٣.

(٢) ابن كثير، حياته ص ٩٦.

(٣) كشف الظنون ١/ ١٨٧.

(٤) كشف الظنون ١/ ١٨٧، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٨ هامش ٣.

وترجم الأصل بالتركية محمود بن محمد دلشاد[1].

كما كتبت ذيول على كتاب «البداية والنهاية» منها ما ذكره السخاوي[2].

١ـ ذيل عليه ابنه، في مجلد[3].

٢ـ إنباه الغمر في أبناء العصر: الذي يصلح أن يكون ذيلاً، من تأليف ابن حجر، فابتدأه به سنة مولده، ويوافق تكميل حوادثه.

٣ـ ذيل عليه ابن حِجي، ومات عنه وهو مسودة، واسمه «عبر الأبصار وخبر الأمصار» وهو في خزانة برلين العربية، ورقمه ٩٤٥٨.

٤ـ أخذ هذه المسودة التقي بن قاضي شهبة، فبيضها، وزاد عليها.

٥ـ ذيل صلاح الدين محمد بن شاكر الكتبي الدمشقي، المؤرخ[4].

---

(١) كشف الظنون ١/١٨٨، التعريف بالمؤرخين ص ١٩٩، ابن كثير كمؤرخ ص ١٦٠.

(٢) الإعلان بالتوبيخ ص ٦٧٨، وقال السخاوي في ترجمة ابن حجي: «وله تاريخ مفيد ذيل به على تاريخ ابن كثير، بدأ به من سنة ٧٤١هـ وآخر ما علق منه إلى ذي القعدة سنة ٨١٥ هـ» الضوء اللامع (١/ ٢٧٠).

(٣) الإعلان بالتوبيخ ٦٧٨.

(٤) الإعلان بالتوبيخ ص ٦٧٨ وما بعدها، وانظر: ابن كثير، كمؤرخ =

طباعة «البداية والنهاية»:

حظي كتاب «البداية والنهاية» بالقبول في العصر الحاضر، وأقبل الناس عليه، ويسَّر الله تعالى له جهات متعددة لطبعه ونشره، ووضعه بين أيدي الطلابْ والباحثين والعلماء.

ولكنه لم يطبع كاملاً في طبعة واحدة، بل طبع القسم الأكبر منه أولاً بدون «النهاية» عدة طبعات، ثم طبعت «النهاية» مستقلة أخيراً عدة طبعات أيضاً.

وطبع القسم الأول المكتبة السلفية في أربعة عشر مجلداً بالقاهرة سنة ١٩٣٥ م، وطبعته مطبعة السعادة في أربعة عشر مجلداً أيضاً بالقاهرة سنة ١٣٥١ هـ، ثم صورت مكتبة المعارف ببيروت، ومكتبة النصر بالرياض طبعة مكتبة السعادة في أربعة عشر جزءاً، ووضعته في سبع مجلدات، وهذه الطبعات الثلاثة غير محققة، وفيها أخطاء وتصحيفات، وكل هذه الطبعات بالقطع الكبير.

ثم قام الأستاذ علي شيري بتصحيح وتحقيق الطبعة الجديدة التي نشرتها دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٩ م، وتقع في سبع مجلدات تضم أربعة عشر جزءاً من القطع الكبير، وأضاف مجلداً آخر للفهارس يقع في ٩٨٠ صفحة،

= ص ١٥٨ وما بعدها، التعريف بالمؤرخين ص ٢٠٠، ابن كثير، حياته ص ١٠٠.

وفيه فهرس الآيات، والأحاديث، والوفيات، والشعر، والقبائل والجماعات، والأماكن، وأيام العرب، ثم فهرس الأعلام.

أما النهاية في الفتن والملاحم فطبع مؤخراً أكثر من خمس مرات في جزأين بمجلد واحد، مرة بالحجم العادي، ومرة بالحجم الكبير، في خمس دور في الرياض والقاهرة وبيروت، وهو محقق تحقيقاً أولياً من كل من: محمد فهيم أبو عبية في طبعة الرياض، وإسماعيل بن محمد الأنصاري في طبعة القاهرة التي تكررت أربع مرات، وأحمد عبد الشافي في طبعة بيروت[1]، ثم قام السيد محمد أحمد عبد العزيز فحققه واختصره وعلق عليه،وطبع بدار التراث الإسلامي ـ بالقاهرة ـ سنة ١٩٨٩ م، وجاء في ٣٩٥ صفحة، وكان السيد محمد أحمد عبد العزيز قد حقق الكتاب بدون اختصار، وطبعته دار التراث الإسلامي بالقاهرة سنة ١٩٨٦ م، في جزأين، ويقع في (٨٨٩ صفحة).

وهنا نذكر مرة ثانية بالكتب التي تفرعت حديثاً من كتاب البداية والنهاية، وسبق ذكر بعضها، وسنذكر القسم الآخر في الفصل التالي إن شاء الله تعالى.

---

(١) الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م، وتقع في ٤٣٢ صفحة من الحجم الكبير، ومقسمة إلى جزأين.

الفصل الرابع

ابن كثير وعلم السيرة والتراجم والرجال

مقدمة عن علم التاريخ والسيرة والتراجم والرجال:

علم السيرة جزء من التاريخ، وينطبق عليه ما ينطبق على علم التاريخ مع خصوصيته بسيرة النَّبي ﷺ، وتاريخ العهد النبوي في مكة والمدينة، وبيان الأحداث الجسام التي جرت في هذا العهد، والتي يكون محورها وأساسها محمداً رسول الله ﷺ، ولذلك استقلت عن علم التاريخ، ودرسناه بفصل مستقل.

ودراسة التراجم تشبه كثيراً علم السيرة، لأن التراجم سيرة لشخص معين، أو لطبقة معينة، أو لفئة منسوبة إلى صفة خاصة، كتراجم الصحابة، أو طبقات الشافعية، أو تراجم البخاري، وهذا هو السبب في ضمها إلى علم السيرة في هذا الفصل.

كما أن علم الرجال هو دراسة لسيرة الأشخاص، ولكنه اختص بعلم رواة الأحاديث النبوية، مع التركيز خاصة على جانب الجرح والتعديل، لبيان مدى قبولهم في رواية الحديث النبوي، وبالتالي الحكم على الحديث صحة وحسناً وضعفاً وغير ذلك، ولذلك يدرس

غالباً مع علوم الحديث، ولكننا وجدناه أقرب للسيرة والتراجم، فوضعناه في هذا الفصل.

وهكذا تظهر الصلة الوثيقة بين علم الحديث أولاً، وعلم التاريخ ثانياً، وعلم السيرة النبوية ثالثاً، وعلم التراجم رابعاً، وعلم الرجال خامساً، وأن المبرزين في علم الحديث ورجاله يشتغلون ـ غالباً ـ بالتاريخ والسيرة والتراجم والرجال، كالبخاري (٢٥٦ هـ) والطبري (٣١٠ هـ) وابن الجوزي (٥٩٧ هـ) وابن الأثير (٦٣٠ هـ) وأبي شامة (٦٦٥ هـ) والذهبي (٧٤٨ هـ) وصاحبنا العلامة الحافظ المؤرخ ابن كثير (٧٧٤ هـ) ثم يأتي ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) وغيره، رحم الله الجميع.

ميزة السيرة النبوية:

إن المقصود من علم السيرة النبوية الاطلاع على حياة النَّبي ﷺ، ودراسة شخصيته وصفاته وجميع تصرفاته، وطريقته في الدعوة والتبليغ والتربية، ومعرفة الأحداث التي شارك فيها، أو جرت في زمانه وعهده، وغيَّرت وجه التاريخ، ولذلك تعتبر السيرة النبوية جزءاً من الحديث الشريف، لأنها تصف حياة رسول الله ﷺ في أحواله الخاصة والعامة، وهذا موضوع علم الحديث، والمدوَّن في كتب السنة.

ولكن اختلاف المنهج في الجمع والتدوين، والرواية والنقل، فرَّق بينهما، وجعلهما علمين مستقلين، فعلم الحديث يخضع لمنهج نقدي

دقيق، ويعتمد على الرواية الموثوقة، ليكون مصدراً صحيحاً ومعتمداً للتشريع والأحكام، بينما بقيت أخبار السيرة مسايرة لعلم التاريخ في نقل الروايات والأخبار، مع زيادة الاحتياط فيها، والتدوين المستقل والمباشر لها، وذكر الأسانيد فيها، لكن دون تمحيص ولا تدقيق.

وتمتاز السيرة النبوية ـ كالحديث ـ بأنها تمثل الصورة المثالية للحياة الإنسانية، وتقدم للمسلم خاصة، وللإنسانية عامة، أكمل صورة للبشر، ليكون رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة، والقدوة المثلى، لمن كان يبغي الخير والصلاح والإصلاح والتقوى، ويرجو اليوم الآخر.

كما تمتاز السيرة النبوية عن سيرة بقية الأنبياء والعظماء والمصلحين والقادة في العالم القديم والحديث بميزات فريدة، مما جعلها في مكان مرموق، واهتمام بالغ، ودراسات مستفيضة ومتنوعة[1].

إسهام ابن كثير في السيرة والتراجم والرجال:

بدأت عناية ابن كثير رحمه الله تعالى ـ منذ أول حياته ـ بحفظ أحاديث رسول الله ﷺ، ثم بدأ بدراسة كتب السنة، ومعرفة رجال الحديث، وامتد ذلك إلى علم التاريخ، ثم تفرع عنه الاهتمام بتراجم الأشخاص وسيرتهم.

---

(١) انظر التعريف بالسيرة النبوية، وأهم ميزاتها، والمؤلفين فيها، وأشهر كتبها في «مرجع العلوم الإسلامية ص ٦٣٩ وما بعدها».

وكان ابن كثير متعمقاً ومحلقاً في هذه الجوانب، وصنف الكتب العديدة، وكان له باع طويل، وإسهامات جلى في التأليف فيها، مما جعله عمدة المؤرخين في عصره إلى زمننا الحاضر، وسيبقى شعلة مضيئة في هذا الخصوص إلى المستقبل إن شاء الله تعالى.

وكتب ابن كثير ثلاثة كتب في السيرة النبوية (مطولة، ومختصرة، ومولد الرسول) وأخذ من كتابيه «التفسير» و «البداية والنهاية» ثلاثة كتب أخرى (الإسراء والمعراج، والدلائل، والشمائل) وكتب خمسة كتب في سيرة الخلفاء والأمراء، وكتاباً في طبقات الشافعية ومناقب الإمام الشافعي، وكتاباً ضخماً في تراجم رجال الحديث (التكميل) وعرفنا بهذه الكتب تعريفاً موجزاً في السابق (ص١٦٩ـ١٧٥)، ونخصها بشيء من التفصيل في هذا الفصل.

كتب ابن كثير في السيرة والتراجم والرجال:

كتب ابن كثير رحمه الله تعالى ستة عشر كتاباً ما بين كتاب مستقل ورسالة ومستل من كتبه الأخرى، نعرضها مع الترتيب الأبجدي:

١ـ استشهاد الحسين رضي الله عنه:

وهو رواية ابن كثير رحمه الله تعالى من كتابه «البداية والنهاية»[١]، استخرجها الدكتور محمد جميل غازي، وضم إليها «رأس الحسين

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٧٢ـ٢١٢ وتتضمن استشهاده، وقبره، ورأسه، وفضائله، وأشعاره.

رضي الله عنه» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وجمع بينهما في كتاب نشرته «مطبعة المدني» بالقاهرة، سنة ١٣٩٧ هـ، ورقم الإيداع ٢٧٥٩/ ٨٥.

يقول الدكتور محمد جميل غازي: «ولقد اخترت رواية ابن كثير لاستشهاد الحسين، لأنها أقرب الروايات إلى الصدق، وأنآها عن التزيد والإضافة والهوى، وعملت في اختيار هذا بنصيحة القاضي ابن العربي حيث يقول: «لا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث، ولا تسمعوا لمؤرخ كلاماً إلا للطبري»[1].

وجاء: «استشهاد الحسين» من (ص ٥ حتى ص ١٥٠) ثم أعقبه «رأس الحسين لابن تيمية» (ص ١٥١-١٩٠)، بعرض أمين، وليس فيه تعليق أو تحقيق أو تهميش إلا بضعة هوامش في القسم الثاني.

٢- الإسراء والمعراج، وهل رأى النَّبي ﷺ ربه ؟:

حققه وعلق عليه عبد العزيز الهلالي، ونشرته دار الطلائع بالقاهرة، سنة ١٩٩٢ م، ويقع في ١٥٩ صفحة من القطع الصغير.

وهذا الكتاب، وإن كان يتعلق بجانب من السيرة النبوية الشريفة، ولكن المحقق أخذه من «تفسير ابن كثير» في أول سورة الإسراء[2].

---

(١) استشهاد الحسين، المقدمة ص ١١-١٢. عن العواصم من القواصم ص ٢٤٧ بتحقيق محب الدين الخطيب.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢-٢٤.

وقال المحقق في مقدمته: «وقد أجاد ابن كثير، وأفاد في «تفسيره الكبير» مما دعاني إلى تقديم ما قاله للقارىء المسلم، ليكون على بينة مما جاء بشأن الإسراء والمعراج من قرآن وحديث» ثم قال: «فتعال إلى ابن كثير لكي تعيش معه لحظات في ذلك الأفق الوضيء الطليق المرفرف الذي عاش فيه محمد ﷺ، ترف من حوله أجنحة النور المنطلقة إلى الملأ الأعلى، ألا ما أجمل الرحلة! وما أعظم المرتحل!» إلى أن قال: «وما أراك إلا قد تهيأت لمعايشة ابن كثير ومرافقته في استعراض أحداث هذه الليلة المباركة، وتلك الرحلة الموفقة»(١).

وخرج المحقق الآيات، وعزا الأحاديث إلى كتب السنة، ووضع العناوين، وأضاف بعض الفوائد في الأخير من كتب أخرى، ثم وقف مع فضيلة الشيخ محمود شلتوت في الإسراء والمعراج من كتابه «توجيهات الإسلام».

علماً بأن ابن كثير رحمه الله تعالى تعرض لموضوع الإسراء برسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس في قسم السيرة في من كتابه «التاريخ»(٢).

٣ـ التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل:

ويعرف هذا الكتاب أيضاً بعنوان: «التكملة في أسماء الثقات

---

(١) الإسراء والمعراج ص ٤، ٦، ٧.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٠٨ـ١١٨، السيرة النبوية ٢/ ٩٣ـ١١٣.

والضعفاء» وذكره معظم المترجمين لابن كثير[1].

كما أن ابن كثير ذكر هذا الكتاب وبيّن أصله وأهميته، فقال عن الكتب المؤلفة في معرفة الثقات والضعفاء وغيرهم: «وتهذيب شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي، وميزان شيخنا الحافظ أبي عبد الله الذهبي، وقد جمعت بينهما، وزدت في تحرير الجرح والتعديل عليهما في كتاب، وسميته «التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل» وهو من أنفع شيء للفقيه البارع، وكذلك للمحدث»[2].

وأحال ابن كثير رحمه الله تعالى عدة مرات إلى هذا الكتاب[3]، وصرح بترتيبه على حروف المعجم في ترجمته لأبي هريرة في تاريخه[4].

وذكر الحسيني والشوكاني أن الكتاب في خمس مجلدات[5]، بينما

---

(١) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٧، طبقات المفسرين ١/ ١١١، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧، البدر الطالع ١/ ١٥٣، كشف الظنون ١/ ٣٢٢، الإعلان بالتوبيخ ص ٥٨٩، ٦٠٠.

(٢) الباعث الحثيث ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٣) الباعث الحثيث ص ٢٠٢، ٢٣١، وأشار إليه ابن كثير في تراجم الأعيان (البداية والنهاية ٩/ ٧٤، ١١٣، ١٤٠، ١٧٧، ٢١٤، ٢٢٠، ٢٥٩، ٢٦٧، ٢٧٦، ٣٣٩، ١٠/ ٢١، ٦١، ٧٣، ١٧٤، ١١/ ٣٧) واستخراج هذه الصفحات من عمل الدكتور الندوي (ابن كثير، حياته ص ١٢١-١٢٢).

(٤) البداية والنهاية ٨/ ١٠٨.

(٥) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٧، البدر الطالع ص ١٥٣.

رأى الشيخ محمد حمزة المجلد الأخير منه في إحدى مكتبات المدينة بخط قديم، منسوخ في حياة المؤلف من نسخته، وقال: «وهو تسع مجلدات»[1]، وقيل: «عشرات المجلدات»[2]، ويوجد نسخة خطية بدار الكتب المصرية في مجلدين، ورقمها ٢٤٢٢٧، كما ذكر محقق «تهذيب الكمال» في مقدمته[3].

ويظهر أن الكتاب اختصار لكتاب «تهذيب الكمال» لشيخه جمال الدين يوسف المزي (٦٥٤ـ٧٤٢ هـ)[4] وأضاف إليه ما تأخر من كتاب شيخه أبي عبد الله محمد الذهبي «ميزان الاعتدال في نقد أسماء الرجال»[5]، وأنه جمع بينهما مع زيادات مفيدة في الجرح والتعديل[6]، مما يدل على أهمية الكتاب، ونأمل من الله تعالى أن

---

(١) الباعث الحثيث ص ٢٠٢ هامش ٢.

(٢) ابن كثير، حياته ص ١٢٢ عن آداب اللغة العربية، جرجي زيدان ٣/ ٢٠٨.

(٣) تهذيب الكمال، للمزي، المقدمة ١/ ٦٤.

(٤) انظر أهمية هذا الكتاب في المقدمة الإضافية التي كتبها محققه الدكتور بشار عواد معروف، وبين عناية العلماء به استدراكاً واختصاراً (تهذيب الكمال ١/ ٥ وما بعدها، ٦٤)، وإن كتاب المزي هو تهذيب لكتاب «الكمال في أسماء رجال الحديث» لعبد الغني المقدسي (٥٤١ـ٦٠٠ هـ) ثم لخصه الذهبي في كتابه «تذهيب تهذيب الكمال» انظر ترجمة المزي والمقدسي والذهبي في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٢٦٥، ٢٧١، ٢٧٢).

(٥) انظر التعريف بهذا الكتاب في (مرجع العلوم الإسلامية ص ٣٠٧ وما بعدها).

(٦) ابن كثير، حياته ص ١٢١.

يكون قد حفظ هذا الكتاب كاملاً، وأن تتاح الظروف والهمم لإخراجه ونشره والاستفادة منه.

٤ـ الدلائل، معجزات النَّبي ﷺ:

وهو كتاب مستل من «البداية والنهاية» بدراسة وتحقيق محمد عبد العزيز الهلاّوي[١].

وفيه مقدمة (ص ٣) والتعريف بالمؤلف (ص ١٣) ثم انتقل المحقق إلى عرض دلائل النبوة، وقسمها إلى معنوية حسية (ص ١٧ وما بعدها) ومادية.

وصرح المحقق في المقدمة أنه «نقل دلائل النبوة لابن كثير من كتابه «البداية والنهاية»[٢] ووضع بعض الشروط لقبول الروايات لضمان سلامة المروي، وأنه التزم بها، وخرج الأحاديث، وضبط الألفاظ والآيات، وعزاها إلى السور، وترك نقل بعض الأحاديث شديدة الضعف والتي نبَّه عليها ابن كثير، وتجنب التكرار قدر الإمكان عندما يذكر المصنف الحديث من وجوه كثيرة، فاقتصر على أصحها، منعاً للإطالة»[٣].

---

(١) هذا الكتاب نشرته مكتبة القرآن ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٢ م، ويقع في ٢٨٨ صفحة من الحجم العادي.

(٢) البداية والنهاية ٦/ ٦٥ـ٣٠٠، مع التصرف والاختصار.

(٣) الدلائل، معجزات النَّبي ﷺ ص ٨، ٩.

٥ـ ذكر مولد رسول الله ﷺ ورضاعه:

حققه ياسين محمد السواس، ومحمود الرناؤوط[1]، والكتاب إعادة تحقيق للرسالة التي حققها ونشرها الدكتور صلاح الدين المنجد بعنوان «مولد رسول الله ﷺ».

وأضاف المحققان في العنوان «ذكر... ورضاعه» والكلمة الثانية موجودة في الرسالة السابقة لكن في الداخل، وليس على الغلاف.

وذكر المحققان الباعث على إعادة تحقيق هذه الرسالة لمراجعة النقول ومقابلتها، وتخريج النصوص الحديثية، وشرح الألفاظ الغريبة، وترجمة بعض المجاهيل من الأعلام، وعمل فهارس عامة.

وقام المحققان بهذه الأمور مع ضبط النصوص والأشعار بالشكل، فجاء العمل متقناً، فجزاهما الله خيراً.

وسوف نعود لبيان أهمية الكتاب ومضمونه في آخر هذه الكتب.

٦ـ سيرة أبي بكر رضي الله عنه:

صرح ابن كثير رحمه الله تعالى بهذا الكتاب، ولكن بعبارات مختلفة، فقال عنه: «سيرة أبي بكر»[2]، و «سيرة الصديق»[3]،

---

(١) نشر دار ابن كثير ـ دمشق ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م، ويقع في ٦٥ صفحة من الحجم العادي.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ٥.

(٣) البداية والنهاية ٣/ ١٨٠، ٥/ ٢٨٨، ٦/ ٣٠٢، ٧/ ١٨، ٣١.

و «أيام الصديق»[1]، و «ترجمة الصديق»[2].

وقال ابن كثير أيضاً: «وقد ذكر في كتابنا الذي أفردناه في سيرة أبي بكر، وأوردنا فضائله وشمائله»[3]، وقال أيضاً: «وقد ذكرت سيرته وفضائله ومسنده والفتاوى عنه في مجلد على حدة، ولله الحمد»[4]، وقال أيضاً: «سيرة الصديق في مجلد»[5].

فالكتاب أصلاً في سيرة الصديق رضي الله عنه، ثم ألحق به مروياته عن الرسول ﷺ وآراءه الاجتهادية في الفقه مرتباً على أبواب الفقه، فجمع بين «سيرة أبي بكر» و «مسند أبي بكر» في مجلد[6].

٧ـ سيرة عمر بن الخطاب:

صرح ابن كثير بهذا الكتاب باسم «سيرة الفاروق»[7]، و «السيرة

---

(١) البداية والنهاية ٦/ ٢٦٨.
(٢) البداية والنهاية ٧/ ١٨، ٣٥، واستخراج هذه الصفحات في الهوامش ٢ـ٤ من عمل الدكتور الندوي،(ابن كثير، حياته ص ١٢٧).
(٣) البداية والنهاية ٣/ ٢٧.
(٤) الباعث الحثيث ص ١٨٣.
(٥) البداية والنهاية ٧/ ١٨.
(٦) ابن كثير، حياته ص ١٢٧ـ١٢٩.
(٧) البداية والنهاية ٣/ ٢٧.

العمرية»[١]، و «سيرة عمر بن الخطاب»[٢]، و «ترجمة عمر بن الخطاب»[٣].

وذكره مع «سيرة الصديق» بقوله: «وقد استقصينا كيفية إسلام أبي بكر وعمر في سيرتهما على انفراد»[٤]، وذكر الكتابين معاً وما أضافه من الأحاديث والآثار والأحكام والفتاوى لهما «فبلغ ذلك ثلاث مجلدات، سيرة الصديق في مجلد، وسيرة الفاروق في مجلدين»[٥].

فمجموع هذه الكتب أربعة: ١ـ سيرة أبي بكر. ٢ـ مسند أبي بكر، وكلاهما في مجلد. ٣ـ سيرة الفاروق في مجلد. ٤ـ مسند عمر في مجلد[٦].

وسبقت الإشارة إلى مسند أبي بكر، ومسند عمر في الفصل السابق مع كتب الحديث، وأن مسند عمر تمَّ تحقيقه، وبقيت الكتب الثلاثة مخطوطة حتى الآن.

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٢٠٧.
(٢) البداية والنهاية ٦/ ٢٠١، ٧/ ٥٨، ٩٣، ٩/ ٢٠٧، الباعث الحثيث ص ٢٣٨.
(٣) البداية والنهاية ٥/ ٣٥٢، ٧/ ١٨.
(٤) البداية والنهاية ٣/ ٣١.
(٥) البداية والنهاية ٣/ ٢٧، الباعث الحثيث ص ١٨٣، واستقصاء الصفحات من عمل الدكتور الندوي حفظه الله.
(٦) ابن كثير، حياته ص ١٢٦ـ١٢٨.

٨ـ سيرة عمر بن عبد العزيز:

هذا الكتاب مطبوع بعنوان: «عمر بن عبد العزيز» تأليف الأستاذ الإمام ابن كثير القرشي، بتقديم وتعليق الشيخ أحمد الشرباصي، وتحت شعار «مذاهب وشخصيات»، وجاء في ٨٧ صفحة، تتضمن تقديماً (ص ٥ـ١٠) والتعريف بابن كثير (ص ١١ـ٢٥)، ثم ترجمة عمر بن عبد العزيز (ص ٢٩ـ٨٦)، ثم مصادر الترجمة، وبدون فهرس نهائياً[١].

والكتاب مستل من الكتاب الأصلي «البداية والنهاية» حرفياً[٢]، ويقول المحقق: «ومنذ سنوات نظرت في الترجمة المبسوطة التي وضعها الإمام الحافظ المفسر المؤرخ ابن كثير الدمشقي عن عمر بن عبد العزيز وجعلها باباً ملحوظاً من تاريخه الكبير «البداية والنهاية» ورأيت أن هذه الترجمة جديرة بالتعليق والنشر لتكون عاملاً من عوامل التذكر بشخصية المصلح الإسلامي عمر بن عبد العزيز»[٣] وكتب المحقق تعليقات مفيدة، ولكن جاءت الطباعة سيئة للغاية، لكثرة الأخطاء المطبعية، ونقص بعض الكلمات حتى في أبيات الشعر[٤].

---

(١) نشر الدار القومية، القاهرة، دون تاريخ.

(٢) البداية والنهاية ٩/١٩١ـ٢١٢، وترجمته من أطول التراجم في هذا الكتاب، وانظر: ابن كثير، حياته ص ١٠٩.

(٣) عمر بن عبد العزيز ص ٦.

(٤) عمر بن عبد العزيز ص ٨٤.

٩ـ سيد مَنْكَلي بغا الشمسي :

ذكر السخاوي هذا الكتاب لابن كثير، فقال: «وللعماد ابن كثير سيرة مَنْكَلي بغا»[(١)]، وبينّ الدكتور صلاح الدين المنجد اسمه الكامل بأنه: «ما يُنتقى ويُبتغى من سيرة منكلي بغا»[(٢)].

ومنكلي أحد مماليك الناصر حسن (٧٦٢ هـ) وكان من أتابكة دمشق، تولى نيابة حلب، ثم النيابة بدمشق، وبقي حتى توفي (٧٧٤ هـ) وكان مهاباً عارفاً يتكلم في عدة علوم[(٣)].

وكان منكلي يحترم ابن كثير، ويكرمه، ويقدر شخصيته، ويطلبه للمشورة، ولحضور مجالس التحقيق، وأنكر عليه ابن كثير مصادرة أموال النصارى بالشام لعمارة ما خربه الإفرنج بالإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ، كما سبق في «صفات ابن كثير»، ويبدو أن ابن كثير أحب شخصية النائب، لأنه كان محمود السيرة في حكمه بدمشق، وأثنى على أعماله في كتابه «البداية والنهاية»[(٤)]، وهذا التقدير والإعجاب دفعه لتأليف سيرته التي لا يعرف لها أثر[(٥)].

---

(١) الإعلان بالتوبيخ ص ٥٥٤، وضبط المحقق الاسم بكسر الميم والكاف.

(٢) معجم المؤرخين الدمشقيين ص ٢٠٤، وضبط الاسم بفتح الميم والكاف.

(٣) الدرر الكامنة ٥/ ١٣٧، وضبط المحقق الاسم بفتح الميم والكاف.

(٤) البداية والنهاية ١٤/ ٣٠٥، ٣٠٧، ٣١٤، ٣١٨، ٣٢١ـ٣٢٢ عن ابن كثير، حياته ص ١٤١.

(٥) ابن كثير، حياته ص ١٤١.

١٠ـ السيرة النبوية:

صرح ابن كثير رحمه الله تعالى مراراً بكتابه «السيرة النبوية» دون أن يفصل أنها مختصرة أم مطولة[١]، ثم قال في تفسير سورة الأحزاب، في قصة غزوة الخندق: «وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب «السيرة»، الذي أفردناه موجزاً، وبسيطاً، ولله الحمد والمنة»[٢].

وكتاب «السيرة» الموجز هو «الفصول في اختصار سيرة الرسول» وسوف نخصه بفقرة مستقلة.

أما كتابه المطول فلم يعثر عليه، ولعله ألفه قبل كتابه «التفسير» والغالب أن ابن كثير رحمه الله تعالى ضمه إلى كتابه «البداية والنهاية»، ثم فصله العلماء المعاصرون من جديد[٣].

وقام الدكتور مصطفى عبد الواحد بإفراد كتاب «السيرة النبوية» من كتاب «البداية والنهاية»[٤]، وطبعها في أربع مجلدات، معتمداً

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٩٤، مولد الرسول ص ١٤، فضائل القرآن ص ١٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٨، وانظر: الباعث الحثيث ص ١٧.

(٣) السيرة النبوية، مقدمة الدكتور مصطفى عبد الواحد ١/ ١٢.

(٤) تغطي «السيرة النبوية» المطبوعة من كتاب «البداية والنهاية» من الجزء ٢ ص ١٦٥ حتى الجزء السادس ص ٦٥، ثم تبدأ دلائل الشمائل.

على المطبوع من كتاب «البداية والنهاية»[1]، ثم قام الأستاذ أحمد عبد الشافي باستخراج «السيرة النبوية» من كتاب «البداية والنهاية» وحققها، وطبعها في مجلدين[2].

قال الأستاذ مصطفى عبد الواحد في مقدمته: «ويبدو أنه حين ألف كتابه الضخم «البداية والنهاية» قد أدمج تلك السيرة فيه، وأن شهرة ذلك الكتاب وانتشاره في الأنحاء قد جعل الناس يقرؤون تلك السيرة فيه، ولم يعد لها كيان مستقل ككتاب، وإذا كان ابن كثير قد ذكر أن له السيرة النبوية مبسوطة (أي مطولة)، فإنه لا يعقل أن يكتب فيها أكثر من ذلك القسم الموجود بكتابه «البداية والنهاية» ومن هنا فقد اتجهت إلى نشر «السيرة النبوية لابن كثير» وهي ذلك القسم الذي أفرده ابن كثير لأخبار العرب في الجاهلية وسيرة النَّبي صلوات الله وسلامه عليه وتاريخ دعوته، حتى وفاته، على اعتبار أن هذا القسم هو السيرة النبوية المطولة التي أشار إليها ابن كثير في تفسيره»[3].

وتبدأ «السيرة النبوية» المطبوعة من «ذكر أخبار العرب، وقصة سبأ...»[4] وتنتهي بعد «باب ما يذكر من آثار النَّبي ﷺ التي كان

(١) مطبوعة بمطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م.
(٢) مطبوعة بدار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٩٠ م.
(٣) السيرة النبوية، المقدمة ١/ ١٢ـ١٣.
(٤) السيرة النبوية ١/ ٢١.

يختص بها في حياته من ثياب وسلاح...» وآخرها «ذكر أفراسه ومراكبه»[1].

أما «السيرة النبوية» التي ضبطها وحققها الأستاذ أحمد عبد الشافي فتبدأ كالسابقة في «ذكر أخبار العرب» وبدون مقدمة، وطبعت بحرف صغير، فجاءت في مجلدين كبيرين، وزادت على السابقة بكتاب الشمائل[2].

وسوف نخصص دراسة وتقييماً لعمل ابن كثير في «السيرة» في نهاية هذا الفصل.

١١ـ شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه:

هذا الكتاب جزء من «البداية والنهاية» استله الدكتور مصطفى عبد الواحد، وحققه، وطبع عدة مرات[3]، ويقع في ٥٨٤ صفحة.

وقال المحقق في مقدمته: «فهذا كتاب شمائل الرسول، ودلائل نبوته، وخصائصه، وفضائله للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ، وقد رأيت الحاجة ماسة إلى تحقيقه ونشره، بعد أن خرجت له كتاب «السيرة» في أربعة أجزاء...،

---

(١) السيرة النبوية ٤/ ٧١٧.

(٢) السيرة النبوية، ضبط وتحقيق الشافي ٢/ ٥٨٢ـ٦٣٤ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

(٣) منها طبعة دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٦٧ م.

وكان موضوع «شمائل الرسول» تالياً لموضوع السيرة، ومن ملحقاته، ولكنه يستقل عنه في التصنيف»[(١)].

ثم قال المحقق: «وقد أدمج ابن كثير في هذا الكتاب ثلاثة أنواع، أفردها العلماء من قبل بالتأليف، وهي: ١ـ الشمائل. ٢ـ دلائل النبوة. ٣ـ الخصائص والفضائل»[(٢)].

ثم قال المحقق: «اعتمدت في تحقيق هذا الكتاب على نسخ «البداية والنهاية» التي اعتمدت عليها في تحقيق كتاب «السيرة» لابن كثير. . .، وقد سرت على النهج الذي سرته في كتاب «السيرة» من الاقتصار على التعليقات الضرورية»[(٣)].

وهذا الكتاب أشمل من كتاب «الدلائل: معجزات النَّبي ﷺ» السابق، فإنه ضم: الشمائل، والدلائل، والفضائل، والخصائص، أما الكتاب الأول «الدلائل: معجزات النَّبي ﷺ» الذي حققه الهلّاوي فاشتمل على الدلائل فقط، ولذلك جاء الكتاب الثاني ضعف صفحات الكتاب الأول[(٤)].

---

(١) السيرة النبوية المقدمة ١/أ.

(٢) المرجع السابق ١/أ، ب، جـ، د.

(٣) المرجع السابق ١/هـ، و.

(٤) يشتمل كتاب «دلائل النبوة» من البداية والنهاية الجزء السادس صفحة ٦٠ حتى صفحة ٣٠٠ مع التصرف والاختصار، بينما يغطي كتاب الشمائل من البداية والنهاية الجزء السادس صفحة ١١ حتى صفحة ٣٠٠ بدون اختصار، وانظر: ابن كثير، حياته ص ١٠٨.

١٢ـ طبقات الشافعية:

ذكر ابن العماد وغيره اسم هذا الكتاب بعنوان «طبقات الشافعية»[١]، وذكره ابن تغري بردى بعنوان «طبقات الفقهاء»[٢].

والظاهر أنه يجمع الأمرين، فهو «طبقات فقهاء الشافعية»، لأنه ظهر في القرن الثامن الهجري عدد من كتب طبقات الفقهاء الشافعية، أشهرها كتاب ابن السبكي (٧٧١ هـ) المطبوع في عشر مجلدات محققة بعنوان «طبقات الشافعية الكبرى» وكتاب الإسنوي (٧٧٢ هـ) المطبوع في مجلدين بعنوان «طبقات الشافعية»، ثم كتاب ابن كثير رحمه الله تعالى[٣].

وصرح ابن كثير رحمه الله تعالى هذا الكتاب في تاريخه عدة مرات[٤].

---

(١) شذرات الذهب ١/ ٢٣١، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧، طبقات المفسرين ١/ ١١١.

(٢) النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣، المنهل الصافي ٢/ ٤١٥، وسماه البغدادي «طبقات الفقهاء» (هدية العارفين ٥/ ٢١٥).

(٣) انظر كتب طبقات الشافعية في (كشف الظنون ٢/ ٩١ وما بعدها) وذكر ابن كثير بينهم (٢/ ٩٣).

(٤) البداية والنهاية ١١/ ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٦٩، ٨٥، ١١٣، ١٢٩، ١٤٩، ١٦٧، ١٧١، ١٨٧، ١٩٣، ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٥٩، ٢٩٩، ٣٤١، ١٢/ ٥٥، ٧٩، ٨٠، ١٧٤، ٢٣٥، ٢٧٦، ٣٣٤، ٣٤٧، ١٣/ ٥٥، =

ويوجد من هذا الكتاب نسخة خطية بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، كما يوجد منه ١١١ ورقة في الجامعة الإسلامية، مصورة من مكتبة الكتاني بالرباط، ونسخة مخطوطة في دبلن وهي ١٢١، ١٢٤ ورقة برقم ٣٣٩٠ (١، ٢) ومؤرخة جمادى الثانية سنة ٧٤٩ هـ مكة المكرمة، ويوجد نسخة عتيقة عند أحد أفاضل مكة، ومخطوطة بمكتبة الكتاني بفاس (المغرب) مؤرخة سنة ٧٤٦ هـ، ومخطوطة أخرى بمكتبة الكتاني بخط مشرقي[١].

قال ابن قاضي شهبة: «وطبقات الشافعية، ورتبه على الطبقات، لكنه ذكر فيه خلائق ممن لا حاجة لطلبة العلم إلى معرفة أحوالهم، فلذلك جمعنا هذا الكتاب»[٢].

وذيل على طبقات ابن كثير عفيف الدين عبد الله بن محمد بن أحمد بن خلف المطري (المتوفى سنة ٧٦٥ هـ) واستفاد السخاوي من هذا الذيل في كتابه في التراجم على حروف المعجم[٣].

والآن طبع كتاب «طبقات الشافعية» بمصر بتحقيق محمد علي زينهم، والدكتور أحمد عمر هاشم، ولكني لم أطلع عليه[٤].

= ١٣١ عن الدكتور الندوي، ابن كثير، حياته ص ١٢٤ هـ ١.

(١) الفصول ص ١٢٤، ابن كثير، حياته ص ١٢٤ وما بعدها.

(٢) طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧.

(٣) ابن كثير، حياته ص ١٢٥، الإعلان بالتوبيخ ص ٥٥٦.

(٤) ابن كثير، حياته ص ١٢٣، إضافة من المصحح السيد مجْد مكي.

١٣ـ الفصول في سيرة الرسول ﷺ:

وهي «السيرة المختصرة» لابن كثير، ونشرتها أحد المطابع بمصر قديماً سنة ١٣٥٨ هـ باسم «الفصول في اختصار سيرة الرسول»، ثم حققها الأستاذان محيي الدين مستو ومحمد العيد الخطراوي، وطبعت سنة ١٤٠٠ هـ بدار القلم بدمشق ومؤسسة علوم القرآن بعنوان «الفصول في اختصار سيرة الرسول»، ثم وجد المحققان نسختين خطيتين، وأعادا التحقيق، وطبع الكتاب في الطبعة الثانية بعنوان «الفصول في سيرة الرسول»، وأعيد طبعها، حتى وصلت إلى الطبعة السادسة التي بين أيدينا بنشر دار التراث بالمدينة المنورة، ودار ابن كثير بدمشق، سنة ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م، وتقع في ٤١٢ صفحة من الحجم العادي، مع المقدمة المطولة (٥ـ٧٦) والفهارس المتنوعة (٣٤٥ـ٤١٢).

وكان ابن كثير رحمه الله تعالى قد أشار إلى هذه السيرة المختصرة، كما مر في «السيرة المطولة»[١]، وقال ابن العماد وغيره: «وله سيرة صغيرة»[٢]، وذكرها آخرون باسم «الفصول في سيرة الرسول»[٣].

وقال ابن كثير في مقدمته لهذا الكتاب: «فإنه لا يجمل بأولي العلم

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٨، الفصول ص ١٥، ابن كثير، حياته ص ١٠٦.
(٢) شذرات الذهب ٦/ ٢٣١، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧.
(٣) هدية العارفين ٥/ ٢١٥.

إهمال معرفة الأيام النبوية، والتواريخ الإسلامية، وهي مشتملة على علوم جَمّة، وفوائد مهمة، لا يستغني عالم عنها، ولا يعذر في العروِّ منها، وقد أحببت أن أعلق تذكرة في ذلك لتكون مدخلاً إليه، وأنموذجاً وعوناً له وعليه اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي، وهي مشتملة على ذكر نسب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وسيرته، وأعلامه (أعلام النبوة) وذكر أيام الإسلام بعده إلى يومنا هذا، مما يمس حاجة ذوي الأرب إليه على سبيل الاختصار إن شاء الله تعالى»[1].

ويرى محققا الكتاب أن ابن كثير توقف في تأليف هذا الكتاب عند نهاية السيرة النبوية، وما يتبعها من الدلائل والشمائل والخصائص[2].

ولكن الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر استشكل ذلك، وقال: «إن المطبوع غير كامل يقيناً، فلا أدري أقتصر المؤلف على هذا القدر، أم فُقِد باقي الكتاب»[3].

أما الدكتور الندوي فينقل عبارات الشوكاني في كتب ابن كثير، ويستنبط وجود كتابين لابن كثير، ويؤيد كلامه بما ذكره حاجي خليفة والبغدادي من الإشارة إلى كتاب «الكواكب الدراري» الذي

---

(١) الفصول ص ٧٩ـ٨٠.
(٢) الفصول ص ٨٠ هامش.
(٣) عمدة التفسير ١/ ٣٥.

انتخبه ابن كثير من «البداية والنهاية»[1].

وإنني أرجح الكلام الأخير، وأن ابن كثير صنف كتابين في السيرة، مطولة ومختصرة، وكتابين في التاريخ، مطول ومختصر، وهما «البداية والنهاية» و «الكواكب الدراري»، وضم كتاب «السيرة» المطول إلى «البداية والنهاية» وضم الكتاب المختصر «الكواكب الدراري» إلى «السيرة المختصرة= الفصول» فصارت الكتب أربعة.

وهذا يتفق مع منهج ابن كثير رحمه الله تعالى في اختصار كتب غيره، ومنهجه في تصنيف كتب مطولة، ثم العمل على اختصارها، ليراعي مستوى الطلاب والعلماء في ذلك، وكلام ابن كثير في مقدمة «الفصول» تؤكد ذلك، وهذا أمر حسن، فالإنسان لا يستوعب قراءة السيرة في أربع مجلدات، فاختصرها في مجلد وسط، ولا يمكنه استيعاب «البداية والنهاية» في أربعة عشر مجلداً، فاختصرها في ثلاثة مجلدات لمعرفة «التواريخ الإسلامية. . . وذكر أيام الإسلام بعده إلى يومنا هذا، مما يمسُّ حاجة ذوي الأرب إليه» فجزاه الله خير الجزاء، ورحمه الله رحمة واسعة، وأجزل مثوبته.

ولا شك أن كتبه الثلاثة «السيرة النبوية» و «الفصول في سيرة الرسول» و «شمائل الرسول، ودلائل نبوته، وفضائله، وخصائصه» هي من أهم ما كتب في السيرة النبوية العطرة، وأشملها، وأدقها،

---

(١) كشف الظنون ٢/٣٣٧، هدية العارفين ٥/٢١٥، ابن كثير، حياته ص ١٠٦ـ١٠٧.

ولذلك سنفرد لها دراسة مستقلة في هذا الفصل لبيان ميزاتها، ومنهجها.

١٤ـ مختصر سيرة ابن كثير:

وهذا الكتاب ليس من تأليف ابن كثير، وإنما هو اختصار وشرح لكتاب «السيرة النبوية» الواردة في «البداية والنهاية» مع شرح لبعض الأمور.

وهو اختصار وشرح محمد علي قطب، الذي صرح في مقدمته أنه «اختصر السيرة النبوية الواردة في كتاب البداية والنهاية»، وجاء المختصر في مجلد واحد[١]، وقال في مقدمته: «فعوّلت مستعيناً بالله على اختصارها اختصاراً لا يخل بقيمتها العلمية التاريخية، ودون الإخلال بوحدتها وتكاملها وتحيزها، مكتفياً برواية واحدة للحديث أو الواقعة، وهي الراجحة الموثوقة»[٢].

١٥ـ مناقب الإمام الشافعي:

إن من يصنف في «طبقات الشافعية» يبدأ عادة بترجمة مطولة للإمام الشافعي (٢٠٤ هـ) رحمه الله تعالى، ولذلك ذكر كثير من المصنفين كتاب «طبقات الشافعية» لابن كثير وقالوا: «ومعها مناقب الشافعي».

---

(١) نشرته دار المسيرة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.

(٢) مختصر السيرة النبوية، المقدمة ص ٥ـ٦.

وصرح ابن كثير رحمه الله تعالى بأنه أفرد للإمام الشافعي ترجمة مطولة في أول كتابه «طبقات الشافعية»، فقال: «أفردنا له ترجمة مطولة في أول كتابنا «طبقات الشافعيين» ولنذكر هنا ملخصاً من ذلك...» ثم قال: «وقد ذكرنا شعره في السنة، وكلامه فيها، وفيما قاله من الحكم، والمواعظ، طرفاً صالحاً في الذي كتبناه في أول طبقات الشافعية»[1]، وقال ايضاً: «وقد أفردنا ترجمته في مجلد، وذكرنا معه تراجم أصحابه من بعده»[2].

وهذا يدل على أن «المناقب» جزء من كتاب «طبقات الشافعية» لا أنه كتاب مستقل.

ولكن الداودي وابن تغري بردى ذكرا كل كتاب مستقلاً عن الآخر، فقالا عند تعداد كتب ابن كثير: «وطبقات الشافعية» و «مناقب الإمام الشافعي»[3]، وفعل مثله السخاوي[4].

ثم جاء حاجي خليفة فذكر الكتاب بعنوان مستقل جديد «الواضح النفيس في مناقب الإمام محمد بن إدريس»[5]، ولم يصرح

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢١٥، ٢٥٤.

(٢) البداية والنهاية ٦/ ٢٥١.

(٣) طبقات المفسرين ١/ ١١١، النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣، المنهل الصافي ٢/ ٤١٥.

(٤) الإعلان بالتوبيخ ص ٥٥٦، ابن كثير، حياته ص ١٢٣ عن الجواهر والدرر للسخاوي ص ٣٦٥.

(٥) كشف الظنون ٢/ ٦٢٥.

باسم المؤلف، فجاء البغدادي ونسبه لابن كثير[1]، ثم تبعه محققا «الفصول» في مقدمتهما[2].

وأرجح أن يكون كتاب «مناقب الإمام الشافعي» جزءاً ومقدمة لكتاب «طبقات الشافعية» ولكن له كيان ذاتي، مما دفع بعض العلماء إلى اعتباره كتاباً مستقلاً، ثم حمل المعاصرين إلى استخراجه وطبعه بشكل مستقل أيضاً، أو تجزئته إلى كتابين أيضاً، فقد قام الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر بطبع «مناقب الإمام الشافعي» في مكتبة الإمام الشافعي، سنة ١٤١٢ هـ، وقام الدكتور إبراهيم صندقجي بطبع قسم منه، وهو «المسائل الفقهية التي انفرد بها الإمام الشافعي دون إخوانه الأئمة» في مكتبة دار العلوم والحكم، سنة ١٤٠٦ هـ[3].

١٦ـ مولد رسول الله :

لم ترد هذه الرسالة في قائمة كتب ابن كثير عند المؤرخين، لأنهم اقتصروا ـ غالباً ـ على الكتب الكبيرة والمهمة، ولكن الدكتور صلاح الدين المنجد عثر على مخطوطتها في مكتبة جامعة برنستون بأمريكا،

---

(١) هدية العارفين ٢/ ٢١٥، بينما ذكر البغدادي في كتاب آخر هذا العنوان لأبي علي الحسن بن الحسين بن حمكان الهمداني، البغدادي، الشافعي، المتوفى سنة ٤٠٥ هـ (إيضاح المكنون ٤/ ٧٠٠).

(٢) الفصول، المقدمة ص ٥٦.

(٣) لم أطلع على هذين الكتابين، ولكن أفادني بذلك السيد مَجْد مكي، مصحح كتاب (ابن كثير، حياته ص ١٢٣ هامش ١).

وتاريخ المخطوطة ٧٨٦ هـ، فحققها ونشرها في الطبعة الأولى سنة ١٩٦١ م، بدار الكتاب الجديد ـ بيروت ـ ثم أعيد تصويرها عدة مرات، وبين يدي الطبعة الثالثة ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت، سنة ١٩٧٧ م، وتقع في ٤٤ صفحة من الحجم الصغير.

وبين المحقق أن ابن كثير ألف هذا المولد تلبية لطلب الشيخ عماد الدين أبي بكر بن حسن، المؤذن بالجامع المظفري بدمشق (وهو جامع الحنابلة بالصالحية اليوم) وذكر ابن كثير نسب رسول الله ﷺ، وأخبار جده وأبيه وأمه، وصفة مولده، وأخبار رضاعه، وصفاته، وشمائله، وأخلاقه، ثم ختمه ببعض الأبيات المنسوبة إلى عمي الرسول ﷺ: أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب.

وكان منهج ابن كثير رحمه الله تعالى في جمع الموضوعات السابقة من الأحاديث والآثار المنقولة المقبولة عند الحفاظ المتقنين، والأئمة الناقدين، مثل: مسند الإمام أحمد، وصحيحي البخاري ومسلم، وسنن الترمذي، ودلائل النبوة للبيهقي، والمستدرك للحاكم، وسيرة ابن إسحاق، والروض الأنف للسهيلي[1].

ولذلك يقول الدكتور المنجد: «وهذا الموضوع من أجل الموضوعات، ولقد ألف فيه المتأخرون، فجعلوا في المولد الشريف أساطير، وجعلوا فيه لوناً من العبادة. . .» ثم اقترح الدكتور المنجد،

---

(١) مولد رسول الله ﷺ، تقديم المنجد ص ١٣، وانظر: ابن كثير، حياته ص ١١٥.

فقال: «وهذا المولد الشريف جدير بأن يكون، لصحته وثقة مؤلفه، في كل بيت، وأن يقرأه الصغار والكبار، وأن يحفظوه، ليذكرهم بأعظم رجل عرفه العرب، فكان هدى ورحمة لهم وللعالمين»[1].

ثم قال الدكتور المنجد: «وتأليف ابن كثير هذا يدلنا على أنه كان يجيز قراءة المولد الشريف، ولا يرى حرجاً فيه، لذلك كتب هذا المولد سهلاً، موجزاً، فيه المفيد»[2]

وجاء عنوان الرسالة في الداخل بحسب المخطوطة: «مولد رسول الله ﷺ ورضاعه»[3].

وذكرنا قبل قليل أن الأستاذ ياسين محمد السواس ومحمود الأرناؤوط أعادا تحقيق هذه الرسالة القيمة، ووثقا النصوص، وضبطا الكلمات، ونشراها بعنوان: «ذكر مولد رسول الله ﷺ ورضاعه».

تقييم كتب ابن كثير في السيرة:

بعد أن عرضنا كتب ابن كثير رحمه الله تعالى في السيرة والتراجم والرجال، نرى أن بعض هذه الكتب مأخوذ من «تفسيره» وينطبق عليه ما قلناه سابقاً في الفصل الأول، وبعض هذه الكتب مأخوذ من

---

(١) مولد رسول الله ﷺ ص ٩، ١١، ١٣.

(٢) المرجع السابق ص ١٢.

(٣) المرجع السابق ص ١١.

كتاب «البداية والنهاية»، وينطبق عليه ما سبق قوله في الفصل الثاني.

وأن كتابه «التكميل» يتعلق برجال الحديث، وما قيل فيهم من الجرح والتعديل لقبول الحديث أو ردِّه، وهو اختصار وجمع لكتاب شيخه المزي (٧٤٢ هـ) «تهذيب الكمال»[١]، وكتاب شيخه الذهبي (٧٤٨ هـ) «ميزان الاعتدال»[٢] مع الإضافات والفوائد، وتكمن أهمية كتاب «التكميل» من الأهمية العظيمة للكتابين السابقين، وهما من أهم كتب علم رجال الحديث، وقد أثنى العلماء على كتاب ابن كثير ثناء عطراً، وصرح ابن كثير رحمه الله تعالى بأهميته «وهو أنفع شيء للفقيه البارع، وكذلك للمحدث»[٣].

وبما أن هذا الكتاب القيم لا يزال مخطوطاً فنكتفي بهذه الإشارة، ونسأل الله تعالى أن يرزقه اليد الحانية لإخراجه وتحقيقه، حتى يرَ النور، ويتم النفع به.

---

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للحافظ المزي، حققه الدكتور بشار عواد معروف، ونشرته مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، في خمسة وثلاثين مجلداً، الأول طبع سنة ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م، والمجلد الأخير سنة ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م، ويتضمن ٨٠٤٥ ترجمة.

(٢) ميزان الاعتدال، أربع مجلدات كبيرة، حققه علي محمد البجاوي، ونشره عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى، ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٣ م، وبلغت تراجمه ١١٠٣٧ ترجمة، ثم طبع ذيل ميزان الاعتدال للحافظ العراقي (٨٠٦ هـ) بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٦ هـ.

(٣) الباعث الحثيث ص ٢٤٣.

أما بقية كتب ابن كثير في السيرة والتراجم فقد طبع أكثرها، وتتعلق بالسيرة النبوية، وتراجم ثلاثة خلفاء (أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز) وسيرة الأمير منكلي التي لم تطبع بعد.

وتظهر السمات المتشابهة في كتب السيرة والتراجم، وتنبع من العلوم التي تخصص بها ابن كثير، وتعمق في دراستها والتصنيف فيها، وهي التاريخ والفقه والحديث.

منهج ابن كثير في السيرة:

يظهر منهج ابن كثير في كتبه بالسيرة النبوية في الأمور التالية[1]:

١ـ **الأسلوب**: كان أسلوب ابن كثير واضحاً، سهلاً، وعبارته قصيرة، وقد يلجأ إلى السجع متأثراً بأسلوب عصره، وكان أحياناً يطيل العبارة والجمل، ولم يهتم كثيراً باختيار الكلمات، والتجمل في الأسلوب، والمحسنات البديعية، فهو فقيه، مؤرخ، محدث، وليس أديباً متفنناً في نواحي الأدب، فلا يحرص على جمال العبارة، وتناسق الألفاظ.

واتبع ابن كثير الأسلوب العلمي دون الاحتفال بأناقة التعبير حتى لا تضيع الحقيقة العلمية في ثنايا الأسلوب الأدبي، وكثيراً ما يبسط

---

(١) انظر: السيرة النبوية، المقدمة ١/٩، ١٤ وما بعدها، الفصول، المقدمة ص ٢١ وما بعدها.

العبارة لتأمين وصولها لجميع الناس، مع التسلسل المنطقي، والتناسق في عرض الحوادث والأفكار لجذب القارىء، مع غزارة العلم.

وكأن أسلوبه يختلف في «الفصول» عن «السيرة النبوية» فالأول مختصر وموجز، والثاني مسهب.

٢ـ اهتم ابن كثير رحمه الله تعالى بالرواية بالأسانيد، متأثراً بعلم الحديث، وتمشياً مع تخصصه الدقيق كحافظ ومحدث، وهذه سمة المؤرخين إذا كانوا محدثين كالطبري وغيره.

وكان ابن كثير ينقد بعض الأسانيد إذا كان المتن غريباً، كما يبين درجة الحديث دون أن ينقد السند، وهذا يقودنا للميزة التالية.

٣ـ جمع ابن كثير بين أخبار السيرة التي رواها أهل السير كابن إسحاق (١٥٠ هـ) وابن هشام (٢١٨ هـ) والسهيلي (٥٨١ هـ) وأضاف إليها ما رواه أصحاب الحديث في الشمائل ودلائل النبوة، مثل دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨ هـ) وبقية كتبه، ودلائل النبوة، ومعرفة الصحابة لأبي نُعيم الأصبهاني (٤٣٠ هـ)، ثم أضاف قبل ذلك ما ثبت في كتب الحديث والسنة كمسند الإمام أحمد (٢٤١ هـ) وصحيح البخاري (٢٥٦ هـ) وصحيح مسلم (٢٦١ هـ) وغيرهم.

وهكذا اكتسبت كتب ابن كثير في السيرة ميزة فريدة بين كتب السيرة الأخرى، وسنَّ منهجاً جديداً في مزج أخبار السيرة بروايات الحديث مما لم يعهد قبله في كتب السيرة.

ولم يقف ابن كثير عند هذا الحد، بل اعتمد ـ وهو الحافظ المحدث المؤرخ ـ على كتب الحديث، ورجح ما ورد فيها صحيحاً على أخبار المغازي والسير، ويقدم رواية البخاري ومسلم أو ما تفرد به أحدهما، أو ما صح في كتب المسانيد والسنن على رواية ابن إسحاق في السيرة.

ومع ذلك فكان ابن كثير لا يدمج الأحاديث والأخبار بعضها في بعض، ليبقى لكل قسم طابعه، ولا يحرص على تنسيق الأخبار التي ينقلها، فقد يبدأ بالخبر المطوَّل، ثم يذكر بعده أخباراً تتضمن جانباً من ذلك الخبر، أو تكرر جانباً منه، وهذا خاصة في «السيرة النبوية» المطولة.

أما في «السيرة المختصرة= الفصول» فاقتصر على ذكر الخبر، وتأييده بما صح من الأحاديث والآثار، ومناقشة الآراء والتعقيب عليها بالقول القاطع الجازم، دون حشد الروايات، وإيراد الأخبار المتباينة، وهذه ميزة لكتاب «الفصول» باعتباره «خلاصة كتب، وعصارة أفكار عالم ومحدث، ومؤرخ، وفقيه، ومفسر، ولذا جاءت صحيحة ومقبولة بما فيها من علم موثق، وكافية شافية، لا تفتقر في فهمها إلى غيرها، ويستغنى بها عن كثير من المطولات»[١].

٤ـ كان ابن كثير لا يلتزم نقل النصوص الحرفية، حتى في الحديث النبوي، فينقل عن ابن إسحاق بالمعنى، ويقدم ويؤخر، ويزيد

---

(١) الفصول ص ٢٤.

وينقص، ويغير ويبدل، وحتى في روايات الأحاديث التي ينقلها عن البخاري ومسلم وأحمد والبيهقي، فيعرضها مع تغيير أو نقص أو اختصار، والغالب في سبب ذلك أن ابن كثير الحافظ المتقن كان يعتمد على حفظه وروايته، ولا ينقل مباشرة عن النسخ المتوفرة في زمنه[1].

٥ـ كان ابن كثير يستشهد بالشعر في «السيرة النبوية» المطولة، لكنه لا يتابع ابن هشام في ذكر القصائد الطويلة، فيختصر بعضها، ويهمل بعضها الآخر، أما في «السيرة المختصرة= الفصول» فلم يذكر شيئاً من الشعر.

٦ـ وردت في السيرة النبوية بعض الأخبار الواهية، وخاصة ما يتعلق بأخبار الجاهلية، والجان، والقصص، لكن ابن كثير كان أحياناً يذكر السند ليلقي التبعة على غيره، وأحياناً يعلق عليها بأنها «غريبة جداً» أو «لم يخرجوها» لبيان ضعفها، ولو حذفها أصلاً لكان أولى حتى لا تشوش الأذهان[2].

٧ـ تظهر في السيرة النبوية عاطفة ابن كثير الصادقة في حبِّ رسول الله ﷺ وآله وأصحابه، وكراهته الشديدة لأعداء الله وأعداء رسول الله، وللمخالفين لأهل السنة والجماعة، ولكن هذه العاطفة الجياشة لم تبعده عن موضوعية الباحث، ودقة العالم.

---

(١) السيرة النبوية، المقدمة ١/ ١٥، الفصول، المقدمة ص ٢٥.

(٢) السيرة النبوية، المقدمة ١/ ١٦.

٨ـ اعتمد ابن كثير على الجهود العلمية التي سبقته في تدوين السيرة وكتب الحديث، مثل كتاب المغازي والسير لابن إسحاق، وموسى بن عقبة، وابن هشام، والسهيلي في «الروض الأنف» وابن عبد البر في «الدرر في اختصار المغازي والسير» وابن حزم في «جوامع السيرة» وغيرهم، والبخاري في صحيحه، ومسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، والبيهقي في الدلائل، والسنن الكبرى والأسماء والصفات، وأبي نعيم في الدلائل ومعرفة الصحابة، وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في السنن، والإمام مالك في الموطأ، والحاكم في المستدرك، والمقدسي في الأحاديث المختارة.

كما اعتمد في السيرة على كتب الفقه في المواضيع الفقهية[١]، وعلى كتب التفسير كتفسير الطبري وغيره[٢].

٩ـ اشتملت السيرة النبوية المختصرة «الفصول» على فصل الخصائص النبوية، ولكنها لم تدرج في «السيرة المطولة» التي حققها الدكتور مصطفى عبد الواحد، ولكنها وردت مفصلة في «البداية والنهاية» (جـ ٦ ص ٦٥) عقب السيرة، ولذلك سعى الدكتور مصطفى إلى طبعها مستقلة مع الخصائص والفضائل والشمائل في مجلد

---

(١) انظر المسائل الفقهية المطروحة في «البداية والنهاية» في (ابن كثير كمؤرخ ص ٤٥).

(٢) انظر مصادر ابن كثير في السيرة بإسهاب وتفصيل في (ابن كثير كمؤرخ ص ٤٦، ٦٧، الفصول ص ٢٥، ٢٧ـ٢٨).

مستقل كما سبق، كملحق للسيرة النبوية، أما الأستاذ الشافي فقد طبع «السيرة النبوية» المطولة، وضم معها فصل الشمائل كما سبق بيانه.

وهنا نذكِّر أن منهج ابن كثير في «الشمائل» لا يختلف عن منهجه في «السيرة النبوية» عامة.

الفَصل الخامِس

ابن كثير وعلم الفقه

تمهيد عن علم الفقه:

الفقه أحد العلوم الشرعية الأساسية، وهو أكثر العلوم شهرة واتساعاً، وصلة بجميع الناس، وتطبيقاً عملياً في الحياة، لذلك يتجه إليه طلاب العلم، ويقصدونه من الطفولة، ويستمرون معه إلى آخر الحياة، ويأتي تحصيله في المرتبة الثانية بعد قراءة القرآن الكريم وتلاوته وحفظه.

والفقه يمثل شريعة السماء للأرض والإنسان، وهو المنهج الإلهي في سير الحياة، وهو الأحكام العملية التي تغطي تصرفات الإنسان، لذلك اتسعت دائرته، وأصبح أوسع تراث حضاري وتشريعي في العالم أجمع.

والفقه قسمان، الأول ثابت بالنصوص الشرعية في القرآن والسنة، وهذا ثابت لا يتغير ولا يتبدل، وقد تتعدد فيه الآراء رحمة بالناس وتوسعة عليهم، والقسم الثاني: اجتهادي في ضوء النصوص ومقاصد الشريعة، وتحقيق مصالح الناس بما يحقق النفع والخير لهم،

ويدفع عنهم السوء والشر، وهذا القسم يتغير ويتبدل حسب المصالح والأزمان والأماكن، ويكثر فيه الاختلاف ووجهات النظر.

لذلك عرف الشافعي الفقه بقوله: «هو العلم بالأحكام الشرعية العملية، المكتسب من أدلتها التفصيلية» أي هو معرفة وإدراك الأحكام التي تتوقف على مصدر شرعي بالاستنباط والنظر والاجتهاد والبحث في نصوص القرآن والسنة وبقية المصادر الشرعية.

ويكون الفقيه ـ في الأصل ـ مجتهداً، ثم أصبح يطلق على من يعرف أحكام الحوادث نصاً واستنباطاً، أو دراسة وحفظاً من مذهب ما، فالفقيه في العصور الأخيرة هو الذي يعرف الأحكام الشرعية ويحفظها من مذهب معين ليعلمها للناس، ويفتي بها، ويصنف فيها.

والفقه الإسلامي يشمل جميع متطلبات الحياة، ويبين الحكم لكل ما يحتاجه الفرد والمجتمع والدولة داخلياً وخارجياً، ويغطي أحكام العبادات، والمعاملات المالية، والأحوال الشخصية، والأحكام الجنائية، والقضائية، والدستورية، والدولية، والموارد المالية والاقتصادية والسياسة الشرعية.

والفقيه يبين للناس جميع هذه الأحكام، نصاً واستنباطاً ونقلاً، تدريساً وفتوى وتصنيفاً، وخاصة في حاجاتهم الدائمة والوقائع النازلة.

إسهام ابن كثير في علم الفقه:

نشأ ابن كثير رحمه الله تعالى على دراسة الفقه على المذهب الشافعي، وحفظ «التنبيه» كما سبق، وصار من فقهاء الشافعية في عصره.

ولكن ابن كثير لم يتفرغ لعلم الفقه كبقية العلوم السابقة، ولم يكن متعصباً لأحكام الفقه الشافعي، بل كان فقيهاً محدثاً، ويلتزم توجيه الإمام الشافعي السديد: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»، فكان يعتمد الأحكام الفقهية المؤيدة بالأحاديث النبوية، وغلب على تصانيفه هذه الصفة، وأفتى برأي شيخه ابن تيمية في مسألة الطلاق الثلاث لصحة الحديث عندهما، ولذلك عرفه علماء التراجم بالفقيه الشافعي[١]، وعرَّفه شيخه مؤرخ الإسلام الذهبي بأنه: «الفقيه المفتي»[٢].

وتظهر إسهامات ابن كثير في علم الفقه بالأمور التالية:

١ـ تدريس الفقه للطلاب في المدارس والمساجد، وعرضه لكتاب «التنبيه».

٢ـ ممارسة الفتوى طوال حياته، سواء كانت للأفراد والأشخاص في أحوالهم وشؤونهم، أم الفتوى العامة في أمور الدولة والحكام، وكانت تعرض عليه الأمور الجسام، والنوازل الخطيرة، والقضايا

---

(١) مفتاح السعادة ١/ ٢٥١، إنباه الغمر ١/ ٣٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١.
(٢) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٥٠٨.

الاجتماعية، ومساءلة القضاة والمسؤولين، ويبين حكم الشرع في ذلك، وتؤخذ فتاويه، ويعمل بها.

٣ـ تناول الأحكام الفقهية عند التعرض لها في مختلف كتبه.

ففي التفسير يبين أحكام الشرع وآراء الفقهاء عند تفسير آيات الأحكام، وهي كثيرة.

وفي علم الحديث خصص قسطاً كبيراً لأحاديث الأحكام، ورتب بعض كتبه على أبواب الفقه كما سبق، وعرض الأحكام المستنبطة من الأحاديث، والآداب التي ترشد إليها الأحاديث.

وفي كتب التراجم تعرض للأحكام الفقهية، فذكر الأحكام والآثار التي قالها أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما في سيرتهما، وفي مناقب الإمام الشافعي ذكر المسائل التي انفرد بها الإمام الشافعي دون إخوانه من الأئمة[1].

وتعرض في كتاب «البداية والنهاية» وقسم السيرة النبوية إلى بيان الأحكام الفقهية في مسائل كثيرة، وعلى سبيل المثال حكم اللائط عند الأئمة (١/ ١٨٢) نسخ تأخير الصلاة في الجهاد بصلاة الخوف (٢/ ٢٥، ٤/ ٨٢، ١١٠) إبراد صلاة الظهر (٣/ ٦٠) العتق (٣/ ٢٩٦) حق رجوع الزوج إلى امرأته بدون نكاح جديد إذا أسلم بعدها (٣/ ٣٣٣)

---

(١) جمع هذه المسائل وطبعها مستقلة الدكتور إبراهيم صندقجي، مكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٦ هـ، (ابن كثير، حياته ص ١٢٣ من زيادات المصحح).

ولاية الابن لأمه (٤/ ٩١) علامة البلوغ (٤/ ١٢٥) وجوب الحج على المستطيع (٤/ ١٨٠) مسائل الحج (٥/ ١١٠، ١٤٢، ١٥٨، ١٦٤ـ١٦٦) نكاح المتعة (٤/ ١٩٣ـ١٩٤، ٣١٨) نسخ الاقتداء بالإمام في صلاته جالساً (٥/ ٢٦٣) العمل بقول القافة في اختلاط الأنساب (٥/ ٣١٢) مسح الخف (٦/ ٢٤) وغير ذلك كثير[١].

٤ـ كتابة عدد من الرسائل إما بشكل مستقل، وإما ضمن كتبه، وهي بعض المؤلفات المجهولة التي عددناها في إنتاجه، منها «زواج أم سلمة من رسول الله ﷺ، وولاية الابن لأمه في عقد النكاح» «بطلان وضع الجزية عن يهود خيبر» «بيع أمهات الأولاد» «الصلاة على النَّبي ﷺ في التشهد الأخير» «قتل الكلاب» «آداب الحمامات» «مبنى الصلاة الوسطى» «الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها» «تحريم الجمع بين الأختين» «كتاب الصيام» وغير ذلك[٢].

٥ـ التصنيف المستقل في أحكام الفقه، وذكرناها سابقاً[٣]، وهي:

أ ـ الاجتهاد في أحكام الجهاد، وهو كتاب مطبوع، وسنعود إلى دراسته.

ب ـ أحكام التنبيه، وهو أول كتاب صنفه ابن كثير في صغره،

---

(١) ابن كثير كمؤرخ ص ٤٥.
(٢) صفحة ١٠٣ مكرر.
(٣) صفحة ١٠١ـ١٠٢.

ونظر فيه شيخه البرهان الفزاري فأعجبه وأثنى عليه[1]، ولكن لم يظهر أثر هذا الكتاب حتى اليوم.

جـ - كتاب في السماع، أي بيان حكم استماع الغناء، ذكره حاجي خليفة[2]، ولم يظهر له أثر.

وهذه الإسهامات تدل على صلة ابن كثير الوثيقة بالفقه، وتعمقه به، وممارسته له، واشتغاله فيه، ولكن لم يصرف له همته في التأليف والتصنيف الواسع الشامل كبقية العلوم الأخرى.

ويظهر أن ابن كثير عكف على كتاب «التنبيه» للشيخ أبي إسحاق الشيرازي (٤٧٦ هـ) طوال حياته، فحفظه في الصغر، وشرحه، وكان يعرضه، وبقي يحفظه إلى آخر عمره، ويُكرِّر عليه، وصنف أحكامه، وخرَّج أحاديثه كما سبق، ولكن لم يصلنا «شرح التنبيه» أو «أحكام التنبيه» ونكتفي بهذا التنويه به، لنلقي ضوءاً على الكتاب المطبوع، وهو «الاجتهاد في طلب الجهاد» بعد تمهيد سريع عن الجهاد.

تعريف الجهاد:

يحتل الجهاد مكانة رفيعة في الشرع، ويمثل ذروة سنام الإسلام، ويعتبر الوسيلة الفاعلة والأساسية لنشر الدعوة الإسلامية طوال

---

(١) إنباه الغمر ١/ ٣٩، طبقات الشافعية ٢/ ٢٣٧.

(٢) كشف الظنون ٢/ ٣٣.

التاريخ الإسلامي، وتبليغ الرسالة، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإعلاء التوحيد والعبودية لله تعالى، وإنقاذهم من الطاغوت وعبودية البشر، وجور الحكام.

كما يمثل الجهاد الدرع الواقي للأمة والمجتمع والدين إذا تعرض لهجوم خارجي، واعتداء أجنبي، واستعمار دخيل، فيعلن الجهاد والحرب في سبيل الله تعالى، لحماية الدين، والأنفس، والأعراض، والأموال، والأوطان، وطرد المحتل الغاصب، وتحرير الأرض والإنسان، وحماية القيم الإنسانية، وتجديد حمل الدعوة ورسالة السماء.

ولم يكن الجهاد ـ في يوم من الأيام ـ لإجبار الناس على الدخول في الإسلام، وإكراههم عليه، وإنما يقتصر القتال والحرب في الجهاد على قتل الطغاة والمعتدين، ومجابهة قوى الظلم والعدوان، فإذا تحقق النصر، ترك الناس لاختيار الدين والعقيدة، وممارسة العبادة التي يختارونها، ثم يواجهون الحساب يوم القيامة وأمام رب العالمين وأحكم الحاكمين على عقيدتهم وعباداتهم وأعمالهم.

وفي سبيل ذلك كان الدعاة والفقهاء والقراء والأئمة والمحدثون يرافقون المجاهدين من جهة، وكان المسلمون يبنون الثغور مما يلي حدود الدولة الإسلامية لصد هجمات الأعداء، والترصد لمؤامراتهم، فإذا داهم العدو بلاد المسلمين وأرضهم وأوطانهم هبَّ العلماء لاستنفار المسلمين لملاقاته، وتعاون الحكام والفقهاء على التوعية

الجهادية، وبث الحماس الديني، وبيان الحكم الشرعي في القتال والجهاد والوقوف في وجه الكفار ومقاتلتهم.

وهذا ما قام به فقيهنا العلامة ابن كثير في هذا الكتاب ليكون تذكيراً للمسلمين في عصره، وفي كل عصر بفضيلة الجهاد، ومكانته في الإسلام، ووجوب الالتزام به، والحرص عليه، «فمن مات ولم يغزُ، ولم يحدث نفسه بالجهاد، مات ميتة جاهلية» و «الجهاد ماض إلى يوم القيامة» ، ومازال المسلمون في عزة ونصر وقوة ما حملوا راية الجهاد، وما ذلوا واستعبدوا وخضعوا إلا بترك الجهاد الذي حرص أعداء الله على تشويهه، وإبطال مفعوله، وإبعاده عن المسلمين نظرياً وعملياً.

وقد وردت آيات كثيرة في فضل الجهاد والمجاهدين، وأخرى تأمر بالجهاد وتحث عليه، وثالثة تبين منهجه وترشد إلى أحكامه، وتحدد غاياته ونتائجه وآثاره.

كما ثبت في السنة النبوية أحاديث كثيرة تحض على الجهاد، وتحذر من تركه، وتبين فضله، وترشد إلى مكانة المقاتلين والشهداء والغازين، ومن يجهز غازياً، أو يخلفه في أهله.

وأثبت الجهاد في التاريخ الإسلامي أنه الدعامة الأساسية، والركيزة التي يستند إليها المسلمون في الحفاظ على كيانهم ووجودهم، وحماية أوطانهم وأرضهم، والدفاع عن عقيدتهم ودينهم، وبث الرعب في قلوب أعدائهم، حتى تنقطع نياط أفئدتهم من مجرد إعلان الجهاد في سبيل الله.

وكتب الفقهاء والعلماء أحكام الجهاد بأحرف من نور، وسطر المؤرخون تاريخ الجهاد الإسلامي في الشرق والغرب بما يرفع الرأس، حتى في عصر الاستعمار الحديث كان للجهاد شأنه، وكان له الفضل الأول في الثورة على الكفار والمحتلين، وحث الناس على الاستبسال في سبيل الله لطرد المستعمرين، وقد تحقق لهم ذلك عسكرياً والحمد لله، وبقي دور الجهاد للاستقلال الفكري والتربوي والسياسي والاقتصادي وغيره.

كتاب الاجتهاد في طلب الجهاد:

هذا الكتاب رسالة صغيرة طبعت ثلاث مرات، فنشرتها جمعية النشر والتأليف الأزهرية عام ١٣٤٧ هـ/ ١٩٢٨ م في مطبعة أبي الهول بالقاهرة.

ثم حققها وعلق عليها الدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان، ونشرتها مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م، وتقع في ١٣٦ صفحة مع فهارس متنوعة.

ثم حققها وقدمها الدكتور محمد زينهم ـ ونشرتها دار الرشاد ـ القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م، وتقع في ٥٥ صفحة، وبآخرها كشاف عام.

وبين ابن كثير رحمه الله تعالى سبب تأليف الرسالة، بأنها تلبية

لطلب الأمير سيف الدين منجك[1] في نيابته الثانية لدمشق (٧٧١ـ٧٧٥ هـ) في بيان ما تيسر من الكتاب والسنة والآثار الحسنة في المرابطة بالثغور، وحض الناس على مقاومة الخطر الفرنجي الذي استجد تهديده منذ هجومهم على الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ، فلبى ابن كثير هذا الطلب، وقام بالواجب الديني في هذا الخصوص[2].

وتتضمن طبعة مؤسسة الرسالة مقدمة مطولة من الدكتور عسيْلان، عرض فيها تمهيداً عن الجهاد في سبيل الله، وفضله، وحقيقته، والحاجة إليه (ص ٩) ثم ترجمة عن الحافظ ابن كثير (ص ٢١ـ٣٤) ثم دراسة عن كتاب الجهاد (ص ٣٧) وعرض المحقق ثبتاً بآثار العلماء وأهم المؤلفات المصنفة حول الجهاد (ص ٣٩) ثم عرف بمخطوطة الكتاب (ص ٤٧) وبدأ الكتاب (ص ٦١ـ٩٨) ثم جاءت المصادر والمراجع والفهارس.

أما طبعة دار الرشاد فقدم فيها الدكتور زينهم مقدمة (ص ٥) عن الحروب الصليبية التي بدأت عام ١٠٩٧ م، ثم عرض باختصار لهجوم المغول من الشرق (ص ١٧) ثم رسم جدولاً عن تواريخ بعض الأسماء والأعلام اللامعة والأحداث الهامة في العالم الإسلامي، وفي أوربة والغرب (ص ٢٠ـ٢٢) وعرف بابن كثير (ص ٢٤ـ٢٥) ثم جاء نص الرسالة (ص ٣٦ـ٤١) وأعقبها مصادر التحقيق (ص ٤٣ـ٤٨)

---

(١) توفي الأمير منجك سنة ٧٧٦ هـ.

(٢) الاجتهاد في طلب الجهاد ص ٦٢ طبعة مؤسسة الرسالة.

وكشاف عام عن الأعلام والأماكن الجغرافية والطوائف والآيات والأشعار والأحاديث وأسماء الكتب الواردة بالنص (ص ٤٦ـ٥٣) ثم الفهرس العام (ص ٥٤ـ٥٥).

ولعل ابن كثير اختصر هذه الرسالة من كتاب سابق أطول منه، لأنه يقول في مقدمته: «وقد كنت جمعت في ذلك مجلداً بسيطاً فاختصرت منه منهجاً وسطاً وسيطاً»[1].

وهذا يدعم القول بأن ابن كثير صنف كتاباً بعنوان: «أخبار هجوم الفرنج على الإسكندرية» الذي لم يشر إليه أحد من المترجمين، لقرب موضوعه من هذه الرسالة، لكن يوجد كتاب مطبوع بمصر بهذا العنوان، وموجود بدار الكتب المصرية بالقاهرة قديماً، ولم يبين أحد مضمونه، فلعله أصل للرسالة أم نفس الرسالة[2].

وعرض ابن كثير في رسالة «الاجتهاد في طلب الجهاد» لأهمية الجهاد، وأورد الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية في فضل الجهاد ووجوبه، ليحث الناس على مقاومة الأعداء، والدفاع عن أرض المسلمين، ثم ذكر هجوم الفرنج على الإسكندرية، وانتقال بعضهم إلى طرابلس، وبيان الفظائع التي أنزلوها بالآمنين قتلاً وأسراً وتشريداً، حتى هجموا على مدينة أياس، فقاومهم المسلمون هناك، ورجع الفرنج عنها ميؤوسين.

---

(١) الاجتهاد في طلب الجهاد ص ٦٢.

(٢) ابن كثير، حياته ص ١١٤.

وعرض ابن كثير أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين خلال القرن الثامن الهجري الذي عاش فيه، وبين ما أعده الله تعالى من الأجر العظيم للمجاهدين، وأورد ثلاثة عشر حديثاً في الموضوع، وأشار إلى جهود الأمير منجك في ذلك.

ثم استعرض ابن كثير جهود المسلمين الأوائل للجهاد في سبيل الله في بلاد الشام على عهد الرسول ﷺ، وخلافة الراشدين حتى دانت لهم البلاد شرقاً وغرباً.

ثم تعرض لاستيلاء الفرنج على بيت المقدس، وقيام صلاح الدين الأيوبي بالجهاد ضدهم، حتى انتزعه من أيديهم، واسترجع البلاد المجاورة من غزة ونابلس وعجلون والغور والكرك والشوبك وصفد، ثم عرض للصراع المرير بين المسلمين والفرنج حول مدينة عكا.

وأخيراً بيَّن ابن كثير عزة الأمة الإسلامية بدينها، وتأييد الله لها، والبشرى ببقاء بيت المقدس في يدها مادامت تطبق الإسلام، وتعلي شأن الجهاد، ويسرد الأدلة على ذلك، ويختم كتابه بقوله: «وكذلك فيما ذكرنا دليل على أن مدينة دمشق لا تزال دار إيمان وأمان وقرار حتى ينزل عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه»[1].

---

(١) الاجتهاد في طلب الجهاد ص ٩٧.

منهج ابن كثير في الرسالة:

ويظهر منهج ابن كثير في هذه الرسالة بالأمور التالية:

١ـ اعتمد ابن كثير على الكتاب والسنة في التعليق على بعض الأحداث، وهذا صنيعه في كتاب «البداية والنهاية» وسائر كتبه.

٢ـ كان ابن كثير يحقق بعض الأحاديث ويخرجها، فقال في حديث «كل ميت يختم على عمله»: «رواه الإمام أحمد، وهذا لفظه، وأبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن حبان في صحيحه أيضاً»[١]، وقال بعد ذلك: «وروى ابن ماجه بإسناد فيه غرابة وضعف، ولكن قد اغتفروا رواية الحديث الضعيف في الترغيبات عن أبي بن كعب...»[٢].

٣ـ كان ابن كثير يرمي في سياق بعض الأحداث التاريخية إلى بيان عزة المسلمين وقوتهم، ومنعتهم، لبث روح الثقة في النفوس، ورفع المعنويات، وتذكير المسلمين بسيرة أجدادهم، والتزامهم بمنهج الله، ورفع راية الجهاد في سبيل الله، فحقق الله لهم النصر والعزة والسيادة في الكون[٣].

٤ـ يظهر من رسالة ابن كثير صفاته كفقيه ومحدث وداعية

---

(١) الاجتهاد ص ٦٨.
(٢) الاجتهاد ص ٧٠.
(٣) الاجتهاد، المقدمة ص ٣٨.

للجهاد، ومذكر بأحكام الشرع، ومهتم بأمور المسلمين التاريخية والمعاصرة له، فيعيش مع أهل عصره، ويتعرض لموقف الإسلام من الأحداث التي تهز أمته.

فجزاه الله خير الجزاء، ورحمه رحمة واسعة، وحقق الله آماله وأمانيه في الأمة الإسلامية حاضراً ومستقبلاً.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الممتعة مع المفسر المحدث، المؤرخ الفقيه، الداعية المصلح، ابن كثير الدمشقي، نصل إلى ختام البحث، لنلخص أهم النتائج في النقاط التالية:

١ـ إن ابن كثير من أشهر العلماء الأعلام في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، ونال ثقة العلماء منذ عصره حتى يومنا الحاضر، وهذا يدل على مكانة العلماء في حياتهم، وبعد وفاتهم، وأن من الوفاء أن نعترف بفضلهم، ونستفيد من عطائهم وعلمهم، ونباهي بهم العالم، ونسعى لتوفير العلماء في هذا العصر ليكونوا منارة للأمة، ودعاة للدين، ومصلحين للمجتمع.

٢ـ كانت بلاد الشام موحدة مع مصر، وكان الحكم للمماليك البحرية، واتسم هذا العصر بالمتناقضات، فالسياسة العامة والخارجية واحدة، ولكن تكثر التقلبات الداخلية، والاغتيالات السياسية، وكانت دمشق موئل العلماء، ومركز ازدهار العلوم المختلفة، مع انتشار العلم، وإنشاء المدارس، وبناء المساجد، وكثرة الكتب والموسوعات، وتعدد الفرق والمذاهب، وغلبة التمذهب الفقهي،

وظهر في هذا القرن عدد كبير من العلماء المحدثين والقضاة والفقهاء والمؤرخين.

٣ـ اتفق المؤرخون على اسم ابن كثير، ونسبه لجده، ولقبه وكنيته، فهو أبو الفداءِ، عماد الدين، إسماعيل بن عمر بن كثير، القَيْسي، القرشي، البُصروي، الدمشقي، الشافعي.

ثم تعددت العبارات في أسماء والد جده وما علا، واختلفت الآراء في ولادته بين سنة ٧٠٠ هـ أو ٧٠١ هـ، والراجح الرأي الثاني.

ولد ابن كثير في مجيدل القرية في محافظة درعا اليوم، وتوفي والده وهو في الثالثة من عمره، فرعاه أخوه عبد الوهاب، وكانت أسرته علمية دينية، فوالده فقيه وخطيب، وأخوه عالم وفقيه، وأولاده وأولاد إخوته كذلك، وتزوج ابن كثير بنت شيخه المزي، وأنجب منها الأولاد العلماء.

٤ـ نشأ ابن كثير في قريته، ثم انتقل مع أخيه إلى دمشق، وتفرغ لطلب العلم، فحفظ القرآن الكريم من الصغر، ودرس الفقه، وأصوله، وعلوم الحديث والعربية، عن علماء دمشق، وبرع في الفقه والتفسير والحديث والنحو، وأخذ هذه العلوم عن مشايخ دمشق الأجلاء، وعلمائها الأفذاذ الذين ذكر معظمهم في كتابه «البداية والنهاية» وترجم لهم، ولازم شيخه المزي وصاهره، وتأثر بشيخ

الإسلام ابن تيمية وأحبه حتى دفن بجواره، وأجازه بالرواية بعض علماء مصر وبغداد.

٥ـ مارس ابن كثير في حياته الاشتغال بالعلم في مجال الإقراء والتحديث والتدريس ومشيخة بعض المدارس، ومارس الفتوى، وعكف على التأليف والتصنيف، ونظم الشعر القليل، وكان يحتل مكانة علمية واجتماعية مرموقة بين علماء عصره، ولدى الحكام وطلاب العلم، وأفراد المجتمع، واشترك في التحكيم لامتحان العلماء وكبار الطلبة، فكان مثلاً للعالم العامل، المجد النشيط، الذي عاش ظروف عصره كاملة، وأدى رسالته في الحياة، وشارك في النشاط الثقافي.

٦ـ اتصف ابن كثير بكمال الصفات الخَلْقية والخُلُقية، وكان جيد الحفظ، كثير الاستحضار، قليل النسيان، صحيح الفهم، خفيف الروح، حسن المفاكهة، ملتزماً بالحديث النبوي، والسنة الثابتة، والقيم العالية، والفضائل النفيسة.

وكانت له مواقف تتسم بالحياد والموضوعية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنكار البدع، والدعوة إلى الإصلاح، وإنصاف الخصم، والبعد عن الضغائن والأحقاد، وقافاً على الحق، يسعى للإصلاح الديني والاجتماعي.

وهذه هي الصفات الحميدة التي يدعو إليها الإسلام، ويجب أن يلتزم بها العالم خاصة، والمسلم عامة.

٧ـ كان لابن كثير تلاميذ كثر، ولكن ليس لهم ضبط، ولم يعرف أكثرهم، ولكن اشتهرت كتبه ومصنفاته في عصره، وسارت في البلاد منذ زمنه حتى عصرنا الحاضر، واستفاد الناس منها، وتداولتها الأيدي والقراء، مما يدل على أهميتها، وسهولتها، وغزارتها، ونفعها، وتوحي بتأييد الله تعالى له بالتوفيق والسداد، وأنه رزق الإخلاص في العلم، والتقوى في العمل، وهي علامات القبول عند رب العالمين.

٨ـ اتفق المؤرخون على تاريخ وفاة ابن كثير (٧٧٤ هـ/ ١٣٧٣ م) وأثنى عليه معاصروه، وسائر العلماء والمترجمين له، ثناء عطراً، ووشحوا ترجمته بعبارات التقدير والاحترام، مما يترك الأثر الطيب في النفوس، ويؤكد مكانة العلماء العاملين، أحياء وميتين، وأن علمهم ثمرة خالدة لهم، وذكرة طيبة، وثواب دائم.

٩ـ تعتبر السيرة العلمية لابن كثير أزهى من السيرة الشخصية، وأكثر أهمية على مر التاريخ، وتمثل الصورة المشرقة لابن كثير طوال العصور اللاحقة، وتزداد هذه الصورة إشراقاً وتألقاً في الوقت الحاضر عند تحقيق كتبه، ونشرها، ووضعها في أيدي الطلاب وسائر الناس، للاستفادة منها، والتزود من معينها، وتتجلى هذه الصورة العلمية في المحاور التالية.

١٠ـ ساهم ابن كثير في علوم القرآن وتفسير القرآن العظيم، ويعتبر تفسيره من أحسن التفاسير، متوسط الحجم، ويملأ المكتبات،

ويعكف عليه مختلف الطبقات، ويتألق في أعلى قائمة التفسير بالمأثور، وله منهج محدد في تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بالأحاديث، وتفسيره بأقوال الصحابة وآراء السلف الصالح، مع توضيح المعنى، وبيان الأحكام، وله طبعات عديدة، ومختصرات متنوعة، ومعظمها مطبوع ومتوفر.

١١ـ كان ابن كثير حافظاً للحديث، ومحدثاً، وساهم بكتب قيمة في علوم الحديث، وكان يعول على أحاديث رسول الله ﷺ في مختلف كتبه، حتى غلب ذلك على جميع مصنفاته، وكان يجيز الطلاب بالرواية، وعرف بوصف «الحافظ» تقديراً لإسهاماته في علم الحديث، وإتقانه له، وأشهر كتبه المتداولة اليوم: «اختصار علوم الحديث» الذي طبع عدة مرات مع شرحه «الباعث الحثيث».

١٢ـ اهتم ابن كثير اهتماماً كبيراً بعلم التاريخ، وصنف فيه موسوعته المباركة «البداية والنهاية» وامتاز بمنهج دقيق، وعلم محكم، حتى صار عمدة المؤرخين، ومن مشاهير مؤرخي العالم الإسلامي، وأصبح كتابه أكثر المصادر تداولاً، وثقة، وطباعة، وتفرع عنه عدة كتب طبعت مستقلة، وصارت مكانة ابن كثير كمؤرخ لا تقل عن شهرته ومكانته وامتيازه في التفسير والحديث.

١٣ـ خصص ابن كثير جانباً من التاريخ بالرعاية والعناية والتوسع، وهو قسم السيرة النبوية، فصنف فيها سيرة مطولة، ويظهر أنه ضمها إلى كتابه «البداية والنهاية»، ثم ظهرت مستقلة في

الوقت الحاضر، كما صنف «السيرة المختصرة= الفصول في سيرة الرسول ﷺ» لتكون في متناول القراء والطلاب.

وصنف ابن كثير في التراجم ورجال الحديث مما يكمل الصورة المضيئة له كمؤرخ من جهة، ومتخصص ومتعمق بالسيرة من جهة أخرى، وكان أول من جمع بين الأخبار التاريخية والأحاديث النبوية لبيان السمات الصحيحة للسيرة النبوية الشريفة.

١٤ـ كان ابن كثير فقيهاً متخصصاً ومتعمقاً وممارساً للفتوى الخاصة والعامة، وكان يحتل مكان الصدارة في ذلك، ويُرجع إليه في المهمات الجسام، والوقائع الخطيرة، وكانت إسهاماته الشخصية في الفقه والفتوى أكثر من مصنفاته وكتبه في هذا الخصوص.

١٥ـ وأخيراً: فإن العلامة الحافظ المفسر المؤرخ الفقيه ابن كثير يمثل أنموذجاً متميزاً في تاريخنا الإسلامي، ويعتبر شمعة مضيئة للأجيال، ومنبعاً ثراً للباحثين، ومورداً للعلماء، ومنبعاً غزيراً لقاصد الحقيقة، والساعي إلى المعرفة في مختلف العلوم، ولا يزال ضيف الشرف على موائد المدارس والجامعات والمكتبات الخاصة والعامة.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦].

«ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير، أنت غياث المستغيثين، وملاذ التائبين، بيدك الأمر كله، وإذا قلت لشيء: كن، فيكون، أنت القاهر، وأنت القادر، نسألك أن تردنا إلى ديننا رداً جميلاً، وأن تأخذ بنواصينا إلى سبل الرشاد، وأن تهيىء لهذه الأمة أمراً يُعز فيه أولياؤك، ويُنصر دينك، ويقهر عدوك، ويُعمل بكتابك وسنة رسولك، ويقام فيه شرعك، وتهدي به خلقك، ويعود فيه المسلمون إلى دينهم وشريعتهم وقرآنهم».

«اللهم نسألك حسن الختام، والوفاة على الإيمان، والإخلاص في الأعمال، وأن ترزقنا الصدق في القول والعمل، أنت ملاذنا، وأنت رجاؤنا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

الأستاذ الدكتور محمد الزحيلي

وكيل كلية الشريعة للشؤون العلمية بجامعة دمشق

المصادر والمراجع

١ـ الاجتهاد في طلب الجهاد، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ).

حققه وعلق عليه الدكتور عبد الله بن عبد الرحيم عسيْلان.

مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.

٢ـ الاجتهاد في طلب الجهاد، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ).

تحقيق وتقديم الدكتور محمد زينهم.

دار الرشاد ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م.

٣ـ استشهاد الحسين، للإمام الحافظ ابن كثير.

ويليه رأس الحسين، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تقديم الدكتور محمد جميل غازي.

مطبعة المدني ـ القاهرة ـ ١٣٩٧ م.

٤ـ الإسراء والمعراج، وهل رأى النبي ﷺ ربه ؟ للحافظ ابن كثير.

حققه وعلق عليه محمد عبد العزيز الهلاّوي.

دار الطلائع ـ القاهرة ـ إيداع ١٩٩٢ م.

٥ـ أصول التفسير لكتاب الله المنير، خالد عبد الرحمن العك.
نشر مكتبة الفارابي ـ دمشق ـ ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م.

٦ـ أصول الحديث وعلومه، الدكتور محمد عجاج الخطيب.
دار الفكر ـ لبنان ـ الطبعة الأولى، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٧ م.

٧ـ أصول الفقه الإسلامي، الدكتور محمد الزحيلي.
كتاب جامعي ـ مطابع مؤسسة الوحدة دمشق ـ ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م، الطبعة الثانية.

٨ـ الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء، خير الدين الزركلي (١٩٧٦ م).
الطبعة الثالثة ـ بيروت ـ ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م.

٩ـ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد عبد الرحمن السخاوي (٩٠٢ هـ).
مطبوع مع كتاب علم التاريخ عند المسلمين، نشر مكتبة المثنى ـ بغداد ـ ١٩٦٣ م.

١٠ـ إنباه الغُمْر بأبناء العمر، شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ).
تحقيق الدكتور حسن حبشي.
إصدار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ـ ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م.

١١ـ **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون،** إسماعيل باشا البغدادي (١٣٣٩ هـ).

تصوير دار الفكر ـ دمشق ـ ١٤٠١ هـ/ ١٩٨٢ م، مطبوع كتكملة كشف الظنون.

١٢ـ **الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث،** للحافظ ابن كثير ٧٧٤ هـ، تأليف أحمد محمد شاكر.

الطبعة الثالثة، مطبعة محمد علي صبيح ـ القاهرة ـ ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٨ م.

١٣ـ **بحوث في أصول التفسير،** الدكتور محمد بن لطفي الصباغ.

المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.

١٤ـ **بداية الخلق،** للحافظ الإمام ابن كثير (٧٧٤ هـ).

دراسة وتحقيق إبراهيم محمد الجمل.

دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

١٥ـ **البداية والنهاية،** للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ).

تصوير مكتبة المعارف ـ بيروت ـ مكتبة النصر ـ الرياض ـ عن الطبعة الأولى، ١٩٦٦ م.

١٦ـ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع،** محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠ هـ).

مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى، ١٣٤٨ هـ.

١٧ـ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤ هـ).
دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى، ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٨ م.

١٨ـ التاريخ العربي والمؤرخون، الدكتور شاكر مصطفى.
دار العلم للملايين، الطبعة الأولى للجزء الأول ١٩٧٨ م، الجزء الرابع ١٩٩٣ م.

١٩ـ تاريخ القضاء في الإسلام، الدكتور محمد الزحيلي.
دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م.

٢٠ـ تاريخ المماليك، الدكتور عادل زيتون.
كتاب جامعي، المطبعة الجديدة، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.

٢١ـ التاريخ والمؤرخون العرب، الدكتور السيد عبد العزيز سالم.
دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ١٩٨١ م.

٢٢ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (عيسى بن سورة ٢٧٩ هـ) للمباركفوري ١٣٥٣ هـ.
نشر محمد عبد المحسن الكتبي بالمدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م.

٢٣ـ تذكرة الحفاظ، للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨ هـ).
تصوير دار التراث العربي ـ بيروت ـ عن طبعة الهند، ١٩٥٨ م.

٢٤ـ **الترغيب والترهيب**، للحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (٦٥٦ هـ).
مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م.

٢٥ـ **التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان**، المحامي عباس العزاوي.
شركة التجارة والطباعة المحدودة ـ بغداد ـ ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٧ م.

٢٦ـ **تعريف عام بالعلوم الشرعية**، الدكتور محمد الزحيلي.
دار طلاس ـ دمشق ـ الطبعة الأولى، ١٩٨٨ م.

٢٧ـ تفسير آية الكرسي، **أعظم آية في القرآن**، للأئمة الكبار الفخر الرازي، ابن كثير، الألوسي.
تحقيق محمود شلبي، دار المعرفة ـ بيروت ـ د. ت.

٢٨ـ **التفسير بالمأثور ومناهج المفسرين فيه**، الدكتور محمد أبو النور الحديدي صقر.
المركز العالمي للتعليم الإسلامي ـ مكة المكرمة ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.

٢٩ـ تفسير الطبري= **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ).
مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ الطبعة الثالثة، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م.

٣٠ـ **تفسير القرآن العظيم**، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (٧٧٤ هـ).

دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ د. ت.

ـ تفسير ابن كثير= تفسير القرآن العظيم.

٣١ـ **التفسير والمفسرون**، الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي.

دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ سنة ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١ م.

٣٢ـ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، للحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي (٧٤٢ هـ).

حققه الدكتور بشار عواد معروف.

مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى للجزء الأول ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م، الجزء ٣٥ سنة ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م.

٣٣ـ **تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير**، الشيخ محمد نسيب الرفاعي.

مكتبة المعارف ـ الرياض ـ طبعة جديدة، ١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩ م.

٣٤ـ **ابن تيمية**، للدكتور محمد يوسف موسى.

من سلسلة أعلام العرب، العدد ٥، نشر وزارة الثقافة ـ مصر ـ ١٣٨١ هـ/ ١٩٦٢ م.

٣٥ـ **جامع الترمذي مع تحفة الأحوذي**= سنن الترمذي للحافظ عيسى ابن سورة الترمذي (٢٧٩ هـ).

مطبعة المدني ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م.

٣٦ـ جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، السيد نعمان خير الدين الشهير بابن الألوسي البغدادي (١٣١٧ هـ/ ١٨٩٩ م).

مطبعة المدني ـ القاهرة ـ ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١ م.

٣٧ـ الحديث والمحدثون، أو عناية الأمة الإسلامية بالسنة النبوية، الشيخ محمد أبو زهو.

نشر دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م.

٣٨ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١ هـ).

طبع عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م.

٣٩ـ الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (٩٢٧ هـ).

مطبعة الترقي، نشر المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٨ م.

٤٠ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ).

دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦ م.

٤١ـ الدلائل: معجزات النبي ﷺ، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير (٧٧٤ هـ).

دراسة وتحقيق محمد عبد العزيز الهلاّوي.

نشر مكتبة القرآن ـ القاهرة ـ تاريخ المقدمة ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م، تاريخ الإيداع ١٩٩٢ م.

٤٢ـ ذكر مولد رسول الله ﷺ ورضاعه، للإمام الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير (٧٧٤ هـ).

حققه ياسين محمد السواس، محمود الأرناؤوط.

نشر دار ابن كثير ـ دمشق ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.

٤٣ـ ذيل تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي، للحافظ أبي المحاسن الحسيني الدمشقي

شمس الدين محمد بن علي بن حسن (٧٦٥ هـ).

تصوير دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ عن طبعة حسام الدين القدسي بالقاهرة د. ت.

٤٤ـ الرد الوافر، للإمام ابن ناصر الدين الدمشقي، الحافظ محمد بن أبي بكر ناصر الدين الدمشقي الشافعي (٨٤٢ هـ).

المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٩٣ هـ ـ بيروت ـ.

(وهو رد على العلاء البخاري الذي تهجم على شيخ الإسلام وباقي العلماء الأعلام الذين لقبوه بـ «شيخ الإسلام» حين قال كلمته الجائرة: إن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر) المقدمة.

٤٥ـ الرسالة المستطرفة، للسيد الشريف محمد بن جعفر الكتاني (١٣٤٥ هـ).

دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة الثالثة، ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤ م.

٤٦ـ سنن الدارمي، للإمام أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (٢٥٥ هـ).
حققه الدكتور مصطفى البغا.
دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩١ م.
٤٧ـ سنن أبي داود، للحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥ هـ).
طبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢ م.
٤٨ـ سنن ابن ماجه، للحافظ محمد بن يزيد القزويني (٢٧٥ هـ).
طبعة دار إحياء الكتب العربية ـ مصر ـ ١٣٧٢ هـ/ ١٩٥٢ م.
٤٩ـ سنن النسائي، للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣ هـ).
طبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤ م.
٥٠ـ السيرة النبوية، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير (٧٧٤ هـ).
تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد.
مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م.
٥١ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن العماد الحنبلي (١٠٨٩ هـ).
طبعة القدسي ـ القاهرة ـ ١٣٥٠ هـ.
٥٢ـ شرح النووي على صحيح مسلم، المحدث محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦ هـ).

المطبعة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى، د. ت.

٥٣ـ الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، طاش كبري زادة (٩٦٨ هـ).

دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م.

٥٤ـ شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير (٧٧٤ هـ).

تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد.

دار المعرفة ـ بيروت ـ تاريخ المقدمة ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٧ م، الطبعة الأولى.

٥٥ـ صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦ هـ).

دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.

٥٦ـ صحيح مسلم بشرح النووي، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١ هـ).

المطبعة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى، د. ت.

٥٧ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٩٠٢ هـ).

طبع مكتبة القدسي ـ القاهرة ـ ١٣٥٣ هـ/ ١٩٥٣ م.

٥٨ـ طب القلوب، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر، المشهور بابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ).

جمع وحوار الدكتور عجيل جاسم النشمي.

نشر دار الدعوة ـ الكويت ـ الطبعة الثانية، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.

٥٩ـ **طبقات الشافعية**، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر، تقي الدين ابن قاضي شهبة الدمشقي (٨٥١ هـ).

تصحيح الدكتور الحافظ عبد العليم خان.

نشر مؤسسة دار الندوة الجديدة ـ بيروت ـ ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.

٦٠ـ **طبقات الشافعية الكبرى**، تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (٧٧١ هـ).

نشر عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٩٧٦ م، ت الحلو والطناحي.

٦١ـ **طبقات المفسرين**، للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي (٩٤٥ هـ).

ت محمد علي عمر، نشر مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى، ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م.

٦٢ـ **طبقات القراء**، للإمام محمد بن محمد بن الجَزَري (٨٣٣ هـ).

نشر ج. برجستراسر، تصوير دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.

٦٣ـ **طرق تدريس التربية الإسلامية**، الدكتور محمد الزحيلي.

دار المعارف للطباعة ـ كتاب جامعي ـ ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.

٦٤ـ **عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب**، أبو بكر محمد بن أبي عثمان الحازمي الهمداني (٥٨٤ هـ).
طبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ـ القاهرة ـ ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٥ م.

٦٥ـ **العز بن عبد السلام**، الدكتور محمد الزحيلي.
دار القلم ـ دمشق ـ سلسلة أعلام المسلمين، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م.

٦٦ـ **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي**، محمود رزق سليم.
نشر مكتبة الآداب ـ القاهرة ـ مطبعة التوكل، ١٣٦٦ هـ/ ١٩٤٧ م.

٦٧ـ **علامات يوم القيامة**، للحافظ ابن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ).
ت عبد اللطيف عاشور، نشر مكتبة القرآن ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ م.

٦٨ـ **علوم الحديث لابن الصلاح** (٦٤٣ هـ)، تحقيق الدكتور نور الدين عتر.
دار الفكر ـ دمشق ـ ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م.

٦٩ـ **عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير**، اختصار وتحقيق أحمد محمد شاكر.
دار المعارف ـ مصر ـ ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٦ م.

٧٠ـ **عمر بن عبد العزيز**، الأستاذ الإمام ابن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ).

ت الشيخ أحمد الشرباصي.
الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ د. ت.

٧١ـ **الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير للسيوطي**، الشيخ يوسف النبهاني (١٣٥٠ هـ/ ١٩٣٢ م).
مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٥٠ هـ.

٧٢ـ **الفتح المبين في طبقات الأصوليين**، الشيخ عبد الله مصطفى المراغي.
الطبعة الثانية، تصوير ـ بيروت ـ ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م، نشر محمد أمين دمج.

٧٣ـ **الفصول في سيرة الرسول ﷺ**، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير (٧٧٤ هـ).
ت محمد العيد الخطراوي، محيي الدين مستو.
نشر دار التراث ـ المدينة المنورة ـ، دار ابن كثير ـ دمشق ـ الطبعة السادسة، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م.

٧٤ـ **فضائل القرآن**، وهو ذيل تفسير الحافظ ابن كثير (٧٧٤ هـ).
طبع دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ د. ت.

٧٥ـ **فضائل القرآن**، تأليف ابن كثير (٧٧٤ هـ).
تحقيق سعيد عبد المجيد محمود.
نشر دار الحديث ـ القاهرة ـ ١٩٨٩ م.

٧٦ـ **فهرس أحاديث تفسير القرآن العظيم**، للحافظ أبي الفداء

إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤ هـ).

إعداد الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، محمد سليم إبراهيم سمارة، جمال الدين الذهبي.

نشر دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

٧٧ـ **قصص الأنبياء**، للإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ).

تحقيق علي عبد الحميد بلطه جي، محمد وهبة سليمان، معروف زريق.

نشر دار الخير ـ دمشق ـ الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م.

٧٨ـ **قصص الأنبياء**، لابن كثير (٧٧٤ هـ).

تحقيق وتعليق عبد القادر أحمد عطا.

دار إحياء التراث العربي، نشر المكتبة الإسلامية ـ بيروت ـ الطبعة الثانية، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.

٧٩ـ **ابن كثير، حياته ومؤلفاته**، الدكتور مسعود الرحمن خان الندوي.

نشر مركز الدراسات الآسيوية الغربية ـ عليكرة ـ الهند ـ الطبعة الأولى، ١٩٧٩ م.

٨٠ـ **ابن كثير كمؤرخ**، الدكتور مسعود الرحمن خان الندوي.

نشر مركز الدراسات الآسيوية الغربية ـ عليكرة ـ الهند ـ الطبعة الأولى، ١٩٨٠ م.

٨١ـ **كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، للشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني (١١٦٢ هـ).

نشر مكتبة التراث الإسلامي ـ حلب ـ د. ت.

٨٢ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، للإمام ملا كاتب جلبي، الحاج خليفة، مصطفى بن عبد الله (١٠٦٧ هـ).

الطبعة الأولى، دار سعادت ـ مصر ـ ١٣١١ هـ.

٨٣ـ **كيف تكون مؤمناً ؟ من تفسير ابن كثير**، إعداد وتعليق نشأت المصري.

نشر دار المختار الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ م.

٨٤ـ **لب الألباب في تحرير الأنساب**، جلال الدين الأسيوطي الشافعي (٩١١ هـ).

تصوير الأوفست مكتبة المثنى ـ بغداد ـ د. ت.

٨٥ـ **لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ**، تقي الدين محمد بن محمد بن فهد الهاشمي المكي.

تصوير دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ د. ت.

٨٦ـ **مجلة معهد المخطوطات العربية**، المجلد ٢، الجزء ١، شوال ١٣٧٥ هـ، مايو ١٩٥٦ م.

٨٧ـ **محاضرات في علوم القرآن**، الأستاذ الدكتور نور الدين عتر.

مطبعة الإنشاء ـ نشر جامعة دمشق ـ ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.

٨٨ـ **مختصر تفسير ابن كثير**، اختصار الشيخ محمد كريم راجح.

دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٨ م.

٨٩ـ مختصر تفسير ابن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ)، اختصار وتحقيق الشيخ محمد علي الصابوني.
دار القرآن ـ الكويت ـ الطبعة السابعة، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨١ م.

٩٠ـ مختصر سيرة ابن كثير (السيرة النبوية لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ٧٧٤ هـ).
اختصار وشرح محمد علي قطب.
دار المسيرة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.

٩١ـ مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (٧٣٩ هـ).
دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى، ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤ م.

٩٢ـ مرجع العلوم الإسلامية، الدكتور محمد الزحيلي.
دار المعرفة ـ دمشق ـ الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م.

٩٣ـ المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله، أبو عبد الله الحاكم (٤٠٥ هـ).
طبع حيدر آباد ـ الهند ـ ١٣٣٥ هـ.

٩٤ـ مسند الإمام أحمد، الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ).
تصوير المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م.

٩٥ـ المسيح عيسى ابن مريم، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير (٧٧٤ هـ).

تحقيق وتعليق الأستاذ عبد الرحمن حسن محمود.

مكتبة الآداب ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

٩٦ـ معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة، الدكتور صلاح الدين المنجد.

دار الكتاب الجديد ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م.

٩٧ـ معجم المؤلفين ـ تراجم مصنفي الكتب العربية، عمر رضا كحالة.

نشر مكتبة المثنى ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربي، د. ت.

٩٨ـ معجم محدثي الذهبي= المعجم المختص، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨ هـ).

حققه وعلق عليه الدكتورة روحية عبد الرحمن السويفي.

دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م.

٩٩ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، أحمد بن مصطفى، طاش كبري زادة (٩٦٨ هـ).

دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ م.

١٠٠ـ مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٧٢٨ هـ).

تحقيق الأستاذ الدكتور عدنان زرزور.

دار القرآن الكريم ـ الكويت ـ الطبعة الأولى، ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م.

١٠١ـ **منهج النقد في علوم الحديث**، الدكتور نور الدين عتر.
دار الفكر ـ دمشق١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م.

١٠٢ـ **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، يوسف بن تغري بردى الأتابكي، جمال الدين، أبو المحاسن (٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠ م).
تحقيق الدكتور محمد محمد أمين، والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور.
نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤ م.

١٠٣ـ **مولد الرسول ﷺ**، شيخ الإسلام الحافظ المؤرخ ابن كثير (٧٧٤ هـ).
تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد.
دار الكتاب الجديد ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة، ١٩٧٧ م.

١٠٤ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، يوسف بن تغري بردى الأتابكي (٨٧٤ هـ).
دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣٠ م.

١٠٥ـ نزهة المتقين شرح رياض الصالحين للنووي (٦٧٦ هـ).
الخن، البغا، شربجي، مستو، لطفي.
مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م.

١٠٦ـ **النقاية متن إتمام الدراية**، جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي (٩١١ هـ).
المطبعة الأدبية ـ القاهرة ـ ١٣١٧ هـ، على هامش مفتاح العلوم.

١٠٧ـ النهاية في الفتن والملاحم= نهاية البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ).

تحقيق الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري.

نشر المكتبة القيمة ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ.

١٠٨ـ هدية العارفين ـ أسماء المؤلفين، وآثار المصنفين من كشف الظنون، إسماعيل باشا البغدادي (١٣٣٩ هـ) تكملة لكشف الظنون.

تصوير دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.

* * *

فهرس الأحاديث الواردة في النص

* * *

فهرس الأعلام المترجم لهم غالباً

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء



من آثار المؤلف

١ـ أدب القضاء لابن أبي الدم الحموي ـ تحقيق ـ دار الفكر.

٢ـ شرح الكوكب المنير في أصول الفقه، لابن النجار الفتوحي، أربع مجلدات ـ تحقيق بالاشتراك ـ مكتبة العبيان، الرياض.

٣ـ المهذب في الفقه الشافعي، لأبي إسحاق الشيرازي، خمس مجلدات ـ دار القلم ـ دمشق.

٤ـ وسائل الإثبات في المعاملات المدنية والأحوال الشخصية ـ رسالة دكتوراه ـ دار البيان.

٥ـ أصول الفقه الإسلامي ـ كتاب جامعي.

٦ـ وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه ـ دار القلم ـ دمشق.

٧ـ طرق تدريس التربية الإسلامية ـ كتاب جامعي.

٨ـ أصول المحاكمات الشرعية والمدنية ـ كتاب جامعي.

٩ـ العقود المسماة، شرح القانون المدني مقارناً بالفقه الإسلامي ـ كتاب جامعي.

١٠ـ التنظيم القضائي في الفقه الإسلامي، وتطبيقه في المملكة العربية السعودية ـ دار الفكر.

١١ـ الإمام الجويني ـ من سلسلة أعلام المسلمين ـ دار القلم ـ دمشق.

١٢ـ القاضي البيضاوي ـ من سلسلة أعلام المسلمين ـ دار القلم ـ دمشق.

١٣ـ الإمام الطبري ـ من سلسلة أعلام المسلمين ـ دار القلم ـ دمشق.

١٤ـ العز بن عبد السلام ـ من سلسلة أعلام المسلمين ـ دار القلم ـ دمشق.

١٥ـ تعريف عام بالعلوم الشرعية ـ دار طلاس.

١٦ـ مرجع العلوم الإسلامية ـ دار المعرفة.

١٧ـ الاعتدال في التدين ـ دار اليمامة.

١٨ـ إحياء الأرض الموات ـ مركز النشر العلمي ـ جدة.

١٩ـ ابن كثير الدمشقي ـ من سلسلة أعلام المسلمين ـ دار القلم ـ دمشق.

٢٠ـ النظريات الفقهية ـ دار القلم ـ دمشق.

٢١ـ الإسلام والشباب ـ دار القلم ـ دمشق.

٢٢ـ الإسلام من الماضي إلى الحاضر ـ تعريف عام بالإسلام ـ دار القلم ـ دمشق.

٢٣ـ تاريخ القضاء في الإسلام ـ دار الفكر.

٢٤ـ بحوث علمية عن: القواعد الفقهية، الاجتهاد الفقهي في بلاد الشام في العصر الأموي، مقاصد الشريعة، التعويض عن الطلاق، مرض الموت، العروبة عند إقبال عقيدة وفكراً، التربية النبوية، الفرص الوظيفية لخريجي الجامعات الإسلامية، الإيمان أساس المؤمن، القضاء الإسلامي في العهد النبوي، الأشعرية، الإمام الشافعي أديباً وشاعراً ولغوياً، السيوطي والقواعد الفقهية، إسهام السيوطي بالإفتاء، السلم والاستصناع وأثرها في تعامل المصارف الإسلامية، التعريف بأشهر العلماء وبعض الكتب.

تم الكتاب بعون الله وفضله.

فهرس الموضوعات

* * *